# دانیال

**δ ανιήλ**

www.ebibliomania.com

+201065534541
+201208868826
fb.com/Books.Bibliomania/
ببليومانيا للنشر والتوزيع
fb.com/bibliomania.eg/
insta:books.bibliomania/
Books ـ ببليومانيا
fb.com/groups/Bibliomania.Books/
@BibliomaniaEg

# دانيال

δανιήλ

رواية لـ

محمد الإدريسي

**ببلومانيا للنشر والتوزيع**

**نوع العمل: رواية**

**اسم العمل: دانيال**

**اسم المؤلف: محمد الإدريسي**

**تدقيق لغوي: فريق ببلومانيا**

**اعداد ومراجعة: فريق ببلومانيا**

**لوحة الغلاف: الرسامة الأمريكية Marissa**

**رقم الإيداع: ٢٠١٨/١٦٨١٥**

**الترقيم الدولي (ISBN): 978-977-6607-56-0**

**الناشر /دار ببلومانيا للنشر والتوزيع**

**المدير العام / جمال سليمان**

**تليفون /26061014 (20+)**

**هاتف محمول/ 1208868826 (20+) - 1065534541 (20+)**

**صفحة الدار على موقع فيسبوك:**

https://www.facebook.com/bibliomania.eg/

**الموقع الإلكتروني:** www.ebibliomania.com

**الطبعة الثانية** ١٤٤٠ هـ - ٢٠١٨ م

**تنويه: ما ورد في هذا الكتاب يعبر فقط عن وجهة نظر كاتبه**

## - حقوق لوحة الغلاف -

لم نجد لوحة زيتية أخرى أكثر صدقاً
قد تصف محتوى الرواية ورمزية الأحداث أكثر من تلك اللوحة..
فنحن لا نقصد بها الإشارة لأي مُعتقد أو عِرق أو ميول أو أشخاص
عدا أنها ترمُز للشباب والقداسة وهذا ما نهدف لإبرازه لذا وجب التنبيه.

- اللوحة للرسامة الأمريكية: **Marissa (@ivyascending)**

## - تـنـويـه -

عزيزي القارئ..

لن أخبرك إن كانت أحداث هذه الرواية حقيقية

أم هي من وحي الخيال ،،

لكن.. الحق الحق أقول لك

استمع لصوت قلبك.. اتبع ما وقر فيه

وثق أنه ليس باراً من لم يُجَرَب.

محمد الإدريسي

صعيد مصر / أغسطس / ٢٠١٨

## - إهـداء -

إلى العزيزة زوجتي التي لم ألتقيها بعد ،،

سلامٌ عليكِ.. هذه الرواية لكِ

اعلمي أنه قد قال السيد المسيح لتلاميذه:

« فَتِّشُوا الْكُتُبَ لأَنَّكُمْ تَظُنُّونَ أَنَّ لَكُمْ فِيهَا حَيَاةً أَبَدِيَّةً. »

لِذا أتمنى أن نقرأ سوياً أغلب كُتب العالم

وأن نجعل أولادنا أيضاً يقرأون.

## - افْتِتاحية -

إنها ليست رواية حُب تقليدية تخبركم تفاصيل مكذوبة

لحياة رجل وامرأة مجهولي الهوية..

بل إنها رواية عن الله والإنسان

إنها بالأحرى رواية عنك أنت أيها العزيز الآتي!!

لهذا فلتقرأ ولتدع الشمس الكامنة في قلبك تشرق.

## - تمهيد -

صوت الأغنية الصباحية للأرض الأم يتصاعد.. يرافقه حفيف هادئ لشجرة برتقال ملتصقة بجدار كنيسة عتيقة لم يتبق منها سوى غرفة مذبح وساحة صلاة ومنارة معلق بها جرس هَرِم كأنه الزمن.. ولا يؤنس وحشة المكان سوى ترنيم متقطع لكاهن شاب يهتز جذعه بينما تظل قدميه ثابتتين مردداً:

- المَجْدُ للهِ فِي الأعالي..

إنها السابعة صباحاً وكل هذا يحدث تحت ناظري بلشون أبيض ريفي يرتكز على جدار بيت بُني من قوالب طينية يعود لأحد خفراء القرية.. إنه صباح رتيب معتاد فلا شيء يستدعي التحقق من تلك الصورة المكررة إلا صوت الأزيز الصادر من أباريق الشاي المُعدة على أعتاب بيوت العجائز حيث أنهن يجتمعن باكراً للتحدث في كُل ما يُمكن لأرامل بمثل أعمارهن التحدث فيه قبل اكتظاظ الأزقة بحركة الأهالي يُرافقهن في ذلك ثلاث قطط حوامل تقترب منهن للحصول على فتات فطورهن الصباحي الذي في العادة يقع أغلبه من أفواههن نظراً لعدم قدرة فكوكهن على المضغ.. ولكن بعد مرور ساعة

واحدة إذا أعدت النظر للمكان بعين فاحصة ستوحي لك شوارع القرية الترابية كأنها لا تزال نائمة حتى أن قطعان الماشية تسير فوقها بهدوء ملحوظ وهؤلاء أيضاً الذين يمسكون بألجمتها من فلاحين وصبية صغار يسيرون كذلك بخطى ناعمة حتى لا يتسببون في ضجيج لا داعي له وفي الوقت ذاته

يفركون أعينهم أملاً في طرد النعاس الذي يكاد يُسقط عمائمهم لشدة اهتزاز رؤوسهم الخارج عن سيطرتهم جزئياً.. تلك هي المظاهر العميقة المسيطرة في غالب صباحات (طحانوف) تلك القرية الوادعة الكامنة شمال الصعيد إحدى قرى محافظة المنيا عاصمة مصر في عهد الأسرة الفرعونية الثامنة عشر أثناء الحقبة الآتونية حوالي الألف الثانية قبل الميلاد حيث كان يعيش هُنا أشهر هراطقة مصر القديمة أو مُصلحيها – هذا يتحدد حسب رؤيتك الخاصة – (أخناتون) وزوجته (نفرتيتي) وابنه (توت عنخ آمون).. فكُل ما يُحيط بتلك القرية يضج بالمعاني والدلالات عدا أسمها فهو لا يعني شيئاً.. مُجرد أسم باهت لقرية منسية لكن هذا لا يمنع امتلاكها جوهر خاص لتفاصيل الحياة اليومية فيها بل وقدرتها على تهيئة مجال واسع من العواطف والانفعالات كنوبة ضحك لموظف مكتب البريد الصغير الواقع قرب مدخل القرية إثر تبادل النكات مع زميل له، إلى الخفقان الأمومي المضطرب لقلب امرأة تودع طفلها أمام بوابة المنزل بعد ان ألبسته حقيبة ظهره المدرسية المهترئة.. إنها كيمياء التعاطف والامتنان والألم وكل ما يُمكن أن يجتمع في حيز من المشاعر تتكشف لنا في هذا الجزء الفريد من العالم.

## - الفصل الأول -

# كيرياليسون

« آهِ! مَا لَنَا وَلَكَ يَا يَسُوعُ النَّاصِرِيُّ؟
أَتَيْتَ لِتُهْلِكَنَا! أَنَا أَعْرِفُكَ مَنْ أَنْتَ: قُدُّوسُ اللهِ! »
(إنجيل لوقا، ٤:٣٤)

- كيرياليسون / **Κύριε ἐλέησον**: كلمة يونانية بمعنى " يا رب، ارحم "

- ١ -

أبي يُشابهُني تماماً أو رُبما أنا الذي أُشابهَهُ.. عندما يحزن ينام.. عندما يخذله العالم يُمدد جسده المطلي بالحكايا ولون الأرض على سرير خشبي عتيق مثل حزنه.. كان لي في غرفته كُرسي يُقابل النافذة فأجلس عليه وأراقب المارة بعيون مَلاحٍ فربما كانوا في الحقيقة سُفناً مسيرة على الأرض تحمل في حواياها أجوله القمح المخلوط بغبار الوقت والرحيل وربما كانوا نوارس تحط على صواري النافذة ليُراقبوا معي أنفاس أبي الشاحبة الممتعضة من شيء ما أو ربما من كل شيء.. ولأن نوايا الأطفال لا تدوم بل تشيخ أسرع من جثة تُرمى إلى قبر فكل ما كنت أراه عبر تلك النافذة لم يكن قطنياً بريئاً وناعماً كما ظننت بل نمت على جدران كل شيء بمرور الوقت حراشف.. كنت أظن أن خطوط السكك الحديدية المرصوفة وكأنها صلبان صغيرة ما بعد تلك البيوت والضِيع المقابلة لنافذة غرفة أبي تحمل فوقها قطارات تنقل البشر من عوالمهم القروية الضيقة إلى أراضي الموسيقى الواسعة في المُدن حيث الحلوى والحليب وكل شيء مجاني للصبية كما كانت تحكي لي جدتي.. ولكن القطارات لا تحمل سوى الفراغ وقناطير الغياب التي تُوزَع بحِفن عادلة على المسافرين.. لا تحتضن المحطات سوى عازفين الكمان العُزاب ذوي القلوب الموشومة بأوتار أربعة الذين يضعون في قُبعاتهم صور وبراويز لنساء عجائز مجهولات ربما كُنَ جدات لمسافرين أخرين أو ربما هُن الأرض من يدري!!.. يُلقون بتلك القبعات أمام المارة ويعزفون من أرواحهم ألحاناً كجدائل الصغيرات ليأتي مسافر تُقب قلبه في محطة أخرى ليرمي في قبعاتهم عملة فضية تكفي لشراء رغيف خبز.. هذه هي حيوات الناس كما لم أراها من قبل.. أو هكذا هُيء لي.. إن هذا العالم لهو ساحة عراك حقاً.. كُل شيء فيه مُدعى ومُزيف حتى هواجس النفوس ودوافع الأغراض ونوازع البقاء وعلى قدر هذا الزيف تتشكل حواصل قلوبنا فتتأرجح حينها بين الرجاء والخذلان ولهذا فلا أعتقد أن هناك شخص حالم بشكل تام وشخص

منطفئ الفؤاد بشكل تام نحن نتقلب بين الأمل واليأس مثل عملة معدنية نلقي بها في الهواء فتتقلب في الأعلى بين هذا الوجه وذاك حتى نستقر على راحة يد أحدهم ونتوقف على وجه معين ومن ثم نلقى مجدداً للهواء لتتقلب وهكذا بشكل دوري إلى أن ينتهي العالم أو ننتهي نحن.. ببساطة يجب علينا أن نُسلم بأننا متقلبون وهذا أمر طبيعي جداً.. نحن نصارع ذواتنا من أجل الاكتمال وهذا ما لا نحصل عليه أبداً.. إننا متناقضون جداً ونفعل كل شيء وعكسه في نفس الوقت وإن كنت لا تُصدق هذا فكيف تُفسر لي تضميد أحدهم لجناح طائر جُرح إثر طلقة رصاص غير دقيقة خرجت من عنق بندقية صياد مبتدئ لتصيبه في جناحه عوضاً عن قلبه ليسقط أرضاً في الفناء الخلفي لمنزله ثم بعد ذلك يقوم الشخص نفسه بسكب السم داخل الأنفاق التي حفرها خُلد صغير أعمى بالقرب من سور حديقته ليُميته فيمتنع عن حفر أنفاق أكثر تفسد في نظره تناسق وجمالية العُشب؟ أليست هذه هي الحقيقة؟ أعني أن كل البشر مجانين لو فكروا فيما هم فعلوه من غرائب شبيهه لهذه في حياتهم.. ألسنا جميعاً لدينا ما نخجل من ذكره أو إخباره لأي أحد؟.. بلى نحن كذلك ولكن نُغرق أنفسنا في زيف العالم هرباً من شيء ما!! وعلى الرغم من ذلك إلا أننا أحياناً فجأة نتعجب لِم علينا أن نكتم ذلك أو نقوله؟ لما علينا أن نخاف من ذواتنا وما هي عليه؟ إن مجمل الأعمال متعددة الطبائع التي نقوم بها لا يُحصى ولكنه يُخبرنا بشيء واحد أننا لا نعيش بمفردنا بل في الغالب يعيش بداخلنا أشخاص آخرون لكل واحد منهم طابعه الخاص ومزاجه.. فقد تسأل نفسك لِم عليّ أن أقبل حضور حفل زفاف أحد الجيران رغم أنني لا أتذكر كم مرة ألقيت عليه تحية الصباح أو أنني لم أفعل ذلك أصلاً؟ ولكنك في النهاية ستذهب لسبب ما.. وقد تسأل نفسك أيضاً لِم أتبادل النكات مع الغرباء داخل قاعات الانتظار بمشفى أو بهيئة إصدار تصاريح حكومية أثناء تجديد الأوراق الثبوتية؟ ومبلغ علمي فإنه لا أحد أبداً قد فسر ذلك لذا فإن أفضل شيء هو أن نتغاضى عن الرتوش ونسرد قصتنا المحضة وليدة تلك اللحظة المنتمية لنا حيث أنه بعد أن أصبح الأمر في الماضي لن يكف أي شخص أخطأ أو أصاب عن

التنفس أو عن ارتداء نعله من شدة حرجه.. بل أن كُل شيء سيستمر في دورانه حول مركز جاذبيته الخاصة!!

- ٢ -

جَنّ الليل والساعة تُشير للثامنة وخمس دقائق.. أخذ (يونس) يُفكر في معنى ذلك الحُلم الذي رآه ليلة أمس ولم يجد له تفسيراً.. ظل يفكر لساعات حتى أُرهق دماغه فتوقف عن طرح الفرضيات لما يراه وما لا يراه ربما لأنه استُنزف بما يكفي واستكفت أيضاً جبهته بما نزته من عرق فنهض من فوق أريكته المكسوة بشراشف الصوف المُلون بخطوط تتقاطع عرضياً تُشبه وجوه أهل القرية عندما يذهبون صيفاً لحرث حقولهم مُرغمين.. انسدل جلبابه الرمادي عند قيامه وأسرع بانتعال حذاءه وفي خاطره أن يذهب لدير الرهبان المجاور لكنيسة القرية فخرج من منزله يسوقه شغفه لحديث أكثر زُرقه وعمقاً مع الكاهن (مكاريوس) ذلك الرجل الذي بلغ الثامنة والستين ومازالت دماء الشباب تنضح من وجنتيه.. فقطع الأزقة الخالية من الأنس إلا من ثغاء وتؤاج الضأن المنبعث من حظائر الرُعاة الكائنة في أحواش منازلهم تلك المخلوقات التعيسة التي خُلقت فقط لتدخل في مداورة كبرى بين أسْوِجة حقول البرسيم ومسالخ القصابين.. وعندما وصل لبوابة الدير الخشبية طرقها بلطف ثلاث مرات وانتظر حتى فُتح له فرحب به راهب شاب مرتدياً جلباباً أسود ويُغطي رأسه غِطاء مُطرز بالصلبان كما هو معلوم عن هيئة كل راهب فسأله عن إمكانية لقاء الأب (مكاريوس) خاصة أنه يعرف بتواجده في مثل تلك الأوقات داخل أروقة الدير فضلاً عن أنه يرتبط بعلاقة قوية وصداقة قديمة مع والده وقد حضر (مكاريوس) الاحتفال الذي أقامته عائلة (آل التلمساني) في اليوم السابع لميلاد (يونس).. فهز الراهب رأسه بالإيجاب وأشار له بالتزام أول رواق ثم الانعطاف يساراً ليجد الكاهن في غرفته وليطرق الباب مرتين حتى يفهم أن من على الباب ضيف فرهبان وكهنة الدير يستأذنون من بعضهم البعض بطرق الأبواب مرة واحدة ثم الانتظار إلى أن يؤذن لهم.. فسار (يونس) في رواقه ثم انعطف حتى ظهرت له غرفة بابها مُغلق ونوافذها تشي بأنها مُضاءة فاقترب من الباب وطرقه مرتين ثم تراجع

بخطوة للوراء انتظاراً لفتحه.. وبعد لحظات فُتِح وخرج الأب الكاهن مُرحِباً به مُربتاً على كتفه ثم دعاه للجلوس بالداخل على أحد المقاعد الخشبية المرصوصة حول طاولة عجوز طُليت بلون أخضر.. الغرفة عتيقة حقاً وتفوح منها روائح تعبُد وبَخور.. على الجدران عُلِقت صوراً (للمسيح) وأمه وصوراً أخرى لقديسين منهم من صُورَ باكياً ومنهم من صُورَ مُمسكاً بحربته يطعن تمساحاً رمزاً للشيطان.. صوراً أصاب الاصفرار أُطُرها البيضاء كناية عن مدى قِدمها.. استمر (يونس) يتفقد الغرفة بعين مُتأمل لا عين فاحص حتى عاد (مكاريوس) حاملاً معه براداً من النعناع المغلي وكوبين ثم اقترب من الطاولة ووضع عليها ما يحمله ثم قال:

– أرجو أن تُشاركني شُرب بعضاً من النعناع.. لم أشأ أن أقدم لك قهوة ولكني أحببت أن أُقدم لك ما هو أطهر

فتبسم (يونس) وقال:

–الاثنان يُغليان في نفس الماء فلما يكون أحدهما أكثر طهارة من الآخر؟

صب (مكاريوس) الكوبين وقدم أحدهما لضيفه ثم عاد لمقعده ليقول:

– ليس كل ما يُغمس في ماء صافٍ يتطهر بالضرورة.. القهوة أكثر خُبثاً.. أشعر أنها كذلك

شرعا في ارتشاف ما بكوبيهما وتكلما قائليّن:

– جِئتُ أسألك عن الخوف والفضيلة وعن قلوب الناس.. لماذا خلقنا الله ونحن نحمل هموماً كبيرة جداً في صدور أضيق من عُلب السردين الصدئة.. أظن أننا خُلِقنا مُعذبون

– أتظن بأن الله يفعل؟

– بلى.. أظنه يفعل

– الشك والخوف والتعاسة أشياء تُكتسب أما الفضيلة فهي فطرة.. والقلوب الخشنة مُفارقة للسكينة يغشاها الشك والخوف والضلالات.. إنك تظُن أنه رُبما خُلِقنا مُعذبين والخلاص ربما يكون في إشاعة إرادة الفضيلة الحقة بين الناس.. إن سعيك لخَلقٍ أفضل لقدرٍ أفضل لا يُعول عليه

– إنني خائف حقاً

– مما تخاف؟

–من كُل شيء.. ومما أراه في أحلامي ليلاً.. أتعلم يا أبتِ أنني بالأمس حلمت بما صُورَ لي بأنه شيطان يجلس على طرف سريري ويُحدثُني ويحمل بين ذراعيه ألة تُشبه الكمان ويقول لي: ألا تريد أن تسمع ألحاناً مسروقة من الملكوت.. ألا تريد أن تسمع تسابيح الملائكة أمام عرش الرب؟

– وبماذا أجبته؟

– قلت له: بلى أريد ذلك.. أريد ذلك بشدة..

فقال لي: إذن أغمض عينيك وأستمع ثم أتبعني.. ظل يعزف ألحاناً جعلت قلبي يلمع في عتمة صدري وأنا أسمع.. هو يعزف وأنا أسمع.. إلى أن فرغ وأنزل الكمان من تحت ذقنه ووضعه بجانبه.. ظللت أسمع إلى أن توقف كل شيء في تلك الساعة والتي لا أعرف ما هو توقيتها تماماً أكنا صباحاً أم مساءً أم أن الأمر كُله مجرد حُلم داخل حُلمي.. ثم اقترب مني بخطواتٍ صغيرةٍ متأنية حتى أصبح وجهي قبالة وجهه فنظرتُ إلى محجرَيْ عينيه الجوفاوين فشعرتُ بالدوار وكأنّي أنظر إلى حفرة لا قاعَ لها ثم أنحنى وقبّلني على شفتَيّ وبعد ذلك تراجع بضع خطوات.. لا أدري كيف حدث ذلك لكني سقطت من فوق سريري واستلقيتُ أرضاً على جنبي الأيسر وضممتُ رِجلَيّ بيدي ولم أستطع أن أقف على قدمي لأتبعه كما كان يُشير لي.. شعرت وكأنما هناك قوة ما تُريد فك تشابك ذراعي حول رُكبتي لكن لم تُفلح.. ظللت ساقطاً على الأرض متكوراً حول نفسي كقنفذ ولد حديثاً دون حركة ثم نظرتُ نظرة أخيرة إلى المحْجريْن الفارغيْن والابتسامةِ الآتية من الجحيم ثم حلّ الظلام

– أتدري لما سقطت أرضاً؟

– لا علم لي يا أبتِ

– إنه فقط كان يُجربك.. يمتحن قلبك.. رغم ضُعف إرادتك وسماعك لما تلاه عليك إلا أنك لم تتبعه وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على صلاحك يا بُني فابتهج.

– أشعر أنه تنقصني أشياءً كثيرة كي يحق لي أن أبتهج فعلاً.. قلبي فارغ تماماً والريح تضرب جوانبه ولعل ما أفكر فيه صحيح بأن كُل هذا الخواء الذي يسيطر على العالم ويبدو كأنه عقاباً جماعياً صبه الرب على نسل أدم سينتهي لو أن الناس تطهروا واغتسلوا من آثامهم ربما لن يُفكر أحدهم ليلاً لماذا نحيا بهذا الكم من الآرق.. لماذا نخاف من الآتي.. لماذا تغزونا تلك الهشاشة.. نحن أصل الشر ولهذا خُلقنا ولهذا تُصرف مقاديرُنا

– أسمعت عن القديس (غبريال) مُعَلم المسكونة؟

– لا.. ولكنه لم يستهلك قلبي أحد أكثر من الأولياء والقديسين رجال الله

–يُحكى أن (غبريال) رجل من أهل (أخميم) تلك المدينة الجنوبية التي تبعُد عن قريتنا مسيرة يومين وعاش بعد (المسيح) بستمائة عام.. كان قلبه مكلوم كالثكالى.. يرى الناس يتكلمون بكلام الله وكلام رجاله ولا تتجاوز فضائل ما يتكلمون به أطراف ألسنتهم فأصابه غم عظيم وظن أن العالم ما هو إلا شر خالص فقرر أن يعتزل الناس ويعتكف فوق جبل لعل في خلوته تأتيه تعزية السماء فظل ماكثاً متعبداً منقطعاً سبع سنوات ولم تأتيه بشارة ولم تُعزَ روحه فترك الجبل وعاد للمدينة وعندما وصل لمدخلها وجد شيخاً طاعناً يحك قضيباً من حديد بخيط من الصوف

فقال له: – ماذا تفعل؟..

قال الشيخ: أصنع إبراً بحك الخيط بالحديد وأبيعها في السوق..

فرد عليه (غبريال) بأنه شيخ مجنون كيف للصوف أن يفل الحديد؟.. فسحب الشيخ وعاءً مُليء بالإبر قد صنعها بتلك الطريقة بعد جهد طويل لأعوام.. فوقر في صدره أنه سبع سنوات غير كافية للاعتكاف وصعد للجبل مرة أخرى واعتزل الناس لسبع سنوات أُخر وكان يرى أثر قطرات الماء في نحت الصخور عام بعد عام فالماء على هوانه نحت جدران الكهف ولعل صبره على اعتزال الناس يورثه الحكمة لهدايتهم.. ولكنه أيضاً لم تأتيه أي بشارة ولم تُعزَ روحه فترك خلوته بعد أربعة عشر سنة منقطعاً للعبادة دون جدوى فأكل اليأس قلبه.. وبينما هو في طريقه للمدينة وجد كلباً يعيث الدود فيه فساداً وقد هزل هزالاً شديداً بل يوشك أن يقضي.. فرق له.. وحمله وأخذ يلحس فرو الكلب بلسانه ليرطبه ثم أبعد الدود عن جلده.. فأنشقت السماء وظهر له (المسيح) متوجاً ممسكاً بصولجان.. فخر (غبريال) أرضاً مرتجفاً فقال يا سيدي انتظرت خبر السماء أربعة عشر عاماً ولم تُعزَ روحي.. فقال (المسيح) بل كنت معك.. فقال (غبريال) كيف؟.. رد (المسيح) قائلاً: من الذي صنع الإبر من كُتل الحديد؟ لقد كُنت أنا.. من جعلك ترى أثر قطرات الماء في شقوق كهفك؟ إنه أنا.. لقد فعلت هذا من أجل أن أُعزيك.. إن تعاسة روحك يا (غبريال) كانت في مراقبة قلوب الناس ولكني الحق الحق أقول لك.. أن الفضيلة هي الاعتناء بما هو أمامك فإحسانك لكلب أشد قداسة من تعبُد أربعة عشر عام.. عليك بنفسك يا (غبريال).. اذهب وأكرز وعَلم المسكونة بما رأيت وسمعت.

أنهى (مكاريوس) الكاهن حديثه ثم عاد بظهره إلى الوراء ليُلصقه بالجدار ونظر بعينين ضاقتا قليلاً من أثر الابتسام (ليونس) الذي كان يبدو كمن صُب في جوفه ماء الحياة.. اتسعت عيناه وتوردت وجنتيه وأخذ في الابتسام تدريجياً كأنه رجلاً وجد عزاءً يستحقه ثم قال:

– إذن فالألم المُبكر أفضل من الألم الذي يتم تأجيله أو هكذا تُريد أن تُوصِلَ لي ذلك بطريقة ما.. حسناً لقد نجحت في إيصاله حقاً

تحرك الأب بجزعه مُجدداً للأمام وهم بمسك البراد الساخن بخِرقة من جلباب كهنوتي قديم ليصُب كوباً أخر له وأكمل بحميمية:

-أتظن أن الآلام تكمن في الحرمان؟

- جزء كبير من عذابات العالم تكمن في الحرمان

- إذا افترضنا عالماً هو ظاهريّا نعيم مكتمل تتحقّق فيه كلّ رغبات الإنسان ما أن يفكّر فيها فإنّ ذلك العالم نفسه سيقتل في المرء مفهوم الشّوق أو الرّغبة

- وما فائدة الاشتياق للراحة والخلاص إن أنتفى الحرمان والآلام؟

- إذن فلتسمع.. يُحكى أن رجلاً توفي فوجد نفسه في دار رائعة الجمال هندسة ومعماراً وأثاثاً وجاءه كائن قدم له نفسه على أنه ملاك وطلب منه أن يتمنى ما يشاء فطلب الرجل زوجة حسناء وكان له ما أراد.. ثمّ طلب الرجل طعاماً شهياً فجيء له بطعام يفوق ما صوره له خياله لذة ثم طلب الرجل جواهر نفيسة وألبسة فاخرة فتحقق طلبه في لحظة وتواصلت رغباته فيُستجاب لها ما أن يعبر عنها بل قبل أن يعبر عنها وما أن تخطر بباله أحياناً وبعد مدة شعر ذلك الرجل بالسأم والملل فنادى الملاك الذي يحقق له رغباته وقال له:

- لقد مللت.. ما كنت أتصور أن الجنة مملة إلى هذا الحد؟

فنظر إليه الملاك نظرة عميقة وقال له:

- الجنة؟ من قال لك إنك في الجنّة؟

هذا هو الجحيم يا سيدي وأنت فيه

لذلك تيقن أن الألم الحقيقي هو ألا يكون للشيء نقيض ممكن

- إذن لا خلاص!

– بل إنك تمتلك مفاتحه.. فلا تكن كالذي حمل مصباح في أزقة مُظلمة يبحث فيها عن الإنسان الفاضل فأجل ألم الاكتشاف إلى أن يُقابله يوماً ولم يعلم أبداً أن الإنسان الفاضل يسكن بداخله.. لذلك اكتشف نفسك الآن يا (يونس) واكتفِ بذاتك وكُن أنت ما تُريده للناس.. اسمع، أريد أن أوُضح لك شيئاً.. أتعلم أن المنشغل بالبحث عن سُبل لإصلاح الناس في غالب الأمر يُمسي ضحية هو نفسه لمن يُريد إصلاحهم؟

– كيف يمكن حدوث أمر كهذا؟

–حدوث ذلك سهل للغاية فلا أنا ولا أنت إن وضعنا في كفة ميزان واحدة معاً قد نُساوي معشار ذرة إن كانت الكفة الأخرى يقف فيها (المسيح).. لقد أفنى حياته باحثاً عن خلاص شعبه ولم يؤذه أحد قط أكثر منهم.. فقد كان رؤساء الكهنة اليهود ومُساعديهم وكتبة المجمع المقدس يخططون للتخلص من هذا الذي استطاع في فترة قصيرة أن يجمع كل هذه الجماهير حوله حيث إنهم رأوا سلطانهم على الشعب يتحوّل عنهم وبالمقابل يلتف الناس حوله مأخوذين بأقواله وأعماله وذلك لأنه وبالحق قد روت كلماته عطشهم وسلبت عقولهم فقد كان يعلّمهم كمن له سلطان فجذبهم حبه لهم وهو يتحنن عليهم ويشفي مرضاهم لقد صنع من أجلهم المعجزات في الجليل وأورشليم فكان العمي يبصرون والعُرج يمشون والبُرص يطهرون والصم يسمعون والموتى يقومون!.. لذا رأى رؤساء الكهنة والكتبة فيه خطراً يُهدد مكانتهم فأرادوا أن يزيلوه من طريقهم ورغم أنه كان موجودا وظاهراً في كل مكان ومن السهل الفتك به لكنهم كانوا يخافون من الشعب الملتفّ دائماً حوله وكانوا يخافون أكثر من أن يختفي ويخرج من وسطهم بعيداً عن متناول أيديهم كما حدث حين همّوا أن يرجموه وهو في الهيكل يُعلم الناس كيف يعيشون حياة الصلاح فلم يجدوا طريقة لذلك أفضل من أن يُسلمه أحد تلاميذه وهذا ما كان.

انقطع الحديث لدقائق.. كان فيها ضوء المصباح الأصفر المُعلق وسط الغرفة يرتعش على الحوائط وما تحويه من صور ظلالاً راقصة تُظهر القديسين وكأنهم كيانات هُلامية مُتهرئة تهم للخروج من أُطر صورها..

قام (يونس) من فوق كُرسيه واتجه نحو النافذة الصغيرة المُفرغة في جدار الغرفة أو كما يُسميها رُهبان الدير "طواقة" ونظر من خِلالها للسماء الذي بدا فيها القمر فضياً أكثر مما يلزم شاقاً جزءاً من سفح الجبل المُقابل للقرية من الجهة الشرقية للنيل.. تنهد ثم استدار نحو الكاهن والتحف شملته المطرزة المتدلية على عنقه منذ أن خرج متجهاً للدير ثم استأذنه في الرحيل فهز رأسه سامحاً له بلطف..

- ٣ -

خرج (يونس) من الدير قاصداً الكوخ الخوصي وسط السبعة قراريط المزروعة قمحاً التي تمتلكها عائلته.. ذلك الكوخ الذي بناه عم (عبد الباسط) أحد الفلاحين الذين استأجروا الأرض لزراعتها في أحد مواسم القطن قبل سنوات طويلة تزيد عن تِسع سنوات لكن الكوخ ظل ثابتاً ربما لأنه بُني بحُب فكذلك الأشياء التي يبنيها الإنسان بشغف تبقى.. وخلال سيره وكلما اقترب من مصرف المياه الشاقق لمنطقة الزراعات ماراً بينها كان يتعالى صدح البنات العَذارى فيما يبدو أنه يُقام عُرس إحداهن في الجوار.. صدى الأهازيج كان واضحاً حتى أنه جعل كرانيف النخيل المحيطة بالحقول تهتز وكأنها ترقص.. الفرح فضيلة إن كان لأمر يعول عليه.. دخل (يونس) للكوخ وجلس مُمدِداً قدميه مُقابل الباب.. لا شيء أفضل من تعود بسيطاً غير متكلف غير مهتم..

نسمات الريح باردة وكذلك قَلبَهُ ما أصعب أن تمتلك قلباً بارداً لا يهدأ.. نظر (يونس) أقصى يمينه فوجد " قصعة " وبعض " قوالح " الذرة الجافة وعلبة ثقاب لم يتبق بها إلا ثلاثة أعواد.. فقام وأحضرها ووضع في قعرها عدداً من تلك القوالح وسحب عود ثقاب ثم أشعل ناراً زرقتها خافتة في قلب القصعة.. النار بدأت تأكل ما جُهِز لها وأخذت ترتفع شيئاً فشيئاً.. ليس هُناك أمراً يشغل باله الآن سوى أن يبحث في داخله عن فضيلته التي خُلق ليُثاب على جهده باحثاً عنها.. ففضائل كل إنسان تُخلق معه في رحم أمه.. فمنهم من تكون فضيلته الوحيدة تمرة جافة يقتسمها مع درويش أو ترك بعوضة تهرب من النافذة بعد أن امتصت قطرة من دمه أثقلت جوفها رغم قدرَتهِ عليها.. اللهب يتراقص في القصعة ويحملق به جالساً القرفصاء ماداً يده نحوه.. تنعكس في لمعان اللهب وجوه كثيرة لأهالي القرية ولبيوتهم أيضاً فحتى البيوت الطينية هُنا لها أوجه كأصحابها.. مرت دقائق من الصمت لم يخترقها سوى ضِباح مُمزق لثعلب تطارده زمرة من الكلاب في الحقول المجاورة ولكن فجأة أحس

(يونس) وكأن الأرض دارت دورة كاملة حول نفسها في تلك اللحظة التي فكر فيها (بمريم).. تلك الفتاة التي بدت وكأنها خُلقت من حُلم.. انتفض وتينه وتوسع حينها تذكر رعشته عندما رآها أول مرة قبل أيام مُجتازة بصحبة أمها ذلك الباب الجانبي الضيق للكنيسة وقت وقوفه المعتاد بجوار حائط منزل الشيخ (رجب الملواني) خطيب كل جمعة المُقابل له.. فبوابة منزل الشيخ (رجب) مقابلة تماماً لبوابة كنيسة القرية وقد أعتاد (يونس) الوقوف هناك في أيام الآحاد دون سبب واضح.. هو يقف هُناك لأنه يُحب ذلك أو ربما شيء ما يدفعه للوقوف لرؤية العابرين دخولاً وخروجاً عبر بوابات الكنيسة.. كانت (مريم) في ذلك الأحد تُشبه أيقونة العذراء المرتدية جلبابها الأزرق الفضفاض المختلط بطهارة وجهها المتوهج جمالاً كما رسموها آباء المسيحية الأوائل نقلاً عن وصف تلاميذ (يسوع) الاثني عشر لها.. ظلت صورتها عالقة لساعات في ذهنه مشدوهاً نحو اللا شيء ولم يقطع تعلقه بها سوى أفكاره الباحثة عن خير الإنسان وشره.. (مريم) ظهرت له ليلة أمس مطبوعة صورتها على سقف غرفته.. نعم هو أمن أنه رأى ذلك عندما كان ممدداً على سريره حينها لم يقل شيئاً ولم يبد أي ردة فعل فقط ظل محملقاً للسقف وكأنما وقرت تلك الفتاة في أكثر غرف قلبه ظلاماً فأنارتها.. لا شك أنه أحبها ولكنها محبة هادئة خافتة الضجيج كالنار التي تلتهم قوالح الذرة الجافة في القصعة التي أمامه.. لقد شعر بأن كُل ما هو حتمي يُمكِنه أن يُصبح جائزاً.. حتى الشجر الميت في الغابات يُمكن أن يُزهر مُجدداً.. إنها قوة الحُب.. القوة الممنوحة من الإله قبل الطوفان وقبل آدم.. إنها القوة التي خُلق بها الكون.. الآن كُل ما يُفكر به هو محادثتها.. التسلل لقلبها كما تسللت لقلبه.. سينتظر حتى تنطفئ نار القصعة ثم سيعود لمنزله عازماً في الصباح الجديد على البحث عنها فربما تكن هي فضيلته ومسراه وكرازته..

أما الآن فليعد للجلوس مُمِداً قدميه مقابل باب الكوخ سانداً ذراعيه للخلف منتظراً قمراً ينشق أو براق يعبر أو ملائكة تُرنم "المجد لله في الأعالي وللناس المسرة"..

إنه ينتظر حدوث أي أمر يُثبت له أن الأعمال الإلهية على الأرض لم تنتهي بعد..

- ٤ -

تسلل القمر إلى الخلفية مُمهداً مسرح السماء لبزوغ شمس غضة طفولية ففي كل يوم تولد الشمس ولادة جديدة كما كُنَ يعتقدنَ العجائز.. إنها التاسعة صباحاً وأغلب رجال القرية يُحركون الآن جواديف الماء لرفعها من المصارف إلى مسارات الحرث داخل حقولهم ولا يُظَن أن أحداً يتخلف عنهم إلا أثنين.. (يونس) الذي لا يزال نائماً داخل غرفته بعد عودته من الكوخ فجراً ويبدو من رؤية علوية للغرفة أنه نائم كجنين لا يظهر منه سوى خصلات شعره فاحم السواد أما بقيته فتحت غطاءين أحدهما قُطني ونظيره في الأعلى غُزل من الصوف العجمي الفاخر.. أما المُتخلِف الآخر عن تحريك مجاديف الماء في الحقول مع أقرانه هو ذاك الرجل السبعيني العِربيد الذي يُنادونه (رشاد الفخراني) إنه شيخ سِكير شديد الطرافة تجاوز الخامسة والسبعين عاماً.. يقع بيته في الشارع الموازي لبيت (آل التلمساني) الذي ينام (يونس) في طابقه الثالث.. لا يَعمل (رشاد) في أي مسلك يخص الفلاحة فهو يرى أنه خُلق لشيء آخر.. خُلق ليُعامل كشيخ بلد أو كعُمدة فعائلته كانت قدياً هي من تحكم القرية ولكن رحى الأيام لا تكف عن الطحن ولا الدوران فمشيخة القرية وعِمادتِها ذهبت (لآل إدريس) تلك العائلة التي لا يُعرف عنها إلا وفرة المال والسلاح.. يتحرك (رشاد) نحو زوجته (سُكَينة) التي غارت عيناها بفعل العَجز وتهدلت وجنتيها وأحاطت بوجهها هالات الصُفرة والشحوب.. كانت تراه يتقدم نحوها ولكنها لم تكن تقوى على محادثته فضلاً عن التحرك نحوه بالمُقابل فهي تعلم أنه سيسألها نفس السؤال اليومي المُعتاد..

– أين الجلباب الأبيض والعمامة؟

قال جملته ثم أشارت له أن ما يبحث عنه وضِعَ على الأريكة في " المندرة " وهي غرفة استقبال الضيوف في البيوت الريفية.. ارتدى (رشاد) جلبابه وعمامته وتحرك لصحن المنزل حيث ترك عربته

الخشبية ليلاً بعدما جهزها ببضاعته تحسباً ليوم غد.. التقم مقبضي عربته وسحب قفل الباب المربوط بخيط يُعانق مسمار صدئ مثبتاً بالحائط لتسهيل فتحه والتحرك بالعربة مباشرة نحو الخارج بسلاسة.. عربة (رشاد) لا تحتوي إلا على نوع واحد من البضائع.. إنها تلك الحبوب الدرنية التي تُسمى " لوز الأرض " أو " حَب العزيز " ويُشاع أنها سُميت بهذا الاسم نظراً لأن الخليفة القاهِري (العزيز بالله الفاطمي) كان مولعاً بأكلها.. شد ذراعه الأيمن الخيط ففُتح الباب ثم دفع بعربته إلى الأمام ومن عادته أن لا يَغلِق باب المنزل وراءه.. لا يحب غلق الأبواب ويعتبرها فأل شؤم ولهذا تتولى (سُكَينة) ذلك.. وما إن اعتدلت وقفته بها ترك عجلاتها الخشبية تدور متجهة نحو مدخل القرية حيث مواقف السيارات تبدو كمحطات صغيرة لقطارات صدئة منسية يرتادها مسافرون منسيون أيضاً.. يعتقد (رشاد) أن الناس يستحقون دائماً الأسوأ فلولا الموت لنسي الناس الله تماماً.. فهو يراهم يُصلون ويزكون ويشيدون عروشاً من الورع ولكن كُل هذا ليس لله ولكن يتصنعه الناس للناس وعلى الرغم أنه لم يُصل بمسجد القرية صلاة واحدة منذ أن بلغ الثامنة عشر ولم يترك قط قوارير الخمر الفاخر منها والوضيع ليلة واحدة حتى أصبح دمه مائلاً للزرقة لكثرة ما يحتسيه من شراب إلا أنه صاحب بصيرة لا يملكها ولي من أولياء الله المدفونين في الساحة الخضراء تحت قِباب أضرحتهم الضخمة في الشطر الغربي للقرية ولهذا فهو دائما يُجيب على تفسيق الناس له بجملة واحدة لازمة: " القلوب مرايا والإله ديان.. "

يصدح صوته عالياً بمدخل القرية وسط هرج المارة ليشتتهم للحظات مُنادياً:

– حَب العزيز يا لوز.. سُكر يا لوز.

اصفرت الشمس وعادت أسراب الحَمام لأعشاشها فوق أسطح المنازل.. وفي تلك الأثناء أيضاً اتَّكَأَ (إسماعيل داوُود التلمساني) مُدير مكتب بريد القرية على أريكة مُبطنة بالقُطن في صحن الطابق الأول للمنزل مرتدياً جلباباً فضفاضاً ذو ياقات مُطرزة منتظراً عودة زوجته (خديجة) من المطبخ وهي تحمل

صِينيّة وضِع عليها إبريق شاي وكوبين زجاجيين.. أقبلت (خديجة) ثم جلست بجوار زوجها ووضعت الصينية على كُرسي مقابل للأريكة ولم يقطع دقائق الصمت تلك إلا صوت صب الشاي المتدفق للكوبين.. تنحم (إسماعيل) ثم قال:

– أما زال (يونس) نائماً إلى الأن؟

لم يُمهل (يونس) والدته لتُجيب حيث كان وقع خطاه هابطاً لأسفل على الدرج مسموعاً فأشارت لزوجها بسبابتها لأعلى أو بما معناه ها هو قادم.. وما إن وصل لصحن المنزل سلم على والديه وقبل رأسيهما ثم استأذن في الخروج فسمحا له دون استفسار عن وجهته ربما ليتفرغا للحديث حول تلك الأمور التي تشغل بال الناس ولا يفهمها غيرهم حينما يتجاوزون الخمسين.. (يونس) الآن لا يُريد شيء أكثر من الحديث (لمريم) وهو الذي جمع عنها ما يكفي خلال أيام أربعة خلت.. استطاع ان يعرف في اي منطقة يقع بيت عائلتها ضمن نطاق القرية وبمجرد معرفة ذلك أصبحت كل المعلومات الأخرى مُرفقة بالتبعية فكونك تعيش في قرية بصعيد مصر هذا يجعلك تعرف بوضوح تام هوية سكان كل حي بل ويمكنك أيضاً معرفة أديانهم وطوائفهم وأصول عائلاتهم حتى ما يُطبخ في قُدورِهم يُمكنك معرفته من خلال الروائح المتسللة من ثقوب النوافذ.. إنها فتاة لأب مسلم وأم مسيحية من طائفة الكلدان أسمها بالكامل (مريم شاهين الحواتكي) تبلغ من العمر تسعة عشر عاماً أي أنها تصغر (يونس) بعامين حيث أنه يبلغ واحد وعشرون عاماً.. أنهت دراستها في مدرسة الزراعة لتحصل على شهادة تندرج تحت مُسمى " دبلوم زراعة " وهو نوع من التعليم المتوسط شبه الحرفي.. تماماً (كيونس) والذي أنهى دراسته في المدرسة الصناعية قسم ميكانيكا السيارات ليحصل على نفس الدرجة من التعليم المتوسط.. والد (مريم) يعمل موظفاً بوزارة الصحة وكانت واقعة زواجه بـ (كارمن) برضا غريب ونادر بين عائلتيهما قد أصبحت مسار حديث القرية لشهور.. يُقال إن عائلة والدتها الكلدانية قد فرت من اضطهاد ما في العراق قبل مائتي عام أو أكثر وهاجروا في جماعات لمصر

وسوريا.. يُعرف عن المسيحيين الكلدان أنهم رعايا الكنيسة الكاثوليكية ولكن عائلة (كارمن) بطريقة ما ذابت في الثقافة الأرثوذكسية المصرية وأصبحوا ضمن شعب البطريركية المرقسية.. تحولوا مذهبياً لأقباط ولكنهم ظلوا يُعرفون بين الناس ككلدان.. (شاهين الحواتكي) لا يمنع ابنته من الذهاب لقُداس يوم الأحد رفقة والدتها بل يقول لها دائماً أن رب الكنيسة هو رب المسجد.. ظل (يونس) لثلاثة أيام لا يبرح حوض شجرة الجميز المزروعة بالقرب من منزل (مريم) يخرج عصراً حتى يصل لذلك الحي ويظل جالساً تحت تلك الشجرة ناظراً لأعلى فربما أطلت من النافذة أو فُتِح باب المنزل فتخرج منه لقضاء حاجة ما رفقة والدتها.. وخلال تلك الأيام الثلاثة لاحظت (مريم) من خلف نتوءات خشب نافذة غرفتها وجود ذلك الشاب قرب الشجرة بصفة مستمرة وكأنه جذر ثانٍ لها.. فخشيت أن تفتح نافذتها درئاً لأي فعل ما قد لا يروق لها.. ولكن كُل ذلك تغير في صباح اليوم الرابع.

- ٥ -

أشرقت شمس الثلاثاء التاسع عشر من شباط للعام ألف وتسعمائة وأربعة وتسعين.. يبدو صباحاً عادياً كصباحات القُرى المُختبئة على ضفتي النيل المغطاة طُرُقهم الترابية بأحراش المصارف وقنوات الري.. لكن بالنسبة لأهل "طحانوف" يوم الثلاثاء دائماً يصنع جلبته وضوضاءه الخاصة.. إنه يوم السوق حيث يُباع كُل شيء من الطيور ورؤوس الماشية والخُضر للأقمشة ومساحيق الزينة وحتى ألعاب الصِغار المصنوعة من الخشب والمطاط تُباع داخله أيضاً.. وفيما كانت تُشير عقارب الساعة المُعلقة على حائط غرفة المعيشة بمنزل (شاهين الحواتكي) للسادسة صباحاً كانت ترانيم زوجته (كارمن) تنفذ بلطف من جدران الغرفة المُلاصقة لغرفة (مريم) حيث كانت جاثية على ركبتيها مُطأطأة الرأس ضامة كفيها في وضع تبتل وصلاة بِمُقابل صورة مؤطرة على الحائط للمسيح مصلوباً.. اعتادت (كارمن) فِعل ذلك كل صباح ودائماً ما تُرنم في صلاتها الإصحاح السابع من إنجيل (لوقا) فتُغمِضُ عينيها لتقول بصوت خفيض عذب:

– فَلَمَّا اقْتَرَبَ إِلَى بَابِ الْمَدِينَةِ، إِذَا مَيْتٌ مَحْمُولٌ، ابْنٌ وَحِيدٌ لأُمِّهِ، وَهِيَ أَرْمَلَةٌ وَمَعَهَا جَمْعٌ كَثِيرٌ مِنَ الْمَدِينَةِ، فَلَمَّا رَآهَا الرَّبُّ تَحَنَّنَ عَلَيْهَا، وَقَالَ لَهَا: «لاَ تَبْكِي».

ثُمَّ تَقَدَّمَ وَلَمَسَ النَّعْشَ، فَوَقَفَ الْحَامِلُونَ. فَقَالَ: «أَيُّهَا الشَّابُّ، لَكَ أَقُولُ: قُمْ!».

فَجَلَسَ الْمَيْتُ وَابْتَدَأَ يَتَكَلَّمُ، فَدَفَعَهُ إِلَى أُمِّهِ.

فَأَخَذَ الْجَمِيعَ خَوْفٌ، وَمَجَّدُوا اللهَ قَائِلِينَ: «قَدْ قَامَ فِينَا نَبِيٌّ عَظِيمٌ، وَافْتَقَدَ اللهُ شَعْبَهُ».

إنها تعتقد أن هذا النص يجعلها أكثر ثقة بأن الرب معها يُباركُها ويحميها هي ومن تُحب فكما أُقيم الشاب الميت من النعش وعاد لأمه كذلك سيُقيم الرب موات نفسها ليتمجد كما كان دائماً.. فمعجزات الرب تحدث عندما نؤمن أنها بالحقيقة تحدث.. أنهت (كارمن) صلاتها وتوجهت (لمريم)

بغرفتها لتتجهزا للذهاب كما هو مُعتاد لسوق القرية.. أما على الجهة الأخرى في حي الشيخ (علي الزقازيقي) يتجهز (يونس) هو الآخر لمغادرة منزله لنفس السبب فقد اعتاد ممارسة ذلك الطقس في صباح كل يوم ثلاثاء منذ أن كان في السادسة عندما ذهب مع جدته للسوق أول مرة ففي غالب الأحيان لا يذهب لشراء أغراض منزلية تُكلفه بها والدته إنما يذهب لشراء حلوى عصارة قصب السكر والجلوس بجوار بائعها الحاج (رضوان) ليُراقب المارة ويبادل معه أطراف الحديث بينما يصب عصارة قصب السكر ويُحرك المزيج بعصا خشبية في قِدره المرتكزة على شعلة غاز أصابتها الشيخوخة مثله.. يُمكِنُنَا أن نعتبر الحاج (رضوان) أخر ما تبقى (ليونس) من ذِكرى جدته فهو ابن خالتِها ورجل من طراز عتيق تفوح منه روائح الحَكايا والبَخور.. من عاداتهِما أن يطول الحديث بينهُما لساعات أو لحين إغلاق السوق عصراً ولكن هذه المرة اكتفى (يونس) بحديث مُقتضب جداً مع الحاج (رضوان) فبينما هو جالس يتفحص المارة إذ تمُرا أمامه (مريم) وأُمُها.. أعاد النظر مُجدداً فأكد لنفسه بأنه نعم من مرتا الآن (مريم) وأُمُها ولكنهما لم يَكُن مميزتين بشكل كاف فبدينَ مُحكِمتا أغطية رؤوسهنَ ويتحركن بخِفة داخل عباءاتهن السوداء الفضفاضة.. قفز (يونس) من فوق كُرسيه المُبطن بالقش وظل يُراقب تحركاتهُنَ على مدى ساعة أو أكثر بين ممرات السوق الطويلة المستقيمة الكاشفة للبضائع والباعة والمُشترين.. اكتفت (كارمن) بشراء بعض الخُضر وكيلوين من اللحم ثم التفتت خلفها وكأنها تغمغم (لمريم) بحديث ما ثم ما انفكت تحمل أكياس ما تسوقته وأخذت تبتعد عائدة من الطريق الخلفي للسوق نحو مدخل القرية ومنه ستستدير يميناً ثم تمشي قرابة العشر دقائق لتصل إلى الحي الذي تسكن فيه.. أما (مريم) فقد توجهت نحو منضدة ضخمة مُحاطة بما يُشبه خيمة قماشية تُشبه بيوت التخييم في البراري وُضع عليها كُل ما يتوافر داخل سوق القرية من مساحيق التجميل ومستلزمات الأعراس.. يبدو من حركات جسد (مريم) مع البائعة الواقفة خلف المنضدة أنها تربطها بها علاقة

جيدة وبعد حديث طويل لم يُسمع منه شيئاً وكأنهنَ يتكلمن بالهمس أخرجت (مريم) عِشرون جُنيهاً وأعطتها لتلك البائعة وأخذت مُقابلها فيما بدى (ليونس) أنها قارورة كُحل فأبتسم وقال لنفسه:

– فاز الكُحل بمعانقة رمشاكِ ورب الكعبة

وضعت (مريم) القارورة في حقيبتها وأخذت نفس مسلك والدتها فهي ستعود للمنزل عن طريق نفس المخرج الخلفي للسوق.. وهُنا أسرع (يونس) خُطاه ليلحق بها في الشوارع الجانبية ولكنه أخذ يُلملم الحصى الصغير الناعم ويجمعه براحة يده حتى إذا ما اقترب منها أخذ يرمي الحصى على الأرض بجوار قدميها.. فعلها مرة والثانية حتى انتبهت (مريم) فنظرت خلفها لتجده مُشرقاً مُبتسما ووسيماً للحد الذي أعجزها عن نهرهِ أو توبيخه.. فقط تبادلا النظرات بصمت على جانب الطريق الفاصل بين السوق ومدخل القرية.. اقترب منها أكثر غير مُتكلف قائلاً:

– ثلاثة أيام بثلاث ليالِ تركتُ فيهم حلقات المديح مع المتصوفة وأهل الله وجلست تحت نافذتُكِ التي كانت تبدو لي وكأنها مُعلقة في السماء لا جدران محيطة بها ولا تُقابلها نوافذُ أُخرى.. فقط الفراغ والنجوم هذا كُل ما كُنت أرى حولها.. ولو ظلت أشرعة تلك النافذة مُغلقة لثلاثمائة عام أُخرى كُنت سأنتظر تحت ذات الشجرة المُحاذية لها إلى أن تُفتح.. أظن أنني أُحِبُكِ أكثر من مدائح المُنشدين ومن موسيقى الناي..

اتسعت ابتسامته لتُزيده بهاءً وبالمُقابل ظلت (مريم) تحدق به مدهوشة واحمرت وجنتيها خجلاً وكأنهما ثمرتي دراق ناضجتين.. تابع (يونس) كلامه قائلاً:

–سأنتظرُكِ الأحد بعد نهاية القُداس عند الباب الخلفي للكنيسة.. اذهبي الآن هذا كُل ما وددتُ إخبارك به حتى نلتقي

لم تُبدِ (مريم) أي ردة فعل سوى أنها هزت رأسها بإيجاب رشيق خفيف الوزن.. ربما ليس لديها شيء لتقوله.. ربما ثُقِبَ قلبها ومن فرط صدى أصوات المعاول المكتومة بداخلها تركت الأمور تتشكل

بتلك الصورة دون إيقاف أو تحجيم فقط لقد تركت ما هو مُقدر يقع!!.. استدار (يونس) متجها لعربة الحاج (رضوان) لا لشيء سوى أنه يُريد بعضاً من السلام الممتزج برائحة الحلوى وضجيج الباعة مُخيلاً له أنه غُمس لتوه في مغطس مِياهه مُلونة منصوباً بأي جبل يُحيط به عالم باذخ البهجة فربما أراه الله شيئاً من الفردوس أو نُسخ طيراً بحواصل خضراء لا يكف عن الضرب بجناحيه تحت عرش الرب.. إنه مُنتشي كسكير أحتسى خمراً حتى أمتلئ بها جسده فسالت من أذنيه.. أما هي فظلت مُتسمِرة مكانها لثوانٍ تُراقب اختفاءه بين ممرات السوق إلى أن ذاب فيها تماماً..

- ٦ -

لفح هواء المساء البارد جسد (رشاد الفخراني) فارتعش ونفخ في كفيه ليستحضر بعض الدفيء.. ورغم عِلمهُ بأن يوم الثلاثاء لا تُباع فيه بضاعته لكن كعادته أصر على الوقوف عند مواقف السيارات بمدخل القرية.. الهواء يزداد برودة وأحس فعلاً أنه يحتاج للتدفئة بطريقة ما فدفع عربته حتى وصل للمقهى المجاور لحانوت (مسعود) القصاب ذاك الرجل الضخم الأربعيني عريض الكتفين ذو البطن العظيمة البارزة ووجه لامع بحمرة يفور فيه الدم بصحة مكتملة إنه لا يَمل الوقوف على خشبة تقطيع اللحم وبيده ساطور يهوي به على صدر نعجة أو فخذ ثور.. اقترب (رشاد) من الحائط المشترك بين حانوت القصاب والمقهى فسحب كُرسياً وجلس ناظراً (لمسعود) المنهمك في تقطيع تيس ذبحه قبل ساعتين ليُجهزه للعرض صباحاً على زبائنه.. أخرج (رشاد) من جيب جلبابه زجاجة خمر رخيصة مصنوعة محلياً حجمها يُقارب كف يده وأدار غطائها ثم رفعها لفمه ليرتشف منها ما يُدفئ به جسده.. كان يشرب ويغمغم ورواد المقهى ينظرون نحوه ويبتسمون ثم يكملون لَعب الورق فيما بينهم.. انتهى (مسعود) من تقطيع النصف الأول من التيس وانتبه لجلوس (رشاد) يحتسي الخمر بجوار حانوته فأغتاظ ومشىَ نحوه مُعاتباً:

– لا يجوز ما تفعله قُرب حانوتي يا عم (رشاد) هذا مكان للاسترزاق ليس للسُكرِ

فأدار العجوز جذعه باتجاه صوت (مسعود) ثم تنحم وقال:

– هل كتبت الشارع باسمك يا قصاب السوء.. كف عن تعكير مِزاجي الآن وإلا ركلتك في بطنك العظيمة تلك التي تبدو لي وكأنها جوال قمح.

تمتم (مسعود) وكتم غيظه ثم أعاد مطالبة العجوز بالتوقف عن احتساء الخمر أمام حانوته أو أن يذهب ليشرب في أي مكان أخر ولكن بالمقابل كان يُجيبه (رشاد) بسخرية لاذعة حِريفة فبدا الوضع وكأنه مُقدمات عِراك بين الرجلين إلى أن قال (مسعود):

-لا تستثر غضبي أكثر أيها العجوز الفاسق.. تشرب الخمر علناً وتأتي الكبائر علناً مُعانداً لله ولا أحد يعترضك مُراعاة لشيبتُكَ ولكن يبدو أنك سِكير عربيد لا وقار لك لذا أسحب عربتك الآن وأذهب.

اجتمع بعض رواد المقهى حول الرجلين في محاولة لفض النزاع بينهما.. نهض (رشاد) من فوق كرسيه ومسح فمه بكُمِ جلبابه ثم صاح مُستنكراً:

- أقطع ذراعي يا ابن (جليلة) إن كُنت تعرف كيفية الاغتسال من الجنابة.. أنا أفعل ما يحلو لي في الوقت الذي يحلو لي فلا أنت ولا شيخ الأزهر نفسه يمنعني عن شيء أُريده.. عمك (رشاد) يا بغل ليس مُنافقاً مثلكم يتظاهر بالورع والتقوى نهاراً ويتمرغ في أحضان العاهرات ليلاً في السر كرجال هذا الحي الملعون ولا يبيع لحم الأحصنة على أنها لحوم ثيران يا ابن (جليلة) بائعة البصل.

انخرط الرجال المجتمعين حول الحانوت في نوبة ضحك طويلة فالكل كان يدرك أن لسان هذا العجوز سوط منقوع في زيت.. أعاد (رشاد) زجاجة الخمر لجيب جلبابه ثم ألتقم مقبضا عربته ودفعها للأمام شاقاً صفوف الرجال المتحلقين حول المكان وهتف بصوتِ عالٍ: - اللوز.. حَب العزيز يا لوز.. سُكر يا لوز.

- ٧ -

العالم مبني على شيء واحد.. " الشر ".. الإنسان مجبول على فعل الخطايا.. لو لم يُخلق الإنسان لما خلق الرب الشيطان فيبدو وكأنما خُلق للشر شراً أخر يوازيه.. لا يُمكن تفسير أي شيء في هذا الكون على أنه جيد.. كل الأفعال والأقوال والنوايا سوداء تُشبه أرض محروقة فحتى الخير نفسه هو شر بشكل آخر فبما أن العالم يخلو من الطهارة المُطلقة فلا يوجد إحسان فلا خير يُبذل بلا إحسان ولا إحسان بدون طهارة.. إن نقاء النفس تماماً من أي أغراض أو مُشتهيات أو إرادة حتى تلك هي الاستنارة وهي أول درجة في سُلم الصعود للطهارة.. فمن يبذل الخير ولا ينتظر من الناس جزاءً ولا شكورا بل يفعل ذلك ليُرضي نفسه وليُميت شيطانه الداخلي ليصل لمراتب الصلاح العُليا هو في الواقع شرير وإن كان ولياً مؤيداً من السماء يمشي على الجمر فلا تحترق قدماه ويمشي على الماء فلا يغرق.. لأنه فعل ما فعل لا من أجل الخير ذاته ولكن ليستعين بذلك على إماتة الشر بداخله فهذا بحد ذاته غرض والأغراض هي أصل كُل شر فحينما يُبذل الخير من أجل الخير حينها فقط تحل الطهارة على العالم.. تلك هي الأفكار التي كانت تُظلل عقل (يونس) كغمامة توشك على إفراغ ما بجوفها من ماء بينما كان يقف خلف زجاج نافذة غرفته يعُضُ شفتيه ويتأمل حمامة جاءت لتقف على حافة النافذة وكأنها تبادله التحية الصباحية من خلف الزجاج ولكن سرعان ما ضربت بجناحيها الهواء وطارت عندما صدح صوت رخيم فجأة من تلك المُكبرات المُعلقة على منارة الكنيسة.. إنها الساعة السابعة والنصف صباحاً ليوم الأحد الرابع والعشرين من نيسان إنه ذاك الصباح الذي اقتطع من (مريم) وعداً بمقابلتها فيه.. قلبه سعيد كجنين يسمع صوت أمه فيُعبر عن انتشاءه بالركل داخل الرحم ولكن عقله مازال مُحتجزاً في رُكن ما بعيد جداً عن أقرب طريق مُعبد مُتصل بالقرية.. يقف القِس

(إسطفانوس يعقوب) أمام المِصْدَح المُثبت على دُعامة بجوار المذبح وسط الكنيسة ليتحرر صوته بلطف عبر مُكبرات المنارة قائلاً:

– رجاءً يا إخوتي سامحوني من أجل (المسيح)

فترد عليه جوقة الشمامسة خلفه بمقطوعة إنجيلية يُرنمونها بالقبطية وهي المرحلة الأخيرة من مراحل تطور اللغة الهيروغليفية التي تكلم بها وكتبها قدماء المصريين منذ أكثر من سبعة آلاف عام وهي اللغة التي كُتبت بها الأناجيل الأولى منذ أن وصل (مرقس) الرسول ليكرز ويبشر برسالة المسيح في مصر حوالي العام خمسة وخمسين للميلاد أي بعد انقضاء أيام (المسيح) على الأرض بعشرين عاماً فقط..

القس يفتتح القُداس مُرتلاً:

– سلامُ لجميعكم..

فترد الجوقة:

– ولروحك أيضاً

فيُردف:

– يا الله العظيم الأبدي الذي جبل الإنسان على غير فساد.. والموت الذي دخل إلى العالم بحسد إبليس.. هدمتهُ وملأت الأرض من السلام الذي من السموات هذا الذي أجناد الملائكة يمجدونك به قائلين: المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وفي الناس المسرة

يستمر القِس المُرنم في تلاوة القُداس بينما يُخيم صمت سماوي جميل على صحن الكنيسة خُيل إليك أن أجساد الملائكة والقديسين المرسومة على الحوائط والأسقف تسري بها ارتعاشة خفيفة وكأنهم أيضاً يستمعون.. وفي هذه الأثناء يصعد القِس الكاهن إلى الهيكل ويمتحن نفسه روحياً ليكون نقياً

داخلاً وخارجاً ويكون نظيف الجسم والملابس صائماً لم يذق طعاماً على الأقل تسع ساعات ثم يلبس الملابس الكهنوتية وهو يقول:

– أعظمك يا رب

ثم يصافح إخوته الكهنة ويسألهم الصلاة من أجله ثم يقبل المذبح ويحل الآنية من رباطها ويبدأ في فرش المذبح وهو يقول صلاة الاستعداد بينما الشعب مازال يرتل لحن البركة ثم يسجد الكاهن أمام الهيكل ويقف على يمين بابه ويبتدئ بتوزيع صلاة المزامير ثم يغسل يده ويحمل القربان قائلاً:

– أغسل يدي بالنقاوة وأطوف حول مذبحك يا رب كي تسمع صوت تسبيحي

وعندها يردد شعب الكنيسة:

– هلليلويا.. هذا هو اليوم الذي صنعه الرب فنفرح ونبتهج فيه يا رب خلصنا يا رب سهل سبلنا مبارك الآتي باسم الرب.. هلليلويا

يتحرك الآن القِس (إسطفانوس) ليقف أمام المذبح تماماً ليرنم:

–أيها السيد الرب الإله ضابط الكل.. ربنا وإلهنا ومخلصنا.. نشكرك على كل حال ومن أجل كل حال لأنك سترتنا وأعنتنا وحفظتنا وقبلتنا إليك.. أشفقت علينا وعضدتنا وأتيت بنا إلى هذه الساعة،

لترد عليه جوقة الشمامسة:

– اطلبوا لكي يرحمنا الله ويتراءف علينا ويسمعنا ويعيننا ويقبل سؤالات وطلبات قديسيه في كل حين ويغفر لنا خطايانا.. آمين

فيستدرك الكاهن:

– مستحق وعادل لأنه حقاً بالحقيقة مستحق وعادل أيها السيد الرب إله الحق الكائن قبل الدهور والمالك إلى الأبد الساكن في العالي والناظر إلى عبادك المتواضعين.. خالق كل شيء ما يرى وما لا يرى الجالس على كرسي مجده المسجود له من جميع القوات المقدسة.

يستمر القِس في الترتيل وتسري في صحن الكنيسة تيارات هواء باردة حاملة معها سكينة وعزاءً للمرضى والمُعذبين.. إن الطقوس الدينية الجارية في هذه اللحظات أكثر ثراءً بالرمزية من أي طقوس دينية أخرى قد تُمارس في أي مكان أخر على هذه الأرض.. لأنه وبطريقة ما يمتاز أهل هذه القرية بنسق تواصل خاص فالأحاديث والترانيم والمشاعر والتلاوات المقدسة تُنقل بينهم ليس فقط من خلال الكلام ولكن أيضاً من خلال الإيماءات وبأشكال أخرى بديعة يُعبر من خلالها كل شخص فيهم عن نفسه.. إنهم لاهوتيين وشعراء ورسامين وفلاسفة وفقهاء ودراويش.. كل هذه الصفات يولدون بها.. فقد تجد عجوز أمية لكنها تتحدث كقديسة أو كبطريرك.. إن حياة هؤلاء البشر مختلفة في كل شيء إنها حياة درامية مليئة بالرموز فالشوارع الضيقة رمز.. الكاهن وهو يرفع خبز (المسيح) يوم الأحد في باحة الكنيسة القديمة أمام رهط من المؤمنات العجائز رمز.. المآذن البيضاء والخضراء التي أصبحت حوافها مستقراً للحمام رمز.. روائح المباخر المُنبعثة من نوافذ المساجد في صباحات الجُمع رمز.. حتى أكواب الشاي الفارغة بجوار جذوع أشجار البرتقال رمز.. كلها دلائل لا يراها إلا متبصر.. لكن بالعودة للمراسم الكنسية فإن دققنا النظر فيمن حضر مُبكراً ليلحق بالشعائر منذ بدايتها سنجد أن (كارمن) وابنتها يجلسنَ متجاورات في مقاعد النساء على يسار باحة الكنيسة.. تضع (كارمن) رأسها على يديها المضمومتين مرتكزة بمرفقيها على سطح المِقعد الخشبي الذي يُشبه مقاعد قاعات المحاضرات في الجامعات والمعاهد العُليا.. أما (مريم) فهي تنظر تارة لحركات شفاه الشمامسة أثناء ترديدهم نصوص القُداس خلف القِس وتارة أخرى تنظر نحو تلك الصورة الضخمة المرسومة على زجاج أزرق للعذراء وهي تحمل طفلها وتحت قدميها ينام حَمل كناية عن السكينة التامة والأمان الإلهي الكامل.. تتواصل التراتيل متصاعدة عبر مسام السقوف للأعالي وتُقرع أجراس الأحد ببهاء عظيم إلى أن ينتهي القُداس ثم تليه خُطبة الوعظ الأسبوعية التي يُلقيها أكبر أباء الكنيسة سناً أو أحد

نوابه من الكهنة والتي سيتولى أمرها هذا الأحد القِس (إسطفانوس) أيضاً فعاد ليقف أمام المِصدح المجاور للمذبح بعد نهاية القُداس وأفتتح عظته قائلاً:

– قد تسأل أخي المتألم لماذا سمح الرب لي بهذه البلوى المحرقة والتجربة الصعبة؟.. أتريد أن تعرف الإجابة؟ إنها متضمنة في هذه الكلمة الصغيرة في حروفها والعظيمة في محتواها "مجدوني".. لقد بلغني أن أحدهم دخل المشفى بعد إصابته إصابة بالغة في حادث أليم وكان هناك يعاني من آلامه الشديدة لكن لأنه كان مسيحياً حقيقياً فقد ألقى أعظم عظة من فوق فراشه سمعها الأطباء وهيئة التمريض في كل حياتهم.. حيث قال:

– فليتمجد الرب مانح السلام والعطايا.. السابغ علينا نعمة الوجه المبتسم واللسان الشاكر دائماً نعم أخي.. لا توجد عظة أقوى وأفعل من كلمات الشكر الصادرة من شخص مريض يُنازع.. قد تكون مجتازاً في ضيق لم تختبره من قبل وقد يكون الضيق الذي أنت فيه بحسب رأيك لم يختبره الكثيرون من المؤمنين لكن يمكن للمؤمن المجرب أن يقول:

– إن صلاح الله هو الذي أتى بي إلى هذا الظرف هكذا صارت المشيئة وفي إرادته ومسرته يمكنني أن أستريح، ثم لا تنسى أن إلهك كلي الحكمة.. وبحكمته سيخرج من الآكل أكلاً ومن الحامض حلاوة وسيُنجيك من تجربة تلك الكأس المُذلة..

فقط قل:

– أنا هنا بحسب خطة الله الصالحة وفي رعاية محبته وتحت تدريبات حكمته حتى آخر الأيام

توقف القِس عن الحديث للحظات ليُمسك بكوب الماء الموضوع أمامه ليرتشف منه القليل مُبللاً جدار حنجرته الجاف إثر إطالة الصلاة والوعظ ثم تابع قائلاً:

– كثيرة هي الموازين التي يستخدمها البشر لوزن الأمور وتقييم الأوضاع وهي مقاييس قابلة للتغيير من وقت إلى آخر ومن حالة إلى أخرى ومن شخص لشخص فمن يصفهم البعض بالصلاح والكمال

يصفهم آخرون بعكس ذلك بل أن أولئك أنفسهم قد يغيّرون رأيهم في لحظة ويبدلون نظرتهم للأمور مع تبدّل الظروف فتتبدل القيم وتتغيّر الأحكام لكن الله ليس كالبشر.. أفكاره ليست كأفكارنا وطرقه ليست كطرقنا هو وحده الكامل في كل شيء.. كامل في عدله ثابت في قضائه ليس عنده تغيير ولا يُحابي بالوجوه ولا يعوّج قضائه فموازينه ثابتة يزن بها كل إنسان وبحسب ناموسه الكامل يحاسب كل البشر.. قد يزننا الناس بموازينهم المغشوشة فيمدحوا كمالنا وذواتنا وقد نزن نحن أنفسنا بموازيننا الخاصة فنقول عن أنفسنا أننا لسنا مثل باقي الناس ولكن ماذا عن موازين الله؟.. وماذا لو وزنا أنفسنا بحسب وصاياه التي وضعها بين أيدينا هل يثبت كمالنا وافتخارنا؟

يستخدم البشر كل أنواع الموازين التي يظنون أنها تناسبهم، لكنهم سوف يتبينون يوماً ما أنها باطلة! فمن يعتقد أنه شخص بار بحسب ميزانه سيكتشف يوماً بأن بره لا يمكن أن يخلصه من ذنوبه بحسب وصايا الله التي تخبرنا: " إن لم تتوبوا فجميعكم كذلك تهلكون " ولذلك فمقاييس الله تؤكد لكل إنسان بأن الرجاء الوحيد لخلاصه هو في الإيمان الصادق وبدون ذلك لن يكون له نصيباً في الحياة الأبدية وفي اليوم الأخير حين يقف أمام عرش الله سوف يُوجد ناقصاً مذنباً يجر خطاياه كسلاسل حديدية بكرات ضخمة من الصخر إنه لأمر لا يتصوره العقل أن نُدعى يوماً للوقوف أمام الله للدينونة دون أن يكون لنا رجاء فيه لأنك لن تستطيع أن تدخل ملكوت الله إلا بالطريقة التي رسمها الله نفسه فهل أنت مستعد للوقوف في ميزان الله؟

قاربت الساعة على تمام العاشرة ونفذت حرارة الشمس بما يكفي عبر زجاج الكنيسة الملون ليشعر بها المُصلون وهذا في الغالب يكون وقت نهاية العظة فيُسمح لهم بالمُغادرة.. الرجال من الباب الأمامي للكنيسة والنساء والأطفال من الباب الخلفي الذي يقف (يونس) الآن مُقابلاً له منزوياً بعض الشيء حتى لا يُلاحظ.. يقف مستنداً على حائط منزل الشيخ (رجب الملواني) كما هي عادته كل أحد.. وبينما كان هو يَمُد رقبته مستطلعاً من غادر ومن مازال داخل صحن الكنيسة.. في تلك اللحظة خرجت

(مريم) عابرة البوابة الخلفية متلفتة مستبقة أُمِها نحو الشارع وما إن ابتعدت أمتار قليلة عن رصيف الكنيسة وقبل أن تلحق بها والدتها أسرع (يونس) خُطاه وكأنه ينطح الريح ليلحق بها.. وعندما اقترب منها لمسافة كافية أحست به فمال برأسه نحوها وهمس:

– أراكِ اليوم عصراً في الشطر الشرقي من الساحة الخضراء عند ضريح " أبويا الحاج (أحمد)".. ثم تابع..

– بالمناسبة الكحل يَليقُ بكِ

نظرت إليه وكأن عينيها تبتسمان قبل أن ينعطف راجعاً حيث كان .. هي لا تعرف لماذا تُجاريه وهو لا يعرف لماذا ينخلع قلبه وَلْهاً إن رآها في حُلمٍ أو يقظة.. كلاهما لا يملكان أي إجابات وذلك في حد ذاته إجابة من نوع ما..

- ٨ -

يرتفع أذان الظهر شاقاً سماء القرية.. الشيوخ يهرعون للصلاة والرجال الأصغر سِناً إما يُصلون جماعات داخل حقولهم أو يؤجلها بعضهم لوقت آخر غير معلوم ربما.. فليس كل بني آدم صِحاح الإيمان وليس كُل مُفارقِ للجماعة شرير فكفى بالمرء كذباً أن يُفسِقُ غيره.. البيوت في الظهيرة يُخيم عليها سكون مَهيب لا أحد يتكلم فيها.. لا أحد يكسر أواني أو يُصلح أنابيب صرف مكسورة لأحواض المطابخ.. لا قدر لحم يغلي ينتظر رفعه من فوق النار ولا أطفال يسحبون خيوط طائراتهم الورقية عبر الأزقة.. حتى الذباب يلتصق بسقوف المنازل ويتوقف عن الطنين.. لا شيء يوقف الصمت سوى الصمت نفسه.. تلك الساعة ما بين رفع الأذان إلى ختم الصلاة لم يولد بعد من يشهد على تبديد الصمت المُلازم لها فلقد أصبح ذلك بالتبعية عُرفاً للقرى.. لا حركة في الظهيرة.. لا صوت ولا صدى ولا أنفاس حارة.. كُل هذا وأكثر كان مُجتمعاً في مدخل منزل (فرحانة عبد العليم) تلك العجوز الضريرة الملتحفة بالسواد من غطاء الرأس حتى أخمص القدمين الملاصق منزلها لمنزل (رشاد الفخراني) الذي تربطها به صلة قرابة قوية فهي أيضاً من عائلة (الفخرانية) وهي عائلة اكتسبت لقبها من عملها.. حيث أنهم الوحيدون في القرية الذين يحتكرون صناعة الفخار وتجارته بالإضافة لما كانوا عليه قديماً من سطوة ونفوذ ولكن لا شيء يبقى على حاله.. يتحرك وزغ بخطوات تلصصيه نحو الركن الغربي للسقف فوق رأس (فرحانة) ليُطلق لسانه باتجاه عنكبوت ليلتهمه بسرعة خاطفة بينما تُمسك هي بعصاها لتعس بها أرضية مدخل المنزل الترابية آملةً أن يكون مفتاح الباب قد سَقَطَ من جيب جلباب أحد حفيديها قبل ذهابهما صباحاً للعمل.. فمما اعتادا عليه أن يُغلِقا باب المنزل خلفهما خوفاً من خروج جدتهما وصعوبة إعادتها مرة أخرى خاصة أنها فعلت ذلك كثيراً من قبل.. إنها عجوز لا تؤمن بأن قدر الله وقع بفقدانها بصرها حتى أنه ذات يوم ضربت القرية ريح قوية قادمة من

بطن الجبل المُقابل فقُطِعت إحدى جذوع النخل لتسقط على أحد أعمدة خطوط الكهرباء فخرج الناس في الشوارع بالشموع وبمصابيح الزيت ريثما يُعيد عُمال البلدية تركيب خطوط الكهرباء مُجدداً فما كان منها إلا أنها خرجت ليلاً دون خوف أو ترقب بل إنها كانت تمشي في الشوارع دون عصا ودون أن تتحسس الحوائط لتُثبت لهم أنها مازالت ترى!! كيف ذلك؟ لا يُهم لكن الملفت حقاً أنها كانت تفعل ذلك بيقين..

)لفرحانة) حفيدين هما (علي) و(مُحمد) وكلاهُما أُميين لم يذهبا لمدرسة قط ولا يحفظان شيئاً من القرآن.. (علي) هو الأكبر والأكثر فتوة أما (مُحمد) فهو نحيل الجسد بعينين بارزتين قليلاً بطيء الفهم وينطق الكاف قافاً فتبدو طريقة حديثه طريفة لم يستمع له.. توفى والديهما إثر سقوط الحافلة التي كانت تُقلهما نحو المدينة في قناة مائية على أطراف القرية بعد انحراف الإطارات بشكل مفاجئ ولم يكن لهما أحد بعد هذا الحادث سوى جدتهما لأمهما فتكفلت بهما أطفالاً صِغاراً وهما الآن يتكفلان بها وبأدويتها خاصة تلك الحبوب مرتفعة الكُلفة التي يشترونها شهرياً لمعالجة خرف جدتهما ففي أغلب المساءات تصحو من نومها قُرب الساعة الحادية عشر وبينما الظلام يبدو وكأنه جاثوم مُطبق على صدر البيوت تتحسس هي جدران ممرات المنزل حتى تقترب من عتبة الباب فتجلس أرضاً وتبدأ في الكلام مع الأموات بل وتُنادي عليهم بصوت عالٍ وهذا ما يعتبره الجيران فأل شؤم وكم يتمنون لو أن ملك الموت يزورها قريباً فيُريحها من عذابات الوهم ويُريحهم من سماع النواح ليلاً.. ولهذا السبب أيضاً ما زال حفيديها أعزبين فلا تريد أي عائلة مهما كانت متواضعة الحال والمعيشة أن تتشارك بناتُها نفس المنزل مع عجوز بتلك الصِفات.. ولكن على ما يبدو أن وفاء الشابين لجدتهما أكبر من رغبتهما في الزواج أو إدخال روح جديدة للمنزل فهما لا يعرفان لا أباً ولا أُماً سواها.. هذا وما تزال عصا (فرحانة) تعس الأرضية بحثاً عن مفتاح ساقط إلى أن تسمع صوت قفل الباب يُشد للخارج ثم يُفتح ليدخل حفيديها في تمام الواحدة ظهراً كُل يوم ليُحضرا طعام الغداء لهما ولجدتهما الضريرة أيضاً ثم

يعودان للعمل في (الفاخورة) وهي منطقة أشبه بمصنع صغير بوسط القرية تحتوى على تلالاً من التُراب الذي يُعجن بالماء ثم يُشكل على عجلات الفخار ليوضع أخيراً بأفران خاصة ثم يُجمع في نهاية اليوم كُل ما تم إنتاجه من الفخار لتوريده صباح الغد الموالي لسوق القرية ولأسواق القرى المجاورة أيضاً.. وعمل كُلا من (علي) و(مُحمد) يقتصر على عجن التراب بقدميهما طيلة اليوم

إنها حياة قد تبدو لك تجسيداً حقيقياً للتعاسة ولكن من وجهة نظر الأخوين هما أفضل حالاً على الأقل من (رشاد الفخراني) فهما لا يشربان الخمر ويكتسبان مالاً أكثر ويُصليان الجُمعة بينما (رشاد) لا يفعل.. تلك هي أحوال أهل القُرى فهم بخير دائماً طالما أنهم أفضل من جيرانهم حسب ظنهم على الأقل ورغم أن كُل شيء فيهم قديم ومُتعب إلا أن ذاكرة الأرض والبشر الذين تحملهم ممتلئة متوجعة وكأن الأيام تمشي على قلوبهم .. خطوة تغرز وخطوة ترتفع تليها لحظات تزاحم وفراغ.. لتلك الأرواح السلام.. فهي تستغيث بمن ينتشلها من سقوط واجب بعد كل تلك الألآم داخل أروقة هذا العالم.. ومع أنه يُمكن أن يتغير كُل شيء في الأرجاء حول قُراهم لكن يظل هؤلاء ينتظرون أن يعدو الربيع بعد الربيع ليكبُر البنفسج ولترتكز نفوسهم فوق أسطح منازلهم على مقربة من أبراج الحمام كبيارق لها هوية عفوية وعلو.

- ٩ -

يرفع (يونس) طرف جلبابه عن الأرض ممسكاً به حتى لا يعفره التراب الناعم للساحة الخضراء.. ها قد وصل في موعده مترقباً ظهور (مريم) حيث وقف سانداً بيد واحدة على سور الساحة متأملاً شكل القباب وزخارف البوابة حيث يُقال أن الأولياء المدفونين داخل تلك الأضرحة أجرى الله على أيديهم آيات وأعاجيب ليتمجد الله في أعمالهم فمنهم من كان يملأ جرار البيوت ماءً عذباً وهو يحمل قربة فارغة يميل بها فوق الجرة فيُصب الماء وحين يرفعها تعود فارغة.. ومنهم من كان يمشي فتتبعه العقارب والحيات وبنات آوى حتى باحة صومعته وعندما يشرع في الصلاة يصطفون خلفه وكأنهم ارتضوه إماماً لهم.. تلك الساحة تكتظ بالمُريدين أيام الجُمع وصباحات الأعياد.. يأتي الناس هُنا لطلب البركة والمدد والشفاعة حتى الساقطات يأتين طمعاً في المغفرة وبما أن الناس خُلِقوا عجولين فهم لا يمكثون داخل أروقة الساحة أكثر من ساعة ثم يرحلون كُلٌ في طريقه ولا يتبقى سوى سرب من الكِروان يقفون على نوافذ الأضرحة يرتلون بأصواتهم العذبة صلوات خاصة لا يفهمها إلا هم وصاحب الضريح.. حتى العجوز البدينة حارسة الساحة تُغلق البوابة وتعود لمنزلها قبل أذان العصر ولكن لحسن الحظ فهي تدع أريكة خشبية واحدة مجاورة لباب الساحة من الخارج ليستريح عليها مُريد مُتعب أو درويش تسول طعامه ولا يجد ما يُسنِد ظهره عليه لينام.. وعلى نفس تلك الأريكة سيجلس هو و(مريم) فهما مُريدان أيضاً ويطمعان أن يذكُرهما أصحاب تلك القِباب أمام عرش الرب..

ما زال (يونس) مستنداً بباطن كفه على سور الساحة مترقباً وصول تلك الروح التي لا يعرف كيف سقط في بئر السلام خاصتها فتعمد ألف مرة فيه حتى أصبح قلبه مُزخرفاً ورودياً ينضح بدماء تُشبه مرايا طقوس الأنبياء عندما يقفون أمامها ويصلون فتعكس كل حق وكل نور وتطرح آثام الشرير

أرضاً.. ولم تمر نصف ساعة حتى كانت (مريم) أتيه تتهادى على غيم تتبعها أفياء حرة كاليعاسيب بلا ضجيج.. ترتدي غطاء رأسها الأبيض وثوبها الفضفاض الأزرق المشوب بخُضرة مارة بجوار الكرمة الموازية لسور الساحة وكأنها المجدلية عندما أشرقت قسمات وجهِها برؤية المسيح قبل أن يرتفع للسماوات.. ظهر لها على البعيد ذلك الشاب المبتسم دائماً الذي يزداد وسامة كلما انبسط وجهه فرحاً.. ظهر لها مستنداً على حائط السور فلما اقتربت منه أشار لها أن تأتيه ها هُنا على الأريكة الشاهدة على أرواح العابرين.. لم يشأ أن يركض نحوها كما يفعل العشاق في أول لقاء بل احتشم أكثر مما هو واجب عليه أن يفعل فهما في حضرة الأولياء وهذا يتطلب الاحتشام في كل شيء حتى في خفقان القلوب.. اقتربت منه فلم يأخذ بيدها مُتعففاً وهي لم تكن لتفعل.. مشى بجوارها أول الخطوات التي بدت له وكأنها دروب طويلة جداً من الأهازيج وكان حينها قد يمم روحه شطر كعبتها فهو لا يُمانع أن يُراق عمره مجاوراً لها بهذه الصورة الهادئة مفرطة الطهارة طالما أن السماء مفتوحة ترى وتسمع والأولياء يشهدون على بتوليه قلبيهما.. لحظات من الصمت مرت دون أن يُحرك أي منهما شفتيه للتحية بل جلسا متقابلين على تلك الأريكة بخجل وألق لتبادر (مريم) قائلة:

– من أنت؟

فيُطأطِئ رأسه ناظراً لقدمية ويقول:

– أنا الذي أنت فيه وهو فيكِ

فتُرِدف:

– ولكني لم أشعر بك قبل أن أراك تحت الشجرة فكيف لما هو فيّ وأنا فيه أن يمسح على قلبي فجأة دون أي نبوءات؟

تنهد (يونس) وخرج من فتحتي أنفه زفيراً دافئاً ليسترسل الحديث بينهما حيث رفع رأسه نحوها وتكلم باسطاً لها قلبه:

– عندما خلق الله العالم لم يشأ أن يخلق ابن الإنسان وحيداً بل خلق له من ضلعه امرأة لتكون له سكناً وملاذاً.. وهكذا سرت مشيئة الرب في كامل خلقه فالوحدة تعاسة والتعاسة دينونة وعذاب والرب لم يخلِقنا لنُدان.. بل خُلق كُل واحد منا وبداخله ضلعه الذي سيخرج منه شريكه فحين يُزهر ذاك الضلع يظهر المُكمِل والمُعزي وأظن أن ضلعي أزهر فأنارت قسمات وجهكِ ظلام سمائي المحبوسة خلف عِظام صدري

– تتكلم كما يتكلم الآباء في الكنيسة!

– بل أتكلم بما يُنطِقُني به الله

– أنا لا أعرف لماذا أنا هُنا ولماذا أجلس معكَ على أريكة مختبئة خلف سور ولا أعرف لماذا لا يرفضكَ قلبي.. أنا فقط أتيت لأنني أحببت أن آتِ

– هُناك تفاسير كثيرة لسؤال مِثل " لماذا نحن هُنا؟ ".. أنا لا أعرف يا (مريم) ولا أنت تعرفين.. لكن ما أؤمن به حقاً أنني أُحِبُكِ.. كيف ولماذا وأين وما هو المصير المُقدر؟ كُل تلك الأسئلة لا أمتلك لها أي إجابات.. فقط أنا لا تدفعني غريزتي لتتبع شيء أكثر من أن أتبَعُكِ كراهب يتتبع المسالك الوَعِرة نحو صومعته.. أنتِ النور المُرسل لي وحدي دون هذا العالم.. هكذا الرب القدوس شاء وها أنا أتضرع له الآن قائلاً: لتكن مشيئتُكَ!

– غريب أن تقول لي ذلك كُله والأكثر غرابة أنني مِثلُكَ تماماً لا أعرف أي شيء ولا يُمكِنُني اعتماد أي تفسير.. لكن كُل ما أرغب به أن تكون معي حقاً على أي صورة كُنت وتحت أي سماء تمدد جسدكَ.

ابتسم (يونس) ولمعت عيناه وتورد ما تحت جفنيه وخفت صوت خفقان قلبه الذي كان يضرب كالطبل داخل أذنيه كلما همت (مريم) بالكلام أو حتى بالسكوت.. فكل ما فيها يدفعه دفعاً نحو هوة سحيقة لا يُعرف لها مسار أو نهاية لكنه يُحب أن يقع بها في كل مرة تُحدثه.. أعاد اعتدال جلسته وحرك أصابعه على نتوءات خشب الأريكة ثم قال:

– ألديكِ حلم يا (مريم)؟، أجابت:

– لا أملك من متاع الدنيا سوى حلم يتيم

ضم ذراعيه وأمال رأسه ليضع خده على باطن كفه الأيمن وتنفس ببطيء ثم واصل ليُكملا حديثهما:

– لكن الأحلام اليتيمة مُعمرة وباقية أكثر من غيرها

– لا أدري إن كان وجع أم حلم أم شيئاً أخر بين بين!

– لا عليكِ.. هيا تأبطيني ولنمتطي تلك الغيمة واخلعي عنكِ خوفكِ ليخضر قلبكِ فلا ألم ولا حزن يشوبه.. امسكي بطرف جلبابي لنركض ولا تخشي شيئاً.. والآن..

ما هو حُلمِكِ يا ذات القلب الزجاجي كثيرة المخاوف والأسئلة؟

دارت حدقتي (مريم) في محجريها غِبطة ثم نظرت إليه وبادلته الابتسام قائلة:

– أريد أن أرى البحر.. حكت لي أمي عنه عندما ذهبت في صِغرها للإسكندرية ورأته.. تقول لي أنه أزرق وحنون مع الغرباء.. أحلم بأن أطأ شواطئه حافية القدمين لأقف أمامه فاتحة له ذراعي لأضمه ولألوح له بوشاحي لعله يحبني كما أحبه.. أحلم بأن تُلفت يدي وشاحاً لوحت له به ليحمله هواءه إلى الجانب الأخر من العالم ليكون لي أثراً في مكان أخر لا أعلمه وتلك في حد ذاتها سعادة.

– يخصني هذا الحلم الذي أنتِ فيه.. الذي أنتِ كُلهُ.. الذي أنتِ أوله وأخره.. لكن الحياة لا تعطي من ينتظر شيئاً يا (مريم) لابد أن تغرسي كفيكِ فيها وتأخذين منها ما شئتِ.. لكني أعدك أن يحمل هواء البحر وشاحكِ للجهة الأخرى من العالم وربما يحملنا معه أيضاً.. أعدك

– لا تعد بشيء.. كل ما هو خالٍ من الوعود آمن.

– بل أعدكِ أن أُبقيكِ بداخلي لتحيين مرتين بذمة الله ثم بذمتي.. أعدكِ ألا أغتسل منكِ أبداً.. إنني يا (مريم) أُحِبُكِ حتى ترضين.

اقتربت الشمس من السقوط في جبها وأخذت مسحة الحزن المرافقة لأوقات المغارب تفترش السماء فانقطعا عن مواصلة الحديث وأنتبها لتأخر الوقت أو بالأحرى سرقته لهم فقاما يمشيان متجاورين وكُل مِنهما سيسلك طريق عودته الخاص على أمل اللقاء غداً.. هذا الغد الذي يمر على العشاق بطيئاً ثقيلاً ولكن لا شيء يمكن فعله سوى الانتظار.. تواعدا على ناصية الطريق باللقاء عصر اليوم الموالي في نفس المكان خلف نفس السور وعلى نفس الأريكة.. لم يتوادعا بل اكتفيا بالنظر لبعضيهما دون النبس بكلمة فالوداع يمارسه كل من لا يثق أن شمسه قد لا تشرق مجدداً ولكنهما كانا واثقين بأن الغد آتٍ وأن الشمس مشرقة لا ريب.. استدار كل منهما نحو طريق عودته تاركاً قلبه مع الآخر.. رمق (يونس) بعينيه كل الأمكنة المحيطة به وكأنه يوصيها بالشهادة على حُبِه لها متى ما تطلب الأمر أن تفعل.. وبينما هو سائر نحو منزله أخذ يسأل نفسه:

- بأي مِداد ستكتب قصة حبك لها يا تعيس؟

ظل يردد ذلك السؤال حتى دخل غرفته وتمدد على سريره.. إن الحب هو أرض الغواية المرصوفة بقوالب من السُكر وكل من يطأ طُرقه يُدمن السير فيها حتى يناله تعب أو موت فإن سقط أثناء مسيره فسيذوب كمكعب سُكر جديد ويلتحم بقوالب الرصف تلك أو أنه سيلعقها ثم يعاود نهوضه ليكمل ما بدأه.. ويبدو أن (يونس) قد سار غير مبالي لمصائر من سبقوه فوق تلك الطرق إنه يتصرف كرجل ينتظر بصبر مرور قطار مزركش على حافة محطة قطارات رمادية ليبحث بين ركابه على وجه واحد فقط يعرفه ويظن أنه ينتمي إليه.. وجه لفتاة تحمل بين ملامحها من السلام ما يكفي لإيقاف حروب هذا العالم قروناً طويلة ليتلصص على صمتها الذي يرقد على زجاج النوافذ فيشعر وكأنها ترغب في محادثته عن شيء ما ولكنها تُحجم فتلتف إليه ولا تتنهد مطلقاً ويظل كل منهما يحملق في الأخر بشغف وعمق ونهم بأحداق واسعة لا تتحرك أبداً في اتجاهات مغايرة.. إن ذلك التصرف على غرابته لكنه يشعره براحة كبيرة رغم أنه لم يفعل مثله من قبل فيعود لتأملها بين ثانية وأخرى ويختلس منها صورة

ليُطابقها بصور جمال الكون نفسه لكنها دائماً ما تربح فيعاود النظر إليها دون انقطاع وكان البؤبؤ في قلب عينيها شاسعاً جداً يشده إلى أعماق هوة ما شداً عنيفاً.. لحظات الصمت تلك ونظراته العميقة تجاهها التي تجعل الإحساس بالطمأنينة مجرد وهم إن لم تكن موجودة بالجوار امتزجت بقلقه حول ماذا سيكون الوضع إن غابت تلك الفتاة يوماً ولم يعد يمر هذا القطار على محطة الرمادية؟ لحن وبما أنه يفكر ويتكلم داخل عالمه الخاص فيمكنه أن يتحول في لحظة لشيء ما له القدرة على ملاحقتها أينما حلت ففكرة عدم لقاءها مجدداً لا شك تُعد مُسبباً رئيسياً لأرق طويل وذهول أطول ولكن طالما أنها أمامه الآن فكل شيء بخير حتى وإن لم يتحدثا فأحيانا يخرج من صمته ويتكلم بإيحاءات وجهه فيؤمن أنها ستفهم كل ما يُشاركه معها من مشاعر بغض النظر عن اللغة المستخدمة وهي غالباً كذلك بالفعل.. إن الانطباع النهائي الذي تبقى من ذلك اللقاء أنها فتاة لا تُقاوم فهدير السكون والوقار غير المعقول المندفع من روحها يبدو وكأنه تجسد ما لروح العالم يبدو وكأنه الحقيقة من غير زيادة أو نقصان.. شيء آخر بقي وهو صورته الغريبة التي رأته بها.. تلك الصورة الخارجة عن مجال قدرته التعبيرية فهو ظهر أمامها بصورته الأولى التي خُلق بها دون تجميل يذكر.. هذا ما ستعيشه إن قررت أن تطأ تلك الأرض التي دائماً ما تكون كفة الحقيقة في ميزانها هي الأخف إنه الحب الذي يبدو أن كُل شيء يمسه يظهر ليس كما خُلق بل كما أراده هو أن يتشكل.. حتى قلبك بمجرد أن يخفق لآخر فلن تعرفه ولن يعرفك وستولد أنت وهو من جديد.. ميلاد مجهول الكيفية ولكنه أكثر طهراً من ميلادك الأول .

- ١٠ -

في الخلق الأول غرس الله في الإنسان طبيعته الخاصة إذ أعطاه الشبه والمثال حتى يصير الترابي محفوظاً بنعمة خاصة من العودة للأصل الذي أُخذ منه وحينما عضته الحية وسرى فيها سمها القاتل وفقد النعمة الأولى وعاد لأصله ودخل في مشكلة الموت بسبب الجرح العديم شفاؤه بكونه سمع ووثق في آخر غير الله سقط من رتبته الأولى وفقد المجد الذي كان لهُ حتى أن الأرض صارت ملعونة بسببه فشوكاً وحسكاً تنبت له وبالتعب والمشقة يرعى فيها وبعرق وجهه يأكل خبزه ولم يعد سيداً كما كان يرعى خليقة الله بل يستهلكها ويدمرها فدخل في طريق المشقة الصعب وعاش في عدم راحة بل قلق واضطراب ولا سلام وانقلب العالم على بعضه البعض كل واحد يُريد ان يُسيطر ويسود ليكون إله رغم نقصانه وعجزه لأن النفس الجوعانة التائهة عن طريقها تُصاب بالجنون وتطعن أنفسها بأوجاع كثيرة وتحيا في حالة من التشويش والتغرُّب التام في كل شيء وحتى عن نفسها وبكونها لا تستطيع ان تعود للمجد المفقود فهي تحاول أن تعوضه بشهوة السيادة والتملك وبذلك تأصل في العالم كله الموت الذي يتبعه الفساد ولا رجعة إلا لو استيقظت النفس وعرفت مشكلتها وعادت لأصلها الأول الذي ضلت عنه فتاه معها مشكلتها الحقيقية التي بسببها تخرج كل الشرور والآثام وبهذا الحال صار هناك في أعماق باطن كل إنسان صرخة أنين عميقة لا يقوى أحد على أن يسمعها إذ أنها تنبع من جرح غائر مُتقيح عديم الشفاء استنزف كل قوى النفس فلم يعد لها القوة على الصراخ..

وعلى صعيد أخر ارتفعت همهمات أتية من اتجاه ما لتستقر في جوف دير الرهبان وتدور داخل صحنه كسواقي الهدير..

– " أنا أقر بأنني قد أخطأت أمام الله الكامل..

أنا أقر بأن موت (يسوع) على الصليب دفع ثمن خطيئتي الموروثة وأنا أتكل على أن (يسوع) قد صُلب ومات وقام في اليوم الثالث لأحصل على الحياة الأبدية وأقف بلا عيب أمام الله يوم الدينونة.. آمين "

إنه صوت صلاة الراهب (ميخائيل سمعان) المتحشرج المختلط بدموعه استطاع تجاوز باب حجرته الخشبي المجاورة لحجرة الأب الراهب (مكاريوس الأنطوني) وخرج ليحمل آنينه للأعالي.. وعلى قدر ما كان صوته خفيضاً إلا أن سكون المساء المتمدد في باحة دير الرهبان جعله مسموعاً كفاية.. ظل (ميخائيل) في غرفته جاثياً على ركبتيه ضاماً كفيه في وضع الصلاة مُقابلاً صورة للمسيح الطفل وأمه ولم يستطع أن يتوقف عن ترتيل تلك الصلاة ولا عن إقراره بخطيئته.. إلا أنه أغمض عينيه بشدة وصمت لبرهة ثم شرع يقرأ آيات من " إنجيل يوحنا " كان قد حفظها عن ظهر قلب.. فشهق بعمق ثم رنم:

– " ٢٤ – أما توما، أحد الاثني عشر، فلم يكن معهم حين جاء يسوع.

٢٥ – فقال له التلاميذ الآخرون: قد رأينا الرب. فقال لهم: إن لم أبصر في يديه أثر المسامير، وأضع إصبعي في أثر المسامير، وأضع يدي في جنبه، لا أومن.

٢٦ – وبعد ثمانية أيام كان تلاميذه أيضاً بالداخل وتوما معهم. فجاء يسوع والأبواب مغلقة، ووقف في الوسط وقال: سلام لكم.

٢٧ – ثم قال لتوما: هات إصبعك إلى هنا وأبصر يدي، وهات يدك وضعها في جنبي، ولا تكن غير مؤمن بل مؤمناً. "

وعندما انتهى للآية السابعة والعشرون وهم بمتابعة الترنيم أدار الأب (مكاريوس) مقبض باب الغرفة ووقف خلفه ثم أكمل ما بدأه (ميخائيل) قائلاً:

" فقال له يسوع: لأنك رأيتني يا توما آمنت طوبى للذين آمنوا ولم يروا "

تحكي تلك النصوص من الإصحاح العشرون " لإنجيل يوحنا " – حسب الإيمان المسيحي – الأيام الثمانية الموالية لقيام (يسوع) من الأموات بعد صلبه حسب ما ترويه الأناجيل الأربعة القانونية المعتمدة في جميع الكنائس حيث لم يكن التلميذ (توما) مُصدقاً لقيامة (يسوع) من الموت إلى أن شاهده ولمسه وتروي أيضاً معجزاته مع التلاميذ الأحد عشر حتى اليوم الذي غادرهم فيه مرتقياً للسماوات..

ظل (ميخائيل) جاثياً يبكي دون أن يلتفت للوراء إلى أن رتب (مكاريوس) على كتفيه ثم أقامه وضمه ومسح دموعه بأكمام ثوبه ثم جلسا متجاورين على سرير (ميخائيل) الذي صنعه لنفسه من الخوص..

فقال (مكاريوس):

– أخبرني ما بك؟

فأردف (ميخائيل) مُفتتحاً حواراً طويلاً معه:

– لا شيء يا أبي.. لا شيء

– لم ترنم الإصحاح إلا لعلة.. أخفت أن تحتاج لبرهان ليثبُتَ إيمانك كما أحتاج (توما) لبرهان أيضاً؟

– رجال الله يصنع الله على أيديهم البراهين يا أبي وأنا لست منهم بل إنني أجر خطاياي كما يجر الحِمار عربة سيده

–أما تزال تبحث عن الطريق؟.. عن حقيقية الذات والأشياء يا (ميخائيل)؟

– أقول لك كما قال السيد المُعلم.. إنه ليس باراً من لم يُجرَب.. وأنا قد جربني الشرير ولا أعلم إن كنت سأنجو لأُبرِ نفسي أمام عرش الرب

– من المؤكد أنك تعلم كيف تحول (توما) من رمز للشك إلى دليل للقيامة والإيمان.. لقد كان التلاميذ مجتمعين بعد ثمانية أيام من الصلب في يوم أحد فكما بدأ الخلق الأول يوم أحد يبدأ الخلق الثاني أيضاً في اليوم عينه لقد جاء (يسوع) وسط ترقب أول كنيسة اجتمعت بكامل هيئتها فظهر لهم كغالب

للموت وقاهر للهاوية تشع عبر جروح يديه ورجليه طاقات النور البهيج وموجات الخلاص والشفاء الأبدي لتسري البركة كنهر حياة يغسل أساسات الكنيسة لتُغفر الخطايا.. جاء ووقف في الوسط لأنه جاء للجميع والجميع له ليس كبير أو صغير بينهم هو الرأس للجسد وهو بؤرة ومركز حياة كنيسته والكل عنده مختار ومدعو ومُكرم وهو يأتي إلينا حاضراً معنا بمجده مهما كانت استحكامات الإغلاق والمخاوف وقلة الإيمان.. أتى إليهم بالرغم من أن جميع أبواب العِلّية كانت موصده لكنه وحده هو الباب وهو وحده الذي يفتح ولا أحد يغلق وهو المولود من البكر مريم الدائمة البتولية التي ولدته وبتوليتها مصونة وهو الطريق الوحيد العابر فوق جروف الغواية يا (ميخائيل)

– (توما) رأى وسمع يا أبى وعرف الطريق فتبع سيده أما أنا فأهيم في التيه

– إن الارتحال على طريق الحياة الأبدية لا يستطيعه ابن الإنسان إلا إن أدرك أن الطريق ليس بالبراري ولا بالقفار ولكن الطريق مُعبَد داخل روحه ويلزم أن يكون لتلك الروح كما للجسد عين لتُبصر بها النور وترى الطريق.. فإن غفلت أو ضلت استحال العالم إلى ظلمة ولا يدري الإنسان حينها أين وكيف يسير.

– لا أعلم يا أبي إن كان مصباح نور الله الذي خَلقه في روحي مازال يُضيء..

– إن المصباح ليس من طبيعة الله يا (ميخائيل) ولكنه يستقبل وصايا الله ليُضيء كذلك عين روحك ليست من طبيعة النور ولكنها تستقبله لترى به الطريق فكما قال الرب " سراج الجسد هو العين، فإن كانت عينك بسيطة فجسدك كله يكون نيراً، وإن كانت عينك شريرة فجسدك كله يكون مظلماً، فإن كان النور الذي فيك ظلاماً فالظلام كم يكون! ".. المصباح سيضيء طالما مازالت روحك طاهرة بما يكفي وأحذر من الخطيئة فإنها تُفسد عمل القلب

– إنني حائر.. ويُخيل إليّ أنه لن يمكنني التفرقة بين طريق الرب وطريق الشرير.. بين الكلمة النافعة والكلمة المُخَسِرة.. أيمكن للرب أن يفتح ملكوته لمن هم مثلي يا سيدنا؟

– استعبد جسدك لخدمة العمل الإلهي ولا تجنح قط للعمل المرذول.. اخضع نفسك لكلمة الله وأثبُت فيه فبالحق حينها تكون من المُحررين.. لأن رجال الله يُعرفون بالحق والحق يُحررهم

– كيف أثبت في كلام (المسيح) وأنا أحفظه دون أن ينبثق من ذاتي كما يحفظ كاتب المخفر ما يُملى عليه من مظالم الناس دون أن يفقه ما أُملى عليه بباطل وما أُملى عليه بحق.. كآدم عندما أنقسم بين ما تريده نفسه وبين وصايا الله وحينها ضل ولم يرى الطريق..

أليست هذه خطيئة أيضاً؟

– إننا جميعاً قد ورِثنا عن آدم معرفة الخير والشر ولا رجاء لنا إلا بالتحرر من الخير ومن الشر معا فأنت إن حفظت كلام الرب فهذا خير وإن جاهدتكَ نفسك على تعطيل العمل به فهذا شر ولا يُمكنك عمل الخير دون التصاق الشر به فلا تبتأس.. فعندما أكل آدم من شجرة المعرفة كان الخير والشر ملتحمان في ثمارها ولذلك حرمها الرب عليه الرب وأنذره إن هو أكل منها موتاً يموت.. كان الموت هُنا رمزاً لانقطاع آدم عن الحق وانصرافه لهوى نفسه فرغم خطيئته إلا أنه أختار الخير ولكن الخير في ذاته ليس هو الحق بل إنه حرية الإرادة المؤدية إلى الحق والحق في جوهره هو الله ولهذا فإن مُنِحتَ المقدرة على فِعله فكُن ذا رجاء أن يُعزيك الله بإرادة توصلك له.. توصلك للحق الذي لا يشوبه اختيار ولا معرفة ولا هوى

– فليتمجد الله في سماوات يا أبانا!.. إنك تتحدث بالعِظات كما تحدث بها رسل (المسيح) للأمميين وتمنح السلام لقلوب صدئة

– إن من يفتح أبوابه لكلمة الله لتسكنه سيثبت فيها وتثبت فيه وتصحبه صلوات القديسين أينما حل

– أخبرني يا أبتِ.. كيف أشهد لمجد الله بالقلب قبل شهادة اللسان؟

– " لكنكم ستنالون قوة متى حل الروح القدس

عليكم وتكونون لي شهوداً في أورشليم وفى كل اليهودية والسامرة والى أقصى الأرض ".. هكذا تكلم الرب في سفر أعمال الرسل.. فحينما تتحدث الى الآخرين عن الله في أحاديثك الفردية معهم فأنت تشهد لمجده.. وحينما تزور مريضاً وتشجعه وتبعث فيه الأمل والإيمان لتنهض عزيمته ويقوى رجاؤه في الله ليتصل به ويطلبه فانت تشهد لمجده.. وحينما تمد يد المساعدة لمحتاج وتُسعف ملهوفاً وترد إنسان عن طريق ضلالة فأنت من خلال هذا كُلهِ تشهد لمجد الله.

– نعم أعي ذلك جيداً يا أبتِ ولكن ما قصدته من سؤالي هو كيف أفعل ذلك في كنيسة قلبي الداخلية التي لا يُصلي فيها أحد سوى (ميخائيل) وحده.

– إن "أورشليم" تعنى للقديسين الأوائل مدينة الله العظيمة التي فيها الهيكل الذي عَلمَ فيه (المسيح) كُلَ حين.. ولهذا فلكل جسد حي "أورشليم" خاصة به متجسدة في قلبه.. فالقلب هو الهيكل وهو مُستقر الحياة الروحية فأجعل قلبك هيكلاً لله وأجعل الأرواح الطاهرة تسكنه فكما أنه من "اورشليم" خرجت بشرى الخلاص فلتخرج من قلبك أيضاً أفراح القداسة وطهارة النفس.. قف أمام جسدك وحروبه المتعددة موقف الشهيد فحين تحرمه من لذة الخطيئة وحين تمنعه من لذة الشره وحين تقمعه بفرح فيسهر ويصلي وحين تستعبده فيسجد إلى الأرض مرات كثيرة ويرفع اليدين إلى السماء مرات كثيرة ثم يقرع الصدر بندم الخطاة الراجعين إلى طريق الرب.. حينها فقط تكون حقاً من شهود مجد الله، لهذا فتلاميذ (المسيح) يوصونا قائلين:

"نطلب إليكم أيها الأخوة برأفة الله أن تقدموا أجسادكم ذبيحة حية مقدسة مرضية عند الله فمجدوه في أجسادكم وفى أرواحكم التي هي لله"..

واعلم أنه لم يبقَ للموت سلطان على المؤمن لأنه أصبح ظلاً باهتاً والسر كل السر هو لأن الرب يرافقك في تلك اللحظات التي تبدو لأغلبية الناس لحظات مفزعة إلا أن العبد الصالح لا يخاف أي

شيء حتى في وادي الأهوال لأن الله معه وكما هو مذكور فأبناء الملكوت عندما يشرفون على الموت تكتسي وجوههم بالغبطة لأنهم رأوا في ساعة انتقالهم المجد الإلهي الذي ينتظرهم والذي عاشوا حياتهم شهوداً له

– أتدري يا أبي.. لقد فكرت مِراراً في ترك الرهبنة ومغادرة الدير لأنخرط في عالم الناس الفاني الشرير فقد غلبتني نفسي أحياناً كثيرة ولم أجد منها فِكاكاً فكرهت أن ألبس باطلاً مسوح الكهنة وأنا ما زلت عُرضة للغواية

– إنما الغواية كمحيط تعبره البجعات بحثاً عن الطرف الآخر للغابة فلا يُمكن لبجعة أن تهبط قبل بلوغ الشاطئ وإلا فقد هلكت.. كذلك نحن على الأرض نعيش غربة دائمة بحثاً عن الملكوت ولا يُمكِنُنا الإقامة فيها ولو ليوم واحد وإلا هلكنا كما البجعات الساقطة في المحيط.. مهما كانت الغواية أقوى منك فهي لن تكون أقوى من روح الله فيك فلا خلاص لنا إلا في الاستمرار بالتحليق لأننا نعلم لأي عالم ننتمي ولأن لنا في السماوات غُرف كثيرة كما قال المسيح " إن في بيت أبي غرفاً كثيرة ".. ألا تطمع أن تسكن واحدة منها يا (ميخائيل)؟

– إن كان مجد السماوات يُمنح للآثمين فإنني قد فزت

– مجد الله وملكوته أرحب من أن يضيق على ابن الإنسان.. فقط كُن ذا قلب مُعزىَ

– ماذا لو كان كلام الهراطقة صحيح يا أبتِ؟

– أوضح.. أي كلام تقصد؟

– ألم يقل بعض القُسس المشلوحين أيام الكنيسة الأولى أن (يسوع) أفتدى البشرية كُلها بموته على الصليب وأعتق رقاب البشر من خطيئة أدم التي ورثها جميع نسله المؤمن منهم بتجسده والمُنكر له أيضاً؟

– نعم قالوا هذا وحكمت عليهم الكنيسة بالهرطقة والحرمان

-إنهم استندوا على ركيزة واحدة وأراها منطقية وقريبة لروح الإنجيل.. إن الله المُحب للبشر محبة غير محدودة لا يمكن أن يضع خليقته الضعيفة الناقصة في غرفة تعذيب أبدية.. إن الله أكثر محبة ورحمة من هذا وإن كان كلامهم صحيحاً إذن فلا عذاب للخُطاة وبما أنني لا أظن نفسي صالحاً فهذا يُعزيني ويُبهج قلبي المُلتاع

- إن محبة الله تسع هذا الكون وتفيض ثم إن غضبه أيضاً يسع هذا الكون ويفيض لذا فمصير كُل الخلائق يتعلق فقط بمدى محبة الله لهم لا بما قدموه من أعمال.. إن جهنم في اعتقادي ليست حفرة يُلقى فيها الخُطاة ليحترقوا إلى الأبد بل إنها العدم يا (ميخائيل)

- كيف للعدم أن يكون عذاباً في ذاته يا أبتِ بل إنني أراه الرحمة المطلقة

- إذا فكرت في الأمر بنظرتك الدنيوية قد يكون ذلك صحيحاً حيث يرتكب الإنسان عدداً لا نهائي من الخطايا ثم يختفي دون عقاب كأنه لم يكن.. ولكن إن فكرت فيه بعين روحك ستجده جحيماً لا يقوى عليه أحد.

- كيف؟

- أليس الملكوت هو المقر الأبدي الذي أعده الله للمؤمنين؟

- بلى

-إذن فكل روح مؤمنة صالحة نادمة على خطاياها سيكون الملكوت مستقراً لها بجوار عرش الرب حيث السلام المطلق واللذة المطلقة والنعيم الذي لا يفنى ولهذا فإن أعدم الله أرواح العصاة المتجبرين وجعلهم هباء فإنهم لن يذوقوا أبداً لذة الملكوت وهذا الجحيم بعينه حيث أن كُل مكان ليس ضمن نطاق ملكوت الرب السماوي هو جحيم

- آمنت بما قلت يا أبي.. آمنت بما قلت.. لكن إن أفصحت عن ذلك للآباء في الكنيسة ربما حكموا عليك بالهرطقة أيضاً

– الحق الحق أقول لكم: إن كان أحد يحفظ كلامي فلن يرى الموت إلى الأبد.. هكذا تكلم السيد الرب.. إذن فلا خوف من سلطان البشر على البشر طالما أن الرب يرى ويسمع

– قُل لي يا أبتِ.. كيف أعبد الله على الوجه الذي يرتضيه؟

– لا يُمكن لأحد منا أن يعبد الرب إلهُ كما يُحب الرب أن يُعبد حتى التلاميذ والرسل والقديسين لم يعبدوا الرب كما يجب أن يُعبد ولكن بمجرد أن تمنح عمرك كله لله فهذا قد يشفع لك في الملكوت يوم الدينونة أمام عرش النعمة ولكن إذا تولد لديك الشوق يتولد السعي وإذا تولد السعي ستوجد الإمكانية للمعرفة.. لا أحد يولد وصدره مكتنز كم هائل من الصلاة والتبتل.. بل أظن أننا جميعاً في منتصف الطريق للوصول للحقيقة.. انظر للبشر هؤلاء الذين يبحثون عن العزاء لأرواحهم.. هؤلاء الذين لكل واحد منهم ألف ألف طريق ومنهج للحب للامتنان للشهوة وللجشع أيضاً.. كل هؤلاء في زورق واحد.. وكل الآلهة التي صنعوها ستنتهي لا محالة وسيتبقى إله واحد نعبده أجمع بالقلوب والنفوس والترانيم

– إنني أصلي بلا انقطاع وأصوم الأيام الأربعين العظيمة فلا يدخل جوفي فيها إلا الخبز الجاف والماء ألا يشفع لي هذا؟

– لقد ذكرتني بحادثة قديمة لراهب شاب كان يماثلك في العمر عندما دخلت أيام الصيام العظيمة خرج من صومعته يُمسك طبلاً ويضرب عليه بقوة سائراً بين أزقة الدير لينادي ويقول: " يا أباء.. يا أباء.. لقد دخلت أيام الصيام فلتعظموا الله في قلوبكم ".. وظل يُنادي لساعة من النهار حتى خرج له راهب عجوز ربما تجاوز عمره المائة عام فقال له: " لما تضرب الطبل.. ماذا دهاك؟ ".. فرد عليه الراهب وقال: " لقد دخلت أيام الصيام العظيمة يا أبتاه ".. فأجابه العجوز: " أصلحك الله يا ولدي.. إن أيامنا كُلها صيام.. عد لصومعتك وفتش عن خلاصك "

– ألم أقل لك يا أبتي إنني أكره أن ألبس مسوح الكهنة باطلاً! ويحي أنا الإنسان الشقي من ينقذني من جسد هذا الموت!!

– إن من يعمل خطيئة يكن عبد للخطيئة والعبد لا يثبت في بيت الله إلى الأبد لكن محبتك للحق تحول طبيعتك من طبيعة زُرعت في فساد لطبيعة تقوم بغير فساد.. افتح أبوابك يا بُني ودع الرجاء يسكُنك هدلت يمامة بيضاء تخفق بجناحيها هواء تلك الليلة الهادئة لتقف على حواف النافذة الزجاجية المُعلقة أعلى الغرفة قُرابة السقف وخلفها شبح لقمر فضي ضخم يبدو وكأنه يستعد للقفز داخل صحن الدير تاركاً السماء مُعتمة دون قمر آخر مُعزٍ وأخذت تحرك رأسها بتتابع سريع وتضرب على زجاج النافذة بمنقارها بنفس السرعة وكأنها مُبرمجة على فعل ذلك.. أنتبه الراهبان لما يجري وأخذا ينظران للأعلى وبرغم السواد النقي المصبوغة به سماء تلك الليلة إلا أنهما كان يريان تلك اليمامة بوضوح تام ويراقبانها وتراقبهم وكأنها أتت لتستمع لما يدور بينهما من حديث.. وبهدوء يتناسق مع ارتعاشة المصباح الأصفر المثبت وسط سقف الغرفة تابع (مكاريوس) كلامه قائلاً:

– أتعلم يا (ميخائيل) أن يمامة كهذه كانت سبباً في تحول عدداً من قاطعي الطُرق ولصوص القوافل والقتلة المأجورين لقديسين يتشفع بهم شعب الكنيسة؟

اعتدل (ميخائيل) ثم استدار نحوه مُبدياً اهتماماً لما يسمعه للمرة الأولى فما كان من إلا أنه قال باستغراب:

– كيف؟

هُنا خلع (مكاريوس) نعليه وسند باطن كفيه على سطح السرير ليفرع رجليه ويجلس بكامله فوقه بساقين ملتفتين وجذع مستند إلى الحائط وما إن استقر حتى عاد حديثهما إلى ما كان عليه حيث قال:

– إنه الإيمان بالمستحيلات الذي يُحول رجلاً ضالاً إلى قديس فكم من ملاك تجسد كيمامة ووقف على نوافذ أولئك الرجال حاملاً في نفسه خطة الله لهم بينما هم غارقون حتى أنوفهم في الخطيئة.. ولك في قصة (شاول) الطرسوسي الرجل اليهودي عدو المؤمنين خير عِظة

– أعلم أنك تتكلم عن القديس (بولس) يا أبي ولكن أعذرني.. لا أستطيع قبول أمر كهذا.. فكيف لقديس مثله أن يكون في الأصل رجلُ خاطئ؟؟ كيف؟

– بل كان كذلك.. وخرج من طرسوس قاصداً أورشليم ليتتبع تلاميذ (المسيح) ويرصدهم ليُكمل اضطهاده لهم الذي بدأه في طرسوس.. ولهذا قلت لك أن خطة الله للإنسان لا يُمكن لأحد أن يعلمها فعلى الرغم من خطايا (شاول) إلا أن الرب أختاره ليكون رسولاً يبشر بالأخبار السارة وبالخلاص

– يا أبي هل يمكن أن يُصدق أحد أن القديسين لهم خطايا؟

– القدوس السماوي هو وحده الذي بدون خطيئة يا (ميخائيل).. ولكن ابن الإنسان قد يُغسل من خطاياه متى أراد له الرب ذلك.. فعندما وصل (شاول) إلى دمشق ظهرت له يمامتان تحولا لملكين بسطا أجنحتهما ليسُدا أفق السماء فنكفئ (شاول) على وجهه ساقطاً أرضاً بينما يأتيه صوتاً راعداً من السماء في الخلفية ليقول:

– " شاول، شاول، لماذا تضطهدني؟ "

ظل صدى ذلك الصوت يتردد في الأنحاء حتى انقشع الضباب وظهر له (المسيح) متوسطاً السماء فاتحاً ذراعيه مُعاتباً له ليُصعق (شاول) في مكانه.. ها هو الذي تضطهد تلاميذه أظهر مجده لك.. ومن يومها تحول ذلك الرجل من يهودي يُنكر المسيح لقديس الكنيسة الأول ورسول الأخبار السارة

– لكن ليس كل من يؤمن تُعد له خُطة لاصطفائه!

– الإيمان بالمستحيلات أحد صفات القداسة ولكن هذا الإيمان يظل ناقصاً طالما لم يقترن بإيمان المجازفة

– أرجوك ألا تُزد الطرح تعقيداً.. لا أريد أن أكون قديساً يكفيني أن أكون راعياً للخِراف في ملكوت الرب

– ورجاءك هذا في حد ذاته قداسة يا (ميخائيل)

– أقول لك مُجدداً يا أبي " كيف "؟

قُل لي كيف يكون المرء مؤمناً مُجازفاً إن كان هذا الإيمان سيعبر بي إلى الملكوت فأنا في طلبه من الآن وإلى يوم الدينونة أكون.

تنهد (مكاريوس) وزم شفتيه كأنه يحدث نفسه عن طول هذه الليلة فذلك الراهب الشاب لن ينفك عن أسئلته إلا إن ارتوى بالإجابات تماماً فرفع رأسه نحوه وقال:

– سأجيبك.. ولكن قبل أن نُكمل حديثُنا الطويل يا حبذا إن خرجت وجلبت لنا بعضاً من عناقيد العنب المتدلية من كرمة الدير المزروعة في صحنه..

أومأ (ميخائيل) برأسه مُستجيباً وقام قاصداً باب الغرفة ففتحه بهدوء حتى لا يُزعج أزيز الباب بقية الرهبان المعتكفين في غرفهم المجاورة ثم خرج تاركاً مُعلمه وحيداً في غرفة ساكنة كقبر لا يتحرك فيها شيء سوى ضوء المصباح الأصفر المرتعش.. إن كل الذين يسكنون هذا الدير يخافون الوحدة ومع ذلك يستمرون في سعيهم نحوها.. فرغم كل شيء ورغم كل ما قدمناه للعالم إلا أننا قد نجد أنفسنا وحيدين في نهاية الأمر ولكن وِحدة القداسة أكثر قبولاً للنفس من وِحدة العالم الممزوج بالخطيئة والأصباغ النجسة.. ففي ذلك العالم الوِحدة ليست ألا تكون محاطاً بالرفاق لكن هي أن يكونوا بالقرب منك ولا تشعر بهم ولا بدِفء أيديهم أو قلوبهم.. الوِحدة تتجلى فيك عندما تشعر أنك ثقيل جداً على الأرض.. بينما ما يعيشه الرهبان داخل حدود جدران هذا الدير هو أشبه بمنفى سماوي اختياري لكن وجوه الرهبان فيه تبدو وكأنها ليست من الأشياء التي تتأثر بتغيرات الطقس والأمكنة.. تظل وجوهِهم هادئة في كل مرة يراودهم فيها شيطان الرغبة أو الشغف.. يبدون وكأنهم

أعواد ذرة خضراء تحمل كيزان ناضجة لا تتأثر برياح الأيام العاصفة.. فلو تقربت من أحدهم وعِشت ما يعيشه النُساك ستشعر وكأنك تحتاج لتجديد إيمانك.. ستبحث عن وجه الله.. عن وجه الموعظة التامة.. ستبحث عن الخشوع ثم التأمل ثم التسبيح.. وستدع إلهك يمسح عنك كل حزن يسقط في قلبك كما هم يفعلون.. وهذا ما يحاول (مكاريوس) السماح بوقوعه داخله طيلة الوقت حتى وقت كرازته لتلاميذه وحتى وهو جالس ينتظر عودة من أرسله في تلك الغرفة التي ظلت السكينة الغير مُبررة تبسط كفيها على حيزها إلى أن شقت بياض ثوبها رتوش أزيز الباب الذي فُتح مدفوعاً للداخل ليظهر منه (ميخائيل) بلباس الرهبنة الأسود واقفاً عند عتبته حاملاً صاعاً أو يزيد من العنب وإبريق ماء بارد وظل يقترب بهما نحو معلمه الجالس مُتربعاً على سريره مُلتف الساقين مُلتحفاً بروحه.. فوضع ما يحمله أمامه وبادره سائلاً:

– صورَ لي أن هذه أنضج عناقيد الكرمة يا أبتِ.. هل نالت رضاك؟

حرك (مكاريوس) رأسه المسنود على الحائط وقال:

– كُل ما تمنحه الكرمة لنا يبدو في نظري أنه حسن حتى ولو كانت عناقيد قُطفت في غير وقت نضوجها.. دائماً أشعر أن كرمة العِنب وشجرة التين يطرحان قداسة قبل أن يطرحا ثماراً. ابتسم (ميخائيل) وهز رأسه متعجباً من حكمة مُعلمه الطاغية على كُل شيء ومد يده وناوله عنقوداً رتبت حباته وكأنها ثُريا أرجوانية تكاد تُضيء عتمة الغرفة التي تُصارع ضوء المصباح الأصفر المرتعش.. وما أن وضع الأب حبه من ذلك العنقود في فمه حتى تنهد بعمق.. تنهُدٍ ينم عن جسد استراح بعد عناء يوم طويل ثم أغمض عينيه وصمت لدقائق بدت وكأنها شهور خشنة كشمس الصحراء حتى إن صوت أنفاسهما خلالها لم تكن مسموعة ثم عاد لمواصلة ما أنقطع من حديث دون تمهيد سابق حيث قال:

– إن قصة الله مع كل أنسان قديس إنما هي قصة عجيبة جداً خارجة عن كُل نِطاق ومن غير الممكن قولبتها عقلياً

– احك لي يا أبتِ عنك.. وعما اختبرته من خطة الله لك

– عندما قررت الرهبنة لم يتورع أحد من عائلتي عن تحذيري من التبِعات بل ووصفت بالمجنون.. لقد كانوا على حق فحياة الرهبة مهيبة وثقيلة جداً على النفوس الضعيفة ولكنني كنت أؤمن بقصص أجدادي عن الرهبنة وعن القديسين الذي يذكر الكهنة والشمامسة أسمائهم على المذبح فعزمت على تجربة تلك الحياة بنفسي فإما أن يكون ما آمنت به حقيقياً أو أن تكون سُبل الكنيسة وصفحات الأناجيل وصلوات الآحاد مجد باطل

– وهل وجدت عزاءك فيما بحثت عنه؟

– لقد وصلت لبوابة الدير وأنا كُلى رغبة بأن أعيش حياتي لله وكنت لا أملك إلا أن أُجازف وأثق في أقدار الرب المكتوبة فكان لابد أن يُجربُني الشرير كما جرب القديسين والشفعاء وآباء الكنيسة الأوائل فتألمت آلاماً ظهرت كدماتها على الجسد والروح لكني شُفيت بحبي الخالص لله ولكلمته في الإنجيل فوجدت عزاءاً ومحبة ومجداً وها أنا ذا أتم الثلاثين عاماً راهباً وقد شابت لحيتي ورأسي لكن مازال قلبي غضاً.

– هل إن عاد بك الزمن لسنوات صِباك هل ستختار أن تكون راهباً لحياة أخرى ممتدة؟

– بلى.. لأن كُل ما اجتزته هُنا هذبني على الوجه الأكمل ومُنِحت به سلطاناً على جميع الأرواح النجسة فتحولت من مجرد إنسان يُحب الله لإنسان يتكلم بكلام الله ويؤمن بالمستحيل.

– إذن فقد صدقت وعود الله معك يا أبتِ؟

– إن وعود الله إذا تعاملنا معها بالعقل لن نجني من ورائها شيئاً ولكنها وعود قلبية بالأساس تُزرع في جسدك بمسحة إلهية.. إنها تأتيك أو تأتي بك كيفما أرادت

– وهل الغارق في الخطيئة يُمكن أن تُزرع فيه وعود الله؟

– بل يمكن أن يتجاوز أمره كل ذلك ليصبح قديساً كما هو مكتوب عن القديس (أوغسطينوس) الذي كانت حياته أشبه بحلقة مفرغة من الخطايا فتألمت أمه لحاله وذهبت للقديس (أندروسيوس) وبكت في حضرته وقالت له: " فلتذكر ابني في صلاتك " فمسح القديس دموعها وقال: " أابنُ هذه الدموع يضل عن طريق الله؟ بل تأتيه وعود الرب وتُعزيه فلا تحزني فابن الدموع لا يفشل " فإذا بابنها يتحول لأحد أكبر فلاسفة الكنيسة وشفيع لشعبها أمام عرش النعمة.. انظر كيف تعمل روح الله فينا يا (ميخائيل)!!

– المجد لله في الأعالي.. أخبرني يا أبتِ أهنالك من جازف ووصل؟

– أهناك أحداً جازف أكثر من (تماف السكندرية)؟

– سمعت عنها القليل..

– إنها امرأة عاشت حياتها في الغواية متنقلة بين حانات الإسكندرية لسنوات وعندما شعرت أن الوضع القائم في المدينة لا يساعدها على التمادي أكثر ارتحلت للقدس حيث حياة الفجور هناك أوسع وأرحب.. ولكن بعد وصولها هناك شيء ما دفعها لزيارة كنيسة القيامة فسلكت طريقاً طويلاً يؤدي لبوابتها الرئيسية وما إن اجتازت عتبتها حتى رأت صورة كبيرة للعذراء معلقة على العمود المواجه لها والغريب أن العذراء كانت تنظر لها وتضحك.. نعم الكل يرى العذراء في الصورة مطأطأة الرأس متنسكة بينما كانت (تماف) تراها تضحك؟؟ وهنا بُث في روعها أن تكف عن مواصلة حياتها كعاهرة وأن تتبع طريق الله كما أراد الله لها أن تفعل.. فخرجت من الكنيسة تركض في البرية متنقلة بين التلال والأحراش لتعيش هناك واحد وعشرون عاماً لم ترى فيهم إنسان وانقطعت فقط للعبادة والتبتل فكانت تنام بمعدة فارغة وعندما تستيقظ تجد الخبز والعسل بجوارها بغير كيفية فلم تسأل وكان هذا

يحدث كل يوم على مدار تلك الأعوام الطويلة وحتى عندما ماتت في البرية وحيدة مستندة على جذع شجرة يابس كتبت على صخرة مجاورة لها: " أيها العابر أعد التراب للتراب "

وظلت على حالتها تلك ما شاء لها الرب أن تظل حتى عبر أحد النساك طُرق تلك البرية فرآها وحفر لها قبراً ودفنها فيه فأصبحت ظهوراتها تلازمه ليلاً ونهاراً لتحكي له عن ما كان ليخبر الجميع بما سمع.. فلم يبقى أحد في القدس ولا في الإسكندرية حُكي له قصتها إلا وجاء لزيارة قبرها ليقف أمام شاهده ممتلئاً بإيمان عظيم.. فطوبى حقاً لكل من رهن حياته من أجل كلمة الله

– وكأنك تقول لي أن ما نلقيه أرضاً على الطريق نحو الرب من متاع وأُنس تأتينا بدائله ليست كعطايا ولكن كمعجزات

– كُل من جازف بإيمانه ووثق في خالقه لو قال للجبل انتقل لانتقل.. إنما المعجزات هي الإيمان الكامل بذات الله بدون عقل لأنه لا أحد مُنح العقل الكامل ليرى الله الكامل بل مُنحنا الإيمان بدلاً عن ذلك

– لقد حُكي لنا في ليلة سابقة أثناء اجتماع الرهبان في صحن الدير عن الأب (يسطس الراعي) وأنا أعلم أنك كُنت أحد تلاميذه يا أبتِ وأحببت أن تَخصني بشيء من سيرته!

– هل سمعت جيداً كُل ما سبق؟

– بلى سمعت

– إذن فالأب (يسطس) هو التجسيد الرباني لما ألقيت عليك.. فكل تلك المعاناة والآلام والمجازفة والصبر كنت تراها فيه وكأنها امتزجت وأضحت هيئة واحدة مخلوقة فأصبح لها جسداً تمشي به على الأرض

– يُقال إنه لم يكن يأكل سوى خبز جاف وزيتون فما أعظم إيمانه حقاً

– أتدرى لما سُمي (يسطس الراعي) بهذا الاسم؟

– لا يا أبي.. لا علم لي

– إنها ليست قصة بل إنه عمل من أعمال الله.. فعندما كان (يسطس) مازال راهباً شاباً ترك الدير وخرج ليسكن الجبل المقابل للقرية الذي ترى قمته من فوق قبة الكنيسة إذا صعدت لتدق أجراس القُداس المُعلقة بالقبة.. وفي أول ليلة يقضيها وحيداً في البرية تجسد له الشيطان في صورة ذئب فاقترب منه وقال:

" ألا تخشى ذئاب البرية يا (يسطس)؟ "

فخُلع قلبه رعباً وأخذ يُمجد الله كما لم يفعل من قبل ثم أجاب بارتباك عظيم:

" بل أخاف الرب إلهي أكثر "

فعوى الذئب بصوت وكأنه يخرج من قعر الجحيم حتى أن القديس نزف من أنفه وأذنيه خوفاً وحام الشرير حوله دون أن يقترب أكثر ثم قال له:

" ستجد ما لا تخافه حاضراً فإن كنت باراً حقاً دع إلهك يُنجيك ".. 

وفي صباح اليوم التالي هبط للسفح جالباً دلواً من الماء ثم صعد لاجئاً لمغارة أعلى الجهة الشرقية من الجبل وأنتظر حلول المساء.. فلما جن الليل سمع صوت حشرجة يقترب أكثر فأكثر ويبدو انه يخرج من حناجر زمرة من الذئاب إلى أن رآها تقف تماماً عند عتبة مغارته وما ظن إلا أنه سيفتك به ولكنه لم يفعل شيء إلا أنه أمسك دلوه وقرأ عليه التسابيح ثم قذف ما به من ماء على تلك الزمرة فما كان منهم إلا الهرولة للخلف كجراء ولدت حديثاً تخشى صوت الريح.. ثم تلاشوا في الضباب وعلى مدار الأيام التالية كان تأتي تلك الزمرة كل ليلة وتنام كل ذئابها عند قدمي (يسطس) فأصبحوا أشبه بقطيع خراف لا ينام إلا في حضن راعيها.. ولهذا سُمي بالراعي

– " لأن قوتي في الضُعف تكملُ " هكذا قال (المسيح) لتلاميذه

– وهذا ما آمن به الأساقفة الأوائل يا (ميخائيل) فيمكن بالإيمان وحده أن يُعانق رُفات وردة السديم وأن يقترب القمر من الأرض أكثر ليُظلل بنوره طريق ابن الإنسان السالك نحو الله

– قل لي يا أبتِ ماذا كان يقصد الرجل الجليلي عندما قابل (يسوع) خلال أيام الجسد على الأرض وركع له ثم قال:

" أؤمن يا سيد ولكن أعن ضُعف إيماني "؟

أيمكن أن يقترن الإيمان بضُعف؟ فكيف يُسمى إيماناً إذن؟

– عندما كان (المسيح) يصنع المعجزات في " كفر ناحوم " سمع به رجل أعمى مُنذ الولادة فجاء وطلب من السيد أن يُعيد له بصره.. فقال له (يسوع):

" ماذا تُريد؟ "

قال: " أُريد أن أُشفى.. أُريد أن أُبصر "

فقال له السيد: " أتؤمن؟ "

قال: " أؤمن "

قال: " ستُشفى!!.. اذهب واغتسل في ماء الينبوع وسيُرد عليك بصرك "

فذهب الأعمى واغتسل ورُدَ إليه بصره بالفعل وعندما سمع به اليهود أحضروه للهيكل وأحضروا معه والديه فسألوهم إن كان فعلاً هذا الرجل أعمى مُنذ الولادة؟ فأجابوهم بنعم.. لقد ولد أعمى..

فسألوا الرجل من رد عليك بصرك؟

فقال: " رجل يُقال له (يسوع الناصري) "

فعقب القضاة اليهود على ما سمعوا

فقالوا: " ألا تعلم أنه رجل كذاب يدعي أنه مؤيد من الله ويقول أن مملكته لا تنتمي لهذا العالم؟ "

فأجابهم الرجل الذي كان أعمى: " لا دخل لي به إن كان نبياً أم شيطان.. ولا أعلم عنه شيء إلا أنه رجل يصنع المعجزات "

فتركوه يمضي لحال سبيله.. أنظر كيف أنكر الرجل (يسوع) أمام قضاة الهيكل؟ خوفاً منهم ومع ذلك لم يغضب منه السيد لأنه يعلم أن نفس البشر قد جبلت على الخوف والضُعف.. فحتى تلاميذه أنكروه عندما حاصره الرومان في بستان جبل الزيتون عندما حانت ساعة الصلب.. ورغم ذلك كله لم ينفي عنهم إيمانهم بل ثبتهم فيه ومنحهم حياة أبدية لأنه بُعث للخطاة قبل الصالحين فالرجل الجليلي كان يريد أن لا ينكره إن حانت الساعة التي ينكر فيها المرء إيمانه فقواه (يسوع) وقال له:

" طوبى للمتعبين بإيمانهم فإن لهم العزاء أمام عرش أبي الذي أرسلني "

ثم أردف: " قم.. وعلى غير الرب إلهك لا تعتمد "..

فإن لم يتخلل قلب المؤمن ضُعف وخلل بل حتى شك وألم فلن يكون قريباً من الله.. أنسيت بماذا خاطب (المسيح) الخطاة في " أورشليم "؟.. لقد كلمهم في أسواقهم وبيوتهم ومزارعهم قائلاً:

" أنا كلمت العالم علانية.. أنا عَلمتُ كل حين في المجمع وفي الهيكل وفي الخفاء لم أتكلم بشيء.. تعالوا إلي يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم "..

– بأي إبداع عميق خلق الله الألم؟ وبأي حِكمة خُلق الشك؟ فبدونهم لن يصل الناسك لمعرفة ملكوت الرب ولن تحدث على الأرض المعجزات

– ولن يتحول العاشق لراهب أيضاً

عندما قال الأب (مكاريوس) جملته الأخيرة تلك أرتبك (ميخائيل) وتلعثم لسانه وخرجت كلماته مضطربة من بين شفتيه وأحس ببرودة تسري في أوردة وقال بصوت مُتكسر:

– ماذا تقصد يا أبتِ؟

فأجابه مُعلمه بنبرات هادئة بينما كانت رأسه مستندة على زاوية الجدار وينظر لأعلى:

– أنا أعرف لِما تركت العالم وأتيت إلى هُنا.. أنا أعرف أنك كُنت تُحِبُها أكثر من دموع رجاءك للرب في الصلوات.. وأنا أعرف أيضاً أنك تُحِب الرب إلهك ولكنك تُحِبُها بنفس الدرجة أو ربما أكثر

– لا يوجد في قلبي أحد إلا (المسيح) يا أبتِ وإن كانت إحداهُن تُشارك الرب في محبتي فباطلة عبادتي وباطلة هي كُل كِرازتي

– لا تثريب عليك يا بُني.. إنما الحب هبة وعطية وأخبار سارة.. بل أن الله قد خلق قلب الإنسان من فيض محبته هو ذاته وصنعه بيديه ليُدان أمامه كُل من سمع صوت الرب في قلبه ولم يكن من المُلبين

– ولأنني قد سمعت فها أنا قد لَبيت

– إن من واجب الإنسان أنْ لا يكون عالة على أحد في هذا العالم حتى وإن كان مُحباً له وهي هجرتك لأنها لم تعد أرضاً خصبة لك.. لم تعد حقلك.. بينما أنت ظللت راعياً لها.. منتظراً وحارساً.. وهذا في حد ذاته استجداء وهزيمة فلما يأست طرقت بوابات الدير بحثاً عن العزاء في (المسيح)

ظل (ميخائيل) يُطالع أبيه الباقي كما هو على سكونه ناظراً لأعلى وتتحرك شفتاه ببطيء.. ظل ينظر لدقائق ثم بكى ثم تحول بكاءه لنحيب خافت.. نحيب عميق صادر من جدار قلبه المتشققة فاختلطت دموعه بصوته المُعذب قائلاً:

– لقد كُنت أُحِبُها وكأنّ هذا الحب هو مهمتي الوحيدة في الحياة.. لقد جعلت من جسدي غطاءً لها وكوخاً.. فحتى حينما تُمطر شتاءً كنت أُظللها بذراعي وعندما كانت تبيت الليل غاضبة كنت أجعل كتفي وسادة لرأسها لتشكو كما شاءت مني أو من العالم حتى تغفو.. لقد افتقدت ذلك الهدوء الذي كان يُسيطر على كوني الضيق الصغير حينما كُنت تنظر لي.. لم يوجعني غيابها ذاته يا أبتِ ولكن أوجعتني السهولة التي تم بها الأمر فعندما رحلت وتركتني أصارع كُل وحشة العالم دون أمل في النجاة تغير الخط الزمني الخاص بي فأصبحتُ وحيداً طوال الوقت وكنت أعلم ذلك جيداً في قرارة نفسي ولكنني لسبب ما أنكرت ذلك وقلت: " كلا أنا لست وحيد ".. لِم المكابرة ومن أجل ماذا؟

لا أعلم أو ربما أعلم لكن أخاف الإجابة!!.. الكل يعلم لماذا هو وحيد الكل دون استثناء وذات ليلة كان الطقس بارداً جداً لذا تعريت وقررت أن أتجمد على سريري وجعلت الهواء البارد يفترسني تماماً.. أخذت أرجف لساعتين أو ثلاث مثل قلبٍ مفزوع كان الأمر منهكاً شعرت أنني سأموت وحينها فقط أدركت أنني وحيد حقاً وأنه لا قيمة لي.. كنت مستلقياً كقطعة لحم كبيرة فاسدة ومتجمدة لا تشتهيها حتى الكلاب ولم يلقِ لها بالاً أي أحد ولا حتى أنا ولا حتى سريري ولا حتى الهواء الذي كان يتسلق جسدي فقط لثوان ثم يبتعد كحال كل نسمة هواء باردة تتحسس قشرة جلدي الميتة.. فسألت نفسي دون خجل: " هل الأمر مزعج أن تكون وحيدًا؟"

في الحقيقة كلا ولكن المزعج هو أن لا تكون ذا قيمة.. كنت أحياناً أشعر أن لا صوت يعلو فوق صوت نحيبي وكأن الجميع ينصت لعاشق يكرر نهاية حدثت وستظل تحدث ما دام الرجل رجلاً وما دامت المرأة امرأة.. أقف في مقدمة كُل شيء كطفل ضرير تائه يتطلع إلى أن تتلمس عصاه نهاية ذلك المدى الممتد أمامه الذي لا يراه لكنه يستطيع شم مسافاته لقد كانت تنسل من خلفي.. تحتضنني ونقف هناك معاً على حافة ذلك المدى محدقين في البُعد كلقطةٍ من مشهد روائي رخيص.. نعم يا أبتِ لقد خضعت لخطيئة الابتذال لقد غنيت لها ورقصت لها وسميت عدداً من نجوم السماء باسمها وفي الغالب أشعر أنني لست نادماً على خطيئتي بل إنني فخور بها.. أنا لن أسألك كيف عرفت بها وبي لكني حقاً أود مِنها لو تكتب لي رسالة تُخبرني فيها أنها تفتقدني أعدك يا أبي أنني سأصدق وسأفرح كما لم أفرح من قبل رُبما رقصت أيضاً في باحة الكنيسة صباح كل أحد وبعدها فليتم الله مشيئته كيفما كانت وعلى أي صورة حلت.. صلِ لخلاصي يا أبتِ فقلبي مازال ينز دماً أفعل هذا من أجلي ولتكن مُباركاً في السماء كما أنت في الأرض

– إن أي ثقة في أمور أرضية أو علاقات أرضية أو قوة أو مواهبة أو جمال أو صلاح لا يعول عليها فعندما تخبو هذه الأشياء وتفشل كما سيحدث بالتأكيد لكونها وسائل وقتية لحمل مجد أعظم فإن

الناس سيصابون باليأس.. وما أُريدك أن تدركه يا بُني هو أن مجد الله ثابت ومستمر وسوف نراه خلال رحلة حياتنا يظهر هنا وهناك من خلال هذا الشخص أو تلك الغابة.. في قصة حب أو ملحمة بطولة.. ولكن في النهاية يرجع المجد كله لله ولذلك لأننا سوف نجد مصدر الجمال المطلق فيه ولن يُفقد منا شيء طالما أننا نحيا كما أراد فكل الأشياء التي اضمحلت مِنا في وقت ما سوف نجدها مرة أخرى.. صل لنفسكِ يا (ميخائيل) فالله سيسمعك وسيُعزيك.

- ١١ -

في غرفة الضيافة الخاصة بمنزل (مرزوق علوان) الموظف بشركة الكهرباء جلست زوجته (ريحانة) بجوار أختها (شادية) يتحدثن عن جديد أخبار نساء القرية وأسعار السلع التموينية.. كانت محادثة اعتيادية بين ربتي منزل فرغتا من أشغالِهِنَ وجلسنَ يتبادلنَ أطراف الحديث.. فالسيدة (ريحانة) أم لثلاث بنات ولم تتلقى قدراً كبيراً من التعليم فأكتفى والدها الحاج (عباس) بإخراجها من المدرسة بعد حصولها على الشهادة الابتدائية للتفرغ لمساعدة والدتها في شؤون المنزل بما أنها كانت البنت الكُبرى بينما كانت أختها (شادية) أوفر حظاً منها على مستوى التعليم فاستطاعت مواصلة دراستها حتى حصلت على الشهادة الثانوية التجارية وهي كذلك أكثر انفتاحاً على أفكار وأساليب حياة المدينة بحكم دراستها هناك لأربع سنوات ولكن ما اختمت دراستها في السنة النهائية للشهادة الثانوية زُوِجَت لرجل يعمل شرطياً لتلحق بأختها ولتصبح أماً لطفل واحد لكن يقتضي عمل زوجها السفر لإقليم مجاور ويأتي فقط يوم واحد في الأسبوع ليقضيه معها فتراها دائماً ما تصحب ابنها ظُهراً بعد أن تغلق باب منزلها وتتوجه لمنزل أختها الكائن على حِزام المباني الموازي للساحة الخضراء حيث تُطِل نوافذه على قِباب الساحة من جهة الغرب ورغم بُعد المسافة بين منزلها ومنزل أختها إلا أن (شادية) لا تمانع من الذهاب يومياً لكسر دائرة الوحدة التي تعيش فيها ستة أيام في الأسبوع.. استرسلت (ريحانة) في الحديث مع أختها عن تفاصيل زواج ابنتها الكبرى (ياسمين) ذات الستة عشر عاماً التي تقدم لها مُراقب سكك خطوط حديدية يبلغ من العمر ثلاثة وثلاثون عاماً لكنه مازال أعزب وحالته المادية ميسورة ففي قُرى الجنوب يُعد النظر في عُمر الخاطب شيئاً ثانوياً جداً طالما أنه رجل يستطيع تحمل تكاليف الزواج وتوفير حياة كريمة للعروس.. ورغم عدم قبول (شادية) لزواج ابنة أختها في هذا السن إلا انها كانت تعلم أن ما تُمليه العادات أقوى مما قد يُمليه القانون الحكومي لذا شرعت

مشاركة أختها الحديث عن جديد التجهيزات وما اشترته أختها للعروس من أثاث وملابس حديث لا يناسب الملامح الطفولية للفتاة التي ستُزف ربما بعد أقل من شهرين.. واستمر الحديث متصل بين الأختين حول تفاصيل أهل الخاطب وأمه وأخواته وقريباته خصوصاً.. نظراً لأنهنَ سيكُنَ مُلازمات للعروس في حياتها الزوجية لأن العُرف الغالب أن يتزوج الرجل في بيت عائلته كنوع من الاعتزاز والاحتماء أيضاً وفرصة شراء منزل جديد خاص بالعروسين تُعد صعبة وغير متوفرة للجميع فحالة الخالة والأم صاحبات المنازل المستقلة لن تنطبق على (ياسمين) الفتاة الغضة التي ستُجبر على المعيشة مع عائلة أخرى مختلفة جداً في كل شيء وسيُطلب منها أيضاً أن تتأقلم دون إبداء أي امتعاض.. هكذا هي العادات وهكذا يجب أن تتم الأمور..

تتقدم (ياسمين) نحو خالتها حاملة كوباً من عصير البرتقال وفطيرة صغيرة محشوة سُكر كنوع من الضيافة للخالة شبة دائمة التواجد بالمنزل وعندما اقتربت بما تحمله منها قبلتها خالتها وضمتها لبضع ثوانٍ وهي تقول:

– أصبحتِ عروساً يا ابنة (مرزوق) وجاء الخُطاب يطرقون الأبواب من أجلك.. مُبارك عليكِ ما اطعمكِ الرب

بينما تبتسم العروس بلُطف ويحمر خديها خجلاً قطع صوت ذلك الحديث الحميمي نداء إحدى أخوات (ياسمين) الصغيرات اللواتي مازلن يدرسن في المرحلة الابتدائية الآتي من غرفة نومِهِن المجاورة لغرفة الضيافة.. ظل نداء الطفلة يتصاعد مُطالبة أختها الكُبرى بتجهز طعام الغداء كما هي العادة اليومية فغادرت (ياسمين) على الفور مسرعة وتلحقها بعد فترة وجيزة أُمها إذ عليها مهمة وضع الفحم على النار لتجهيز الشيشة التي يتناولها الوالد بعد وجبة الغداء عقب وصوله من عمله

عصراً ولكن قبل أن تُغادر (ريحانة) غرفة الضيافة وتترك أختها تهدهد ولدها الصغير حتى تُعد الفحم لزوجها افتتحت معها حديثاً من نوع أخر حول أهل العريس قائلة:

– يقولون أن عائلة العريس ذات جذوراً تُركية يا (شادية) وأنا كُنت أسمع من والدي دائماً أن الأتراك غدارين وناكثي عهود

– هذه المسائل تجاوزها الزمن يا (ريحانة) لم يعد مهماً الآن إن كان أصل العوائل عربياً أم لا بقدر أهمية ما يملكوه من أموال وأراضٍ ومتاع

– تتكلمين ببرود وكأن ما كان يُخبرنا به أبي ليس أمراً جدياً كفاية.. هو عاشرهم خلال عمله بالفلاحة لسنوات وكانوا جيرانه حيث كانت جميع الحقول المجاورة لحقله شمالاً يمتلكها الأتراك وكان يشكوا منهم مُر الشكوى لهذا أنا قلقة وقد أجعل زوجي يتراجع عن موافقته على هذه الزيجة كُلياً

– أتُصدقين كُل ما يُقال لكِ يا امرأة؟ زمن أبي غير زمنكِ غير زمن ابنتكِ وكُل شيء يتغير ثم إن غالبية العائلات التي تدعي نسباً تُركياً عثمانياً في هذه القرية لا أراهم إلا أفاقين كذبة فكل عائلة منهم أرادت أن تتمسح في ثوب الأتراك لتنال حظوة لدى الباشا والي الإقليم ليقتطعوا بمرسوم منه أراضٍ أكبر لهم قبل أن تأتي ثورة ضباط الجيش قبل أربعين سنة وتكنسهم كجرذان ميتة هم وأسيادهم الأتراك ولكن ذلك لم يعد له قيمة الآن.. اطمئني كل شيء سيكون بخير.

جاورت (ريحانة) إصبعيها السبابة والوسطى ووضعتهما على شفتيها المزمومتين وأخذت تتنفس ببطء وتفكر فيما سمعته ثم تنظر لأختها بصمت رغم زيغ محجري عينيها يميناً ويساراً تاركة الحسم النهائي لهذه المسألة لنقاش آخر مع زوجها مساءً.. ارتفع صوت الصغير (مروان) عندما أخذ يشد بيديه طرف جلباب خالته الجالسة على الأريكة أعلى منه طالباً منها حلياً مُحلى وثمرتي فاكهة كما اعتادت أن تطعمه كلما زارها صباحاً رفقة والدته.. ذاك الصبي الأشقر البالغ من العمر ست سنوات والجالس أرضاً مشغولاً بتحريك قطاراً بلاستيكياً بعدما هدهدته أمه على حِجرها لبضع دقائق حتى لا يُحدث مزيداً

من الفوضى ثم أنزلته ليلعب بالقطار لتتفرغ هي لمحادثة خالته.. انتبهت (ريحانة) لصوت الصغير وحركته المستمرة تحتها فمدت ذراعيها نحوه وانتشلته لتجلسه في حُضنِها ملبية له كل ما سيطلبه فوضع رأسه على كتفيها ثم قامت وخرجت به قاصدة تحضير الطعام له وتجهيز الفحم لزوجها وأخبرت أختها أن تفحص الأكواب الزجاجية والأباريق المذهبة التي اشترتهم لزواج ابنتها حتى تعود لتدلي لها برأيها فيهم إن كانت ستستقر عليهم أم تُعيدَهُم وتستبدلهم بأطقم أخرى.. تلك هي حياة أغلب نساء القُرى التي تنحصر غالباً في خدمة الزوج والقيام بالأعمال المنزلية لذلك فإن أكثر شيء يفتقدنه في محيطِهِنَ المحدود جداً هو المفهوم الحقيقي للحرية الشخصية فالمرأة في مجتمع ريفي كهذا أفعالها مُقيدة في كل شيء.. في الدخول والخروج.. في اختيار شريك الحياة وحتى في اختيار الملابس والأزياء.. لأن أهل الريف بطبيعتهم يؤمنون أن الفتاة ليس من حقها أن تكسر القواعد العامة بأي شكل حتى إن كان كسراً هامشياً يتعلق بلون العباءة التي ترتديها إن خرجت للسوق مثلاً أو لأي غرض أخر وإن فعلت تصبح مادة دسمة للحديث خاصة لجيرانِها العجائز الناقمات على كل شيء بعد أن حدث تغير طفيف بفعل الزمن على بعض من أساليب الحياة العامة لم يرق لهُنَ الأمر فامتعضنَ بشدة.. فزيّ النساء مثلاً لم يعد البِرْدَة واليشمك وهي ملاءة سوداء من قماش ثقيل كُن يلتحفنَ بها في مشاويرهنَ البعيدة حتى وإن كانت في ظهيرة أشد أيام الصيف حرّاً وأصبح الزي السائد عباء سوداء فضفاضة وغطاء للرأس وهذا ما اعتبرنه كبيرات السن انحلالاً وسفور لا يُقبل.. ببساطة إنه مجتمع القبيلة المحروم المُهمش فكُل شيء هُنا بدائي ليس فقط الأفكار ولكن حتى البُنى التحتية ضعيفة لا تُقارن أبداً بالخدمات المتوفرة بالمدن وكمثال حي على هذا الانسحاق الشديد فإن " طحانوف " كغيرها من القرى المصريّة لا يوجد بها صرف صحي بل يعتمدون في صرف المخلّفات على نظام البيّارات وهي خزانات تحت الأرض يجري كسحها كل فترة بواسطة سيارات الكسح المؤجرة من مجلس مرافق القرية الحكومي الذي لا يفعل موظفوه أي شيء إلا تلقي الرشاوى

لتخليص المعاملات للأهالي.. لا شك أن سّنوات الإهمال الطويلة قد تركت آثارها على الوجوه والأجساد والشخصيات ربما وعلى المباني والبيوت وجوانب أخرى كثيرة تستعصي على الحصر بالفعل إن الأمر يبدو مثيراً للاهتمام وللمشاعر أيضاً..

عادت (ريحانة) تحمل بيدها اليسرى ابن أختها وتحمل باليمنى الحليب والفاكهة بعد غيابها حوالي العشرين دقيقة أنهت فيهم ما قامت من أجله.. فوضعت الطفل وطعامه أرضاً كما كان بجوار قِطاره ثم جلست على الأريكة بمحاذاة أختها لتُكمل معها ما انقطع من ثرثرة داخل غرفة الضيافة فبادرتها سائلة:

– لما لا تسمحين باستضافة نساء القرية المتزوجات من هُنَ بمثل سِنكِ في بيتكِ ليكن لكِ صديقات يُسرينَ عنكِ وحدتكِ الطويلة.. فإن حدث لي مكروه ولم أعد موجودة فلمن ستلجئين يا (شادية)؟

أردفت الأخت الصغرى بوجل:

– أطال الله بقاءكِ يا أختاه.. أطال الله بقاءكِ لي ولبناتكِ

– اجبي أولاً لما لا تحاولين حتى؟

– إنني لا أثق فيهنَ يا (ريحانة) ولهذا الحرص سبب وعيته منذ سنوات.. لقت سمعت من إحدى معلماتي عندما كنت في المدرسة الثانوية قصة زواج إحدى قريباتها وبغض النظر عن طول الأحداث لكن إن وقع شيء مماثل لهذا هنا لقتلت صاحبة القصة منذ أول يوم لكشفها وفي النهاية أيضاً ستعلمين لماذا أمتنع عن مُصادقة النساء الغريبات

– إذن احكِ لي.. فسيدات المدن كم أمقتهنَ.. إنهنَ متحللات من كل قيمة وقانون.. بل أظن أنهنَ فاسقات

– لا تكوني صلفة أكثر مما أنتِ عليه.. بل إنهنَ أكثر حرية مني ومنكِ ولا يقلنَ مثلنا ظل رجل ولا ظل حائط بل إنهنَ ينافسنَ الرجال في كُل شيء حتى في أرزاقهم

– كل هذا غير مُجدٍ طالما أنهنَ خارجات عن العرف فالمرأة الخارجة عن العرف شيطان.. هيا أحك لي ما حدث

– قيل لي أنها سيدة اقتربت من سن الستين الآن ولكن لفهم ما جرى سأحكي لكِ من البداية.. لقد ولدت لأسرة منعزلة تماماً عن محيط جيرانها لا ترتبط معهم بأي صلة كطبيعة سكان البنايات الشاهقة متعددة الطوابق الشبيهة بالأبراج في المدن وكان لسان حال الأسر المجاورة هو ذاته أيضاً مطابقاً لنفس طريقة المعيشة ولكن بعد أن دخلت الجامعة تغير كُل شيء حيث العالم هناك شديد المرونة فالعلاقات بين الشبان والفتيات غالباً ما تكون متحررة لذلك فتحت نافذة ضيقة للتعامل مع الزملاء وقد لاحظ أحدهم أنها لا تتعامل بما يكفي من أريحية معهم فتقرب منها يوماً بعد يوم ثم وجدت نفسها تُحدثه وتهتم به وشغل حيزاً كبيراً من تفكيرها فأحبته بمرور الوقت وتعاهدا على الزواج ولكنه في أحد الأيام استدرجها لمنزله الفارغ من أفراد أسرته وارتكبا خطأً جسيماً يرتقي إلى حد الفاحشة

هُنا عقدت (ريحانة) حاجبيها وقالت بغضب:

– العاهرة.. لقد قلتُ لكِ أنهُنَ فاسقات، وها أنتِ تؤكدين كلامي.

نظرت (شادية) نحو أختها بعدم اكتراث ثم استدركت:

– ولأن ستر الله أعظم على الإنسان من ستره على نفسه فلم يعرف أحد قط بتلك القصة إلا صديقة وحيدة حكت لها تلك السيدة عما جرى ظناً منها أنها يمكن أن تساعدها لتُنتَشل من مُصابها لكن صديقتها قطعت علاقتها بها نهائياً وتأففت من الحديث معها مجدداً.. ولهذا فأنا مؤمنة تمام الإيمان أن الأنثى عدوة الأنثى.. ولكن على أي حال ما كان غير متوقعاً حقاً أن ذلك الشاب قد تقدم للزواج منها مُصححاً لخطأه مصطحباً أسرته معه فتوافقت العائلتان وتم الزواج دون أن تعلم أي من العائلتين بما حدث.. فمرت السنوات ورُزِقا بولد وبنتين وفي السنة الأخيرة لدراسة ابنها الأكبر في الجامعة وقع في حب فتاة زميلة له لكن في كُلية أخرى فذهب وأخبر أسرته بذلك وعندما سألته أمه

عن وصف تلك الفتاة وعنوان أسرتها أخبرها بما يعرفه وكانت الصاعقة أن تلك الفتاة التي يريد خطبتها هي الابنة البكر لصديقتها القديمة التي عرفت سرها وتنصلت منها.. رفضت الأم رفضاً قاطعاً ولكن ابنها أصر أن يصحبها إلى هناك وعندما سألها زوجها عن سر رفضها أخبرته أنها لا ترتاح لتلك العائلة وفقط فهو لا يعلم قصتها مع الصديقة القديمة ولكن مع إلحاح الجميع وافقت أن تذهب معهم ولأن الأقدار رياح لا ممسك لها فقد توفت أم العروس صباح نفس يوم الخطبة إثر ذبحة صدرية مفاجئة قبل أن ترى صديقتها القديمة أتيه تخطب ابنتها لابنها الأكبر.. ماتت أم العروس ومات السر معها لكن صاحبة تلك القصة لم تتعلم من خطأها فحكت مجدداً كل ما حدث لإحدى قريباتها التي هي معلمتي في الثانوية والتي بدورها حكت لي ولغيري.. أعلمتِ الآن لما لا أسمح لأي واحدة من نساء القرية أن تعقد في بيتي جلسة لنميمة معتادة؟.. تحسباً ليوم كهذا يا (ريحانة)

قد تبدو لك تلك القصة للوهلة الأولى ممجوجة وركيكة السرد جداً ذات نهاية مكشوفة وأحداث حُكيت قبل ذلك مئات المرات لكنها بالنسبة للقرويات تعد من الأشياء المبهرة فأن تختار المرأة شريكها في العلن ويمشيان معاً في الطرقات أمام الناس دون أن يكونا متزوجين لهو أمر ثوري حقاً.. كن على يقين دائم أن أهل القُرى لا يملون من نسج الحكايا عن المدن وساكنيها فهم بالنسبة لهم عالم أخر لا يستطيعون الولوج إليه فيكتفون بما يغزلونه من حكايا وما يختمر في رؤوسهم من خيالات.. إنهم بسطاء حالمون تنهمر الكلمات على أفواههم وحكاياتهم تطول وتمتد وتتوالى ولا تتوقف عن صناعة الضجيج تماماً كما تدور ماكينة ضخ المياه داخل حقولهم.. هذا وقد ظلت الأختين تتبادلان وجهات النظر حول صحة ما تعتقده (شادية) من عدمه وضرورة وجود صديقات لها يتقاسمنَ معها وحدتها المستمرة لستة أيام في الأسبوع دون انقطاع.. بينما كان رنين بوق بائع " غزل البنات " يخترق سماوات الحي ممتزجاً بصوته الخشن المُنادي قائلاً:

- " غزل البنات.. الحلاوة يا بنات "

جاعلاً كُل الصغيرات يخرجن من بيوتِهن ليصطففن بجوار عربة بائع الحلوى المرتكنة على نفس الجزء من حائط سور الساحة الخضراء التي كان (يونس) واقفاً مستنداً عليه بباطن كفه منتظراً وصول (مريم) في لقائهم الأول والذي سوف يتكرر في نفس المكان بنفس الكيفية لمرات قد لا تحصى.. هُناك تماماً بجوار تلك الأريكة التي جلس عليها الحبيبين توقفت عربة الحلوى ووقف البائع يُكرر نداءاته المتتابعة بصوته الأجش فتحلق حوله عدداً كبيراً من أطفال الحي ومن بينهم ابنة (ريحانة) الصغرى التي خرجت مهرولة لشراء تلك الحلوى الهشة الوردية المصنوعة من السُكر المُكرمل وربما سُمِت كذلك لأنها تُشبه نسيج أقمصة العَذارى المغزول من القُطن.. إنه تراتبية مثيرة للدهشة فعلاً فكُل شيء هُنا يحدث في ذات توقيت الكل شيء حتى أبراج الحمام تفرُغ وتمتلئ في نفس اللحظة وكأن الفعل الواحد يحدث في عالمين منفصلين يجمعهما باباً سحرياً.. فالبائع يُنادي على حلواه بجوار مراقد الأولياء ويقف على زنابق الحب الصغيرة النابتة على الأرض والجدران ثم يلتف حوله الصِغار حاملين معهم ثرثرة أُمهاتِهم ليمتزج كل شيء تماماً في ذات البُقعة وهذا ما يجعلنا نتساءل.. ماذا يعني كُلّ هذا؟ لماذا لا يهرب الجميع وحسب؟

لماذا لا نُفكك الأشياء ونصعد إلى شُرُفاتِنا العلوية لنرى العالم بشكل أوضح وأقل فوضوية؟

بإمكاننا أن نخرج عن كوننا جدّيين ونُعامل الحُب السالك لطُرُقِنا بهزلية منمقة تُبقينا أطفالاً بقلوب غضة بعيداً عن تلك الأراضي التي تمتزج فيها قداسة الرهبان بقباب الأولياء وبرنين صدى أبواق الباعة..

كأنّنا لسنا من هُنا ولم نجيء إلى هُنا أبداً..

يا إلهي ما الحل في تلك الحياة الكاملة من العذابات والأسئلة التي نعيشها بمعانيها الحرفية لنشق ثلجها القاسي كُل حين بينما خواص أرواحنا تتشكّل في خلفية المشهد..

كم نتمنى لو نرتد إلى طفولة رائقة لنتابع منها ما يجري في عالمنا حتى مشارف النهاية وكأننا نسكن حظيرة تشبه الجحر ونثرثر كثيراً داخلها رفقة أنفسنا ورفقة كُل ما يحيط بنا من أشياء ثم نضحك حتى تدمع أعيُننا!!

- ١٢ -

أيلول.. ذلك الشهر الذي يُشبه تلك القرية المليئة بالشيوخ المُعمرين الذين عاشوا حيوات أطول من أعمارهم الافتراضية الذين يموتون في النهاية دون هالة قداسة تُزين رؤوسهم أو أي مجد يُذكر كجنود مشاة لا يحملون إلا سيوف صدئة في حرب قوامها الفيلة فيسحقون تحت الأقدام العملاقة دون أن يُسمع لهم صوت وتتكسر سيوفهم البُنية في أيديهم وتدفن معهم دون قداسة أو مجد أيضاً.. مرت الآن سبعة شهور كاملة منذ أن تواعد (يونس) و(مريم) لأول مرة وما انفكا عن المواعدة شبه اليومية منذ ذلك الحين قط.. كُل ما يُحيط بهم يتكرر.. نفس المكان ونفس الأريكة ونفس لون غروب الشمس إلا أن أحاديثهم لا تُعاد بل تولد كخلقٍ جديد مختلفة عن ما قيل أمس وعن ما سيُقال غداً.. لقد أصبحا بصورة ما أشبه بمكعب نرد وجوهه الستة تحمل نفس الأرقام فإن رميته ألف مرة سيُعطيك نفس الرقم على كل وجه.. يبدوان وكأنهم الطريق الوحيد الواصل بين بداية العالم ونهايته.. بين بيوت الأهالي وبين أضرحة الأولياء المُقببة في الساحة الخضراء.. إن الحب المتوطن فيهما لا يمكن أن يكون حقيقياً لفرط صفاء جدرانه بل إنما هو صندوق نذور وضع بجوار منبر بقلب مسجد عتيق يرمي الناس فيه من فتحة سقفه أموالهم مرفقة برسائلهم المتضرعة لله لعل أقدارهم تُفصَل من جديد على أجساد أمانيهم النحيلة المتيبسة بلا رُقع موت أو عوز.. لا شك أن (يونس) سيواعدها اليوم أيضاً وهذا بالنسبة له سبباً كافياً لتتعاقب الفصول ولتواصل الأرض دورانها اللعين لكنه مازال نائماً على سريره كعادته رغم تجاوز عقارب الساعة للتاسعة والنصف صباحاً فبطنه المسطحة تعلو وتهبط بحركة خفيفة تكاد لا تُرصد بينما يُمدد قدميه وذراعيه في وضع صلب وكأنه (حلاج) أخر يموت مثبتاً على خشبة.. ولكن حتى يُفيق المصلوب من نومه وإلى أن يلتقيا تحت ظل حائط السور نفسه تكمن هُناك تفاصيل أُخرى لتُعاش هذا الصباح بين الأزقة الضيقة متعرجة المسالك فعلى مقربة من

بوابة منزل (آل التلمساني) تمر أربعُ فتيات لا تتجاوز أكبرهُنَ الثانية عشرة بجوار حائط لمنزل سيدة عجوز وحيدة رُسمت عليه صورة محلية (للمسيح) دون رتوش كنسية ودون اهتمام كبير بتوازن الخطوط لكن يبدو أنهنَ غير مهتمات بتفاصيل ما رُسم على الحائط الذي تجاوزنَهُ الآن بخطواتهِنَ المتسارعة التي يحد اتساعها ضيق محيط جلابيبهُنَ المُطرزة بأُطُرٍ فسفورية لامعة ولا تخلو أيضاً من بعض آثار البقع الزيتية حيث يسرنَ في خط واحد مستقيم كعربات قطار مُزركش فكل واحدة فيهِنَ تحمل كومة من أعواد البرسيم بيد وتُمسك باليد الأخرى الطرف الخلفي لجلباب صديقتها التي تسير أمامها ولا تخلو مسيرتهُنَ من بعض المحادثات حول توافر الحلوى والفطائر المحشوة تمراً في سوق الثلاثاء المقبل من عدمه أو حول ما إن كُنَ سيحظينَ بجلابيب مُلونة جديدة في العيد عوضاً عن تلك الجلابيب التي زاحمت بقع الزيت الورود المطبوعة عليها.. إنها حياة كاملة تُستعرض في دقائق لفتيات لا يملكنَ شيء يخفنَ فقدانه أكثر من عرائس مُرقعة محشوة قطن وأمنية واحدة يتيمة بأن يحصلنَ يوماً ما على كرة بلاستيكية حمراء تظل كل واحدة مِنهُنَ تركلها باتجاه الحائط لترتد إليها كما يفعل الفتيان الذين يقضون أغلب وقتهم لاهين دون أي عمل حقيقي يُذكر وكأنهنَ يُردنَ أن يُصبح العالم مكاناً أكثر

عدلاً فيمنحنَ حق اللعب كما مُنح لغيرهِنَ..

ولكن على أية حال تمر ساعات الصباح ممطوطة بعض الشيء تُشبه خطم كلب يحلم راقداً بجوار عتبة منزل صاحبه ثم تتبعها ساعات الظهيرة بمرور أكثر سلاسة وما أن تحمر السماء قليلاً قُبيل أذان العصر حتى يتجهز كل من (يونس) و(مريم) للذهاب نحو موقع لقياهم المعتاد فخطواتهم الآن متزامنة تماماً كنبضات قلوبهم ولكن قبل أن يصلا هُناك يبدو أنه قد سبقهم للمكان مجموعة من الرجال بلحى طويلة وجلاليب بيضاء قصيرة يحملون أسوِكة ومسابح ويفوح منهم عطر نفاذ مميز لا يتغير.. فبينما هُم يمرون بجوار سور الساحة الخضراء ظلوا يستغفرون الله بصوتٍ عالٍ ممتعضين دون إلقاء السلام

على ساكني أضرحة تلك الساحة النائمين تحت القباب وهذا ما يعده أغلب أهل القرية سوء أدب فج يستحقون المُعاقبة عليه فلا يعلم المريد الغاضب لِما يصبر الأولياء على سوء أدب المتسلفة معهم؟ لماذا لا ينتقمون منهم فيصبحون مجاذيب يمشون عرايا في الشوارع ويغنون بأصواتٍ متغنجة يسمعها أهل القرية جميعاً عقاباً لهم؟ في الحقيقة أنه لا توجد أي إجابات متوافرة لتلك الأسئلة المُعلقة منذ زمن لكن أكثر ما يُهم الآن هو توافق لحظة وصول الحبيبين لأريكة اللقاء مع اللحظات الأخيرة لمغادرة أولئك الرجال لحرم الساحة كُلياً.. فاقترب كُلاً من (يونس) و(مريم) لبعضهما أكثر ثم جلسا متقابلين كالعادة على تلك الأريكة المستندة لحائط سور الساحة..

ظل (يونس) ينظر دون ملل يُذكر لملامح (مريم) مُكرراً ذلك في كل مرة يجتمع بها وكأنها سحابة أرضية معبأة بالمعجزات ثم افتتح حديثه معها قائلاً:

– أتعلمين.. أنا أخشى من تصاريف الزمن كثيراً إن حدث وكنت بعيداً عنكِ يوماً ما.. نعم أخشاه بشدة حتى إنني أغتسل بذلك الخوف كل يوم.. سأشعر حينها أن الوقت يمر أسرع والشيب يغزو رأسي بفوضوية حادة.. سأكون كهلاً في السبعين بغضون خمس سنوات فقط إن غبتِ

– الغياب قدر كالولادة والموت لا يمكن لنا معرفة متى سيحدث ومتى سينتهي ولكن أستطيع أن أعدك بالبقاء معك طالما أن أسباب هذا البقاء متاحة وطالما رغبت أنت في ذلك

– أنا لا أرغب فقط ببقائك معي بل إنه في أحياناً كثيرة عندما أشتاقكِ ليلاً أقول لنفسي مَن هو ذا ألطف خلق الله الذي يأتي لي بصوتك الآن أو خطوط كفّيك يا (مريم)؟ من هذا الذي يكتب لكِ رسائل طويلة ويُذيلها بتحايا مُوحى بها من السماء فقط لأجلكِ؟ مَن يمكنه أن يُحولني إلى غيمة لتدفعني الريح نحو أشرعة نافذتك لأصب في قلبكِ كُل حب العالم.. إن أكثر ما يعلق بذهني حينما أكون مغترباً عنكِ ولو لساعات هو ذلك الشريان الأزرق المنمق الذي يخترق معصمكِ ويبدو ظاهراً

بألق ما إن تلوحي لي بيدكِ ولا أظن أنه شريانٌ عادياً يضخ دماً بل يُخيل إلي أنه الباب الثامن السري للجنة

– أما أنا فبعيداً عنك أشعر أنني أنكمش كورقة ملاحظات قديمة مُهترئة نُزعت من دفتر مجاور لنافذة لتبهت ألوان غُلافه تحت وقع الضوء ولفح الريح

– قد أكون غير مكتمل التفاصيل وقد أكون إنساناً تسكنني بعض العتمة لكن بجوارك تُصبح روحي أكثر خِفة حتى إنني أراها تُحلق بالأعلى كطائرة ورقية.. أنتِ شيء ما يُشبه أقدار الرب .. تجعلين قلبي يضخ أوراق الورد بدلاً من الدم.. أنا يا (مريم) أرضاً طيبة وأنتِ مطراً حلالاً

– أجبني يا (يونس) أتُرى الأولياء الممددين داخل أضرحتهم خلفنا يسمعون ما نقول ويُراقبوننا عن بُعد عبر ثقب ما في جدار قريب مِنا؟

حرك يده نحوها ولمس أنفها بطرف سبابته مداعباً ثم ضحك كطفل وقال:

– حسب الرواية الخاصة بعجائز القرية حول هذا الأمر فنعم فهم يفعلون ذلك

– إذن فأنا أصدق العجائز فهنَ لا يكذبنَ وربما ألتقي أحد أولياء الساحة بإحداهنَ وأخبرها.. لما لا؟

تنهد (يونس) بصوت أعلى قليلاً عن المعتاد ثم أسند ظهره على الأريكة ليقول:

– أتدرينَ أنكِ بصورة ما تُذكرينني بصندوق جدتي!

ضحكت (مريم) بلطف وظلت مبتسمة لبضع ثوانٍ ثم قالت:

– وما علاقة فتاة تُحِبُها بصندوق خشبي يا غريب الأطوار أنت

– إن ذلك الصندوق كان بالنسبة لي شيئاً سحرياً وكأنه مسكون بأرواح من عوالم أخرى.. تماماً كأنتِ.. فأنا لا أعلم إن كُنتِ حقاً تجلسين معي الآن بجسد حقيقي أم أن كل هذا محض حلم في رأسي أنا فقط؟

– بل أنا وأنت حقيقة واحدة يا (يونس) فلا تدع مثل تلك الأسئلة تُلقى في روعك مرتين

– أزداد يقينا بأنك حُلم

–بل أزدد يقيناً بحقيقة ما تراه أمامك الآن.. ولكن على أية حال فلننح ذلك كله جانباً!

ولتحكي لي ما قصة ذلك الصندوق؟

–كانت جدتي تملك صندوقاً خشبياً لم يكن أخضراً بل كان زيتوني اللون ولكن هي كانت تُسمي هذا اللون أخضر.. كان صندوقاً مستطيلاً يُفتح من الأعلى تستخدمه لتخزين الملابس الشتوية وقرط ذهبي باهت لا يُعانق أُذنيها إلا في الأعراس.. كانت سيدة تُخفي داخل عالمها عالم آخر.. اعتادت على وضع قطع الحلوى في رُكن ما داخل هذا الصندوق ولذلك كنت أتسلل لفتحه رغم ضخامته في نظر طفل بالكاد يبلغ الخامسة لأخذ حصة أكبر من حصتي الممنوحة.. لكني أبداً لم أرى ما بداخله كما تراه هي.. بل كنت أتطلع لرؤية المزيد من عجائب بلاد العابرين المُسَوَّرة بين فراغات الملابس ونتوءات الخشب.. كنت أرى شوارع عتيقة وأطفال ترتدي جلابيب زرقاء يلعبون بأحصنة صغيرة من القش وشيخ طاعن يجلس أمام بضاعته في سوق مزدحم والكثير من الدراويش.. أصبحت مؤمن بأن صندوق جدتي تسكنه الملائكة

– وهل تراني كذلك؟؟ تسكنني الملائكة؟

– بل أراكِ ملجأً أختبئ فيه مني ومن العالم في صباحات الأيام الطويلة حيث أغزل هُناك من لون عينيكِ مظلة وأنام تحتها ليس بيني وبين الجنة حينها إلا خط مرسوم على التراب متى ما أمطرت السماء انمحى أثره فدخلت

– هُناك سؤال دائماً ما تُنسيني إياه بحكاياك.. ربما هو ليس سؤالاً اعتيادياً ولكن تستطيع أن تُسميه رغبة فضولية أو استفساراً لذلك أريد طرحه عليك الآن!

– فليكن.. هاتِ ما عندكِ؟

– صِف لي العالم كما تراه؟

– سردي لأوصاف العالم ربما لن يُغير من طبائعه شيء ولكن قد يسكُب في قلبكِ جِراراً صغيرة من الوهم والألم والارتياب التي تنبُع مجاريها وتصب داخل أوردتي.. لا أنصحكِ بذلك

– كيف يُمكن لنفوسنا أن تلتصق بعضها ببعض إن لم تسمح لي بتحسس ما نُقش على أضلعك من حكايا وذكريات ومخاوف.. ألسنا مجدافين لزورق خشبي واحد كما قلت لي سابقاً؟.. يُمكنك الآن أن تتكلم وأنا سأستمع لك حتى نهايات الأيام

أخذ (يونس) نفساً عميقاً يصل لأبعد نقطة في رئتيه ومسح ببطء خاتمه الفضي الملتحف به عُنق بنصره بالطرف الأسفل من قميصه وظل يعبث به صامتاً لدقائق ثم تابع حديثه دون أن يلتفت إليها قائلاً:

– العالم بالنسبة لي ليس له شكل محدد ولكن في الغالب أتخيله كمنزل خشبي قديم بلا مزاريب في أعلى السقف من الخارج ولهذا تتسرب مياه الأمطار شتاءً إلى الداخل عبر الثقوب الصغيرة لزوايا الجدران.. يجلس بإحدى غرفه رجلاً في العقد الخامس على سرير أزرق باهت تجاوره زوجته التي لها نفس عمره تقريباً وعلى الرغم من المسافة البسيطة التي تفصلهما لكن قدميهما متجاورتين بشدة وكأنهما في حالة عِناق.. لا أدري أهذا انعكاساً لحب ما أو لتعاسة ففي بعض الحالات لا أستطيع أن أفرق بينهما.. الغرفة هادئة جداً وصوت عقارب الساعة يسد الفراغات.. الجميع هُنا تحت سيطرة تلك الآلة المُعلقة على الحائط.. ربما لأن العالم في الأساس خُلق من ترنحات بندول نحاسي مُتدلي من ساعة زجاجية كبيرة.. هذا هو العالم كما أراه يا (مريم) ولا أمتلك تفسيراً لأي شيء قلته.. هذا ما أحسست به وفقط

– أحياناً أشعر أنه على قدر أتساع قلبك ورحابته إلا أنني أرى تلالاً من عتمة نابتة فيه وما سألتك إلا لأتأكد مما رأيته.. لماذا يا (يونس)؟

– لقد أخبرتُكِ قبل قليل أنني لست إنساناً كاملاً وقد أبدو رجلاً ذو حواشي معتمة.. ولهذا فأنا أحارب عتمتي بكِ.. فقط ساعديني لأنجو!

– أعدك أن أفعل

– أُريد أن أحك لكِ أمراً قد لا يكون هذا وقته ولكني أرغب في أن تعرفيه؟

– لا بأس.. ما هو

–بعد لقاءنا الأول وفي مساء ذلك اليوم لم يكن هنالك شيء يسيطر على مُخيلتي سوى خوفي من فقدانكِ.. فقد حلمت ليلتها بأنني كنت أعبر أحد الشوارع بمفردي بينما أنت تقفين على الرصيف المقابل ولكن الغريب في الأمر أن كل شيء بدا وكأنه يسير بظهره.. كنت أرى فقط الجزء الخلفي للأشياء وأعناق الأشخاص لا وجوههم حتى لافتات الحوانيت كنت أرى جزءها الخلفي الملاصق للجدار وكأن العالم يعطيني ظهره.. فحاولت أن ألتفتُ للوراء معتقداً أنه بذلك يُمكنُني أن أرى أنوف المارة وجباههم وملامحهم ولكني لم أر أي شيء عدا رؤوس يغطيها شعر كثيف ورؤوس أخرى صلعاء دون أي تفاصيل أخرى فاستسلمت لذلك الشعور الذي وقر بداخلي بأن الكون كله صار مقلوباً مثل الجورب!!.. فحتى مداخل البيوت كانت تودي بك لمتاهات أخرى كُل شيء كان محض فوضى وظهرت الأرض دون ألوان ودون أي إشارات تدل على وجود حياة ما.. فقط خطوط متقاطعة طولاً وعرضاً ولا شيء آخر فاستيقظت وأنا أؤمن أن العالم هكذا سيبدو من دونكِ.. لذلك رجاءً كوني معي

توقف عن الكلام للحظات ثم أستدرك مُتابعاً:

– (مريم)..

– نعم

– أتحبين التذكارات؟

– ماذا تقصد؟

– أقصد أنني فكرت بمنحكِ شيئاً يُذكركِ بي حتى وإن غبت يوماً ما!!

– شيء مثل ماذا؟

أعاد (يونس) هندمة جلبابه ثم وضع يده في جيبه وأخرج خاتم خشبي صغير مصنوع من خشب البلوط مصقول الجوانب شديد اللمعان ويبدو مثل حلقة الستائر مُطلى بطبقة ذهبية يتخللها لون أزرق رائق.. ثم وضعه على راحة يده ووجهه نحوها وقال:

– شيء مثل هذا!!

تسارع خفقان قلبها بضربات غير منتظمة ما إن رأت ذلك الخاتم.. وكان يمكن حينها لأي شخص حتى وإن كان غير مُلم بطبائع الفتيات أن يرى لمعان عينيها وارتباكها التي فشلت أن تسيطر عليه فظهر جلياً في نبرات صوتها عندما قالت:

– أهو لي؟

ابتسم (يونس) ثم قال بهدوء:

–خذيه.. إنه لكِ

مدت (مريم) يدها والتقطت الخاتم من راحة يده ثم أمسكت به وظلت تتفحصه بشغف طاغٍ حتى كادت أن تُقبله ولكن خجلت أن تفعل ذلك امامه فاكتفت بارتدائه في بنصر يدها اليسرى كما طلب منها.. وبعد لحظات رفعت رأسها نحوه وقالت:

– من أين لك به؟ إنه يبدو عتيق جداً ومذهل!

– لن تصدقي قصته.. لكني سأخبركِ

– قل.. أستمع لك بإصغاء

– الخاتم لم يكن إرثاً لأسرتي أو شيء كهذا بل في الحقيقة إنني لا أعلم هوية صاحبه.. لقد رأيته مُلقى على الأرض محاذياً للضفة الشرقية لمصرف المياه الكبير الذي يُغذي قنوات الري داخل حقول القرية عندما ذهبت قاصداً السباحة في مياه المصرف كبقية الأطفال.. لقد كنت في العاشرة حين وجدته

وبشغف طفل أردت الاحتفاظ به كسر صغير لا يعلمه أحد إلا أنا ورغم مرور أحد عشر عاماً أخرى لم يعلم بأمره أحد إلا أنت الآن.. وكأنني كنت أخبئه لكِ

أردفت (مريم) مازحة:

– ألا تعتقد أنها تبدو سرقة؟

وضع (يونس) يديه على وجهه ثم هز رأسه معترضاً وقال:

– يا إلهي.. عن أي سرقة تتحدثين يا ناقصة العقل أنتِ؟ إنني فقط وجدته مُلقى على الأرض منذ سنوات دون أي إشارة لهوية صاحبه فأصبحت ببساطة مالكه الجديد وانتقلت ملكيته الآن لكِ

قهقهت (مريم) ثم قالت:

– لا عليك أنا فقط أمزح معك يا بطيء الفهم.. لكن ماذا سأقول لأمي إن رأته؟

– قولي لها إنه هدية من إحدى صديقاتك.. وأظن أنها لن تُدقق معكِ في سؤالها حول هذا الأمر لأنه في النهاية مجرد خاتم خشبي مُطلى لا أكثر.. لكن الأهم الآن.. عِديني أنه لن يُفارق يدكِ

– برغم أن كُل شيء خالٍ من الوعود آمن.. إلا أنني أعدك بذلك.. أعدك

– أتعلمين.. أشعر أنكِ ضوء الشوارع الخافت وتيارات الموسيقى الباردة في ليالي الخريف الحزينة.. أنتِ تُشبهين مدينتنا الكبيرة ذات القلب الوردي.. تتوه بداخلها نعم.. ولكنك تعشق هذا التيه.. أنتِ المدينة وأنا الريفي الغريب

– وهل يُمكن لريفي بجلباب فضفاض مثلك أن ينجو من تلك المتاهات؟ أخشى أنه يستطيع..

– إن كُنتِ تُزهرين في صدري كل صباح كشمس صغيرة وتنثرين ليلاً عطرك العتيق على ذات الجسد فكيف لي أن أفر؟ بل إنني أسأل نفسي ماذا أفعل إن اشتقتك؟ أنا بدونكِ وحيد كآخر يهودي صالح يخرج من بابل ليبحث عن مقابر أحبائه في الأرض المُقدسة.. كآخر جُندي حي بعد معركة استمرت

خمسة وخمسون عاماً لم ينتصر فيها أحد وماتت خلالها حبيبته المُعلقة في صورة قديمة على جدار الثكنة تلك الفتاة المحفورة ملامحها على جنبات الخنادق بطول الجبهة.. كم مرة يجب أن أموت حتى أولد من جديد لأقع في حُبكِ مرة أخرى؟

– افتح لي كُوة صغيرة ليلاً أعلى حائط غرفتك لعل القديسين يتشفعون لروحي للمرور عبرها فتكون لي وأكون لك ردحاً من الساعات حتى يتنفس الفجر

– سأترك لكِ مساحة كبيرة بجداري.. مساحة تكفي ليمر النيل فيها ويفيض.. مساحة تكفي لأن أكتب لكِ وله رسائل حب واعتذار.. تكفي لأحكي عنكِ للغارقين فيه الذين أصبحوا جبال زرقاء صغيرة في القاع..

امتد الحوار بينهما لساعة أو لساعات لا نعلم ولكن المؤكد بالنسبة لهما أن الوقت كان كافياً ليحتك قلب الصبي بالفتاة وينزف لوناً برتقالياً كألوان الفراشات.. إن الحب في عقيدتهما إنما هو تجسد لعبادة الله كما أرادها أن تكون

- ١٣ -

يعيش الناس في الريف برجاء عظيم ويموتون بالبؤس أو هكذا ينظر لهم أهل المُدن.. فلا يمكن لقروي أن يضبط المذياع على محطة الأغاني الغربية ويرقص هو وزوجته في الردهات الفاصلة بين غرف المنزل كما قد يفعل الأزواج الذين تخطوا الستين سكان الأحياء الراقية لكسر تلك الأُطر التي فرضتها عليهم الشيخوخة بالإضافة لهجران الأبناء لهم أيضاً فأصبحوا يقاومون الزمن الذي يسرق المزيد من أعمارهم كل يوم بالرقص!! .. ولا يمكن ان تجد على جدران بيت القروي أكثر من صورة واحدة باهتة معلقة على الحائط وفي الغالب تعود تلك الصورة لميت فالأحياء هناك لا تتوافر لهم رفاهية تجميد الوقت في صور وثبيتها على الحوائط فحياتهم ليست أكثر من طاحونة ملح كبيرة يدور قرصها الحجري في نفس المسار للأبد دون توقف لتظل كافة التفاصيل ثابتة عدا ازدياد ملوحة الأشياء.. إن أهل القُرى خُلقوا بلا صوت بلا إرادة حُرة.. إنهم منسيون يُعشش في صدورهم شيئاً من حُلم قديم بقدوم مسيح خاص بهم يمنح لحقولهم البركة ويزيد مكيال القمح لمكيالين إن لمسته يداه ثم يُحول الفلاحين لجنود ثورة ليُخلصهم من الاضطهاد والنُكران وهذا بالضبط تُخبئه قلوب أهالي " طحانوف " لكن لا يُفصَحُ عنه أبداً وإن دققت النظر في حيوات هؤلاء الناس ستجد أنه يمكن أحياناً أن تُطبق كُل قوانين الطبيعة بطرق مختلفة لتعطي ذات النتائج في الوقت عينه.. فكل شيء هُنا مختلف وفريد فحتى زفير الكهول الخارج بعد سعال طويل أكثر حرارة من غيره في أماكن أخرى لرجال بنفس السن.. حتى مصائر الخلائق لها هُنا نهايات مغايرة ولكن لترى كُل ذلك عليك أن تتسكع ليلاً في أزقتها الضيقة دون احتمالات مسبقة.. فقط راقب بصمت.. فعندما تحل مساءات الشتاء على تلك القرية وتُغرق الشوارع في عتمة بلون الغواية حينها يتصارع الوجود والعدم في ساحات كُبرى أو داخل مهدٍ خشبيٍّ يتأرجحُ فارغاً تركه رضيعٌ قد اختار حُضن أمه وطناً بديلاً.. كُلُّ

شيء يُصبح مُتاحًا.. كُلُّ شيء.. حتى الزمن يُصبح قابل للطي وتُصبح أبواب البيوت سماوات صغيرة مثبته طولياً بين حائطين.. إنها تراتُبية الأقدار التي تجعل حياة البشر أكثر مجازية عما هي عليه.. ويُمكنك أيضاً في تلك الليالي إن شققت ضباب الحارات الضيقة قبل انبلاج الفجر بقليل أن تسمع تَأَوُّهاً صادراً من ناي مشقوق الجوانب يحمله درويش يرتدي جلباب أبيض رقيق وينعكس الضوء البارد لمصباح عمود الإنارة على زجاج نظارته القديمة مستطالة العدسات بينما يتحسس الدرويش وجوه الجدران ماشياً بوهن كهل وبصيرة نابعة من روحٍ وردية ليظل مُحاذياً للجدران متحسساً لها حتى يصل أعتاب أقرب مسجد ليفترش الأرض فلا يبدو أن هناك فراغ أكبر صحاري التيه الممتدة في قلبه ولا حكمة أبلغ مما يقوله الناي.. إن ما تسمعه ليس نغماً حزيناً بل أنه سرد مقتضب لقصة الإنسان.

تمدد (رشاد الفخراني) على سريره بجوار زوجته مُرهقاً لكنه لم ينم بل راح يحدثها عن الملل الذي عاشه خلال ساعات انتظاره الطويلة للزبائن فمدخل القرية طوال اليوم كان شبه فارغ من القادمين والمغادرين حتى أن سيارات نقل الركاب ظلت في مكانها أغلب الوقت على غير العادة.. ثم وضع يده خلف رأسه وأخذ يُراقب تلك البعوضة التي تبدو وكأنها تطوف حول زجاج مصباح الغرفة الباهت وقال:

– أعتقد أن أسوأ جزء من كوننا بائسين أننا فقدنا تلك العزيمة في مكان ما على طريق رحلتنا.. لم نصبح كأي شيء حلمنا به يا (سُكَينة).. أنني أتذكر اليوم كيف كنا نرى تلك الزنابق الأرجوانية النابتة أسفل أشجار البرتقال حيث التقينا أول مرة كعمال جني ثمار باليومية في بستان الخواجة (حاييم) اليهودي أكبر تاجر فاكهة في ذلك الوقت.. نعم أتذكره جيداً لقد كان ابن عاهرة لعين يمنح الفرد الواحد من طاقم العمالة خمسة عشر قرشاً فقط مقابل العمل منذ الرابعة فجراً حتى مغيب الشمس ورغم ذلك كُنا نُحب أكثر ونؤمن أكثر ونراقب الزنابق صباح كل يوم لنرى أوجدت رقعة عشب

جديدة لتنمو عليها ام لا.. أعلم أنهم كانوا مجرد زهور ولكنهم كانوا عازمين جداً ويتحلون بالشجاعة لقد كانوا يشبهوننا كثيراً فأنا تشجعت لمطاردة تلك الفتاة التي طالما أحبت أن تكون مُطاردة أما أنتِ فكُنتِ تبدين وكأنكِ شرفة وحيدة مُعلقة في السماء مطلية بفتات النجوم ينفُذُ منها قوس قزح جديد حر يمنح العالم نهاراً صافياً دون غيوم.. ويمكنُني أن أُخبركِ الآن أن هذه هي الطريقة التي كنت أرى فيها كِلانا قبل أن يتغير كُل شيء..

فجأة توقف (رشاد) عن الحديث لالتقاط أنفاسه ثم بعد لحظات تابع ما انقطع عنه:

– يقولون التعليم يُصبح أسهل بتكرار نفس الشيء المُراد تعلمه عدة مرات.. لكن يبدو أنني لست من هذه الفئة التي تتعلم بالتكرار.. ويبدو أيضاً أنني من الذين لا يتعلمون أصلاً.. فحياتنا سُرقت بنفس الطريقة حتى الآن مئات المرات ولم نفلح أنا وأنتِ من إنقاذ ما تبقى هذا إن كان هناك ما يُمكننا إنقاذه حقاً.. أصبحنا نفهم كُل الأحداث المُحيطة بنا بشكل متأخر.. متأخر جداً.. وهذا يُذكرني بما حدث معي عندما كُنت في سن الرابعة عشرة ففي تلك الفترة أُصيب أبي بالعمى واصبحت مسؤولاً عن رعايته وعن كافة الأمور التي تخصه فكنت أستيقظ في الرابعة فجراً لأساعده في الوضوء ولألف له عمامته ثم أصطحبه للمسجد.. ظللت هكذا طوال ثلاث سنوات متتالية دون أن أتأخر لمرة واحدة عن موعد إيقاظه لصلاة الفجر ولكن ذات ليلة عندما بلغت السابعة عشر غلبني النوم للمرة الأولى وعندما استيقظت وجدتها السادسة والنصف صباحاً فهرعت إلى غرفة أبي لأعتذر منه فاقتربت من جسده الممدد على سريره وهززته بلطف وأنا أقول: " سامحني يا أبي.. لن يتكرر هذا مجدداً ".. بقيت إلى جانبه متأسفاً لخمس دقائق دون أن أعلم أنه مات.. نعم ففي المرة الوحيدة التي تأخرت فيها عن إيقاظ أبي كان قد مات قبل أن أعتذر له.. وهكذا أصبحت تسير حياتي على ذات النمط الرتيب تأخير ثم تدارك ثم اعتذار لا يُفيد وهذا أيضاً ما حدث لي ولكِ ولم نعد قادرين حتى على الاعتذار لأنفسنا لأننا أدركنا عدم جدوى هذا الاعتذار.

ظل الزوج السكير المتحسر يتحدث لخمسة عشر دقيقة متصلة أو ربما أكثر لكن زوجته لم تتبادل معه أطراف الحديث ولم تسأله عن أي تفاصيل بل أدارت له ظهرها ونامت بينما هو استمر في سرده حتى غلبه النعاس فاعتدل واستراح على أحد جنبيه لاصقاً ظهره بها ونام هو أيضاً.. مرت ساعات المساء رتيبة إلى أن أشرق صباح اليوم التالي فأنجز حينها كافة تجهيزاته على عجل حيث كان متواجداً بمدخل القرية بجوار سيارات الأجرة في تمام العاشرة صباحاً كما اعتاد فأوقف عربته وجلس على كرسيه في انتظار الزبائن دون أن يُطيل أحاديثه الجانبية مع السائقين ونُدُل المقهى المتواجد معهم في نفس البقعة تقريباً منذ سنوات حيث إن الجميع يدور في فلك هذا المدخل وكأنه كون آخر صغير خاص بهم فهم يُضاربون على بضائعهم يومياً أمام المغادرين صباحاً والواصلين ليلاً دون أن تخذلهم مضارباتهم تلك لمرة واحدة فالتجارة ها هُنا مضمونة العوائد سهلة التداول.. وفي حدود الحادية عشر ظهراً اقترب أحد شباب القرية المغادرين نحو المدينة من عربة (رشاد الفخراني) ينتوي شراء كمية متوسطة تكفي لشخص واحد من " حب العزيز " للتسلية قبل ركوب أول سيارة متجهة نحو الجامعة المركزية حيث كان مقصده.. اقترب الشاب أكثر ثم مد يده نحو ذاك العجوز حاملاً ورقة بقيمة جنيه واحد طالباً بها بعضاً مما يبيعه فأخذها منه واقتطع نصف ورقة من كومة الجرائد القديمة الموضوعة على جانب العربة والتي يستخدمها في تعبئة بضاعته ثم لف تلك الورقة على شكل مخروط ووضع له فيه بعضاً من " حب العزيز " بما يوازي جنيهاً مصرياً واحداً وما إن استلمه الشاب منه حتى هم بالمغادرة لكن (رشاد) نظر للجنيه الذي بحوزته ثم استوقف الشاب سائلاً:

– ألا يبدو لك أن هذا الجنيه قديم بعض الشيء ومهترئ؟

فرد الشاب بلطف:

– نعم هو كذلك ولكنه مازال قابلاً للصرف

– إذن اقترب لأريك شيء كُتب عليه لا أستطيع قراءته

التف الشاب حول العربة وليصبح بجواره تماماً فرفع له الجنيه وقال:

– دقق معي النظر أهذا حرف النون وبجواره حرف السين؟

– بلى صحيح!

– وماذا كُتب تحتهما؟

أمال الشاب رأسه ليرى ما كُتب على الجنيه بوضوح ليقول بعد لحظات:

– ذكرى الحب الخالدة!

فضحك (رشاد) وأردف ساخراً:

– من يا تُرى فرط في هذا الجنيه " نون " أم " سين "؟

فبادله الشاب الضحك وقال:

– لا علم لي.. إننا أنفسنا مثل السحب نصغر ونكبر ثم نمضي ونتلاشى كأن لم يكن لنا وجود بينما كُل شيء حولنا يظل ثابتاً لا يتغير وأنت تعلم أنه لا أحد يبقى لأحد.. لا تشغل بالك كثيراً.

هز العجوز رأسه موافقاً على كلامه فأكمل الشاب حديثه مستدركاً:

– أتعلم يا عم (رشاد) نحن جيدون للغاية إن تعلق الأمر بالفراق لأننا بطبيعتنا لا نحترم ما قد نقتطعه من عهود للشركاء ولا نُقدر جمال الأشياء مهما كانت بسيطة.. لا أخفيك سراً أنني دائم التحديق في السماء ولهذا فإن الناس ينظرون لي ويسألونني إلى ماذا تنظر؟ فأقول لهم أنظر إلى السماء أليست جميلة؟ فيرفعون رؤوسهم لأعلى ثم ينظرون لها لثوانٍ ولكن نظراتهم لا تطول لأنهم لا يجدون شيئاً خارقاً يستحق التأمل وتعود عيونهم للتركيز على الأرض مجدداً ويعودون للانشغال بالحديث والشكوى فأشعر بالشفقة عليهم لأنهم عاجزون عن الإحساس بالجمال لأنهم اعتادوا على مسميات أخرى له منذ أن ولدوا.. إن الناس عادة ما يعتقدون أنهم لابد أن يدفعوا أموالا طائلة حتى يحصلون على المتعة أو على الحب.. يدفعون كل شيء ذا قيمة حقيقية من أجل السراب الذي يُخيل إليهم أنه الحياة

ويتجاهلون أن هناك مصادر للمتعة مجانية وموجودة فوق رؤوسهم طول الوقت.. لذلك لا داعي أن نسأل أي الطرفين محق في تركه للآخر.

أنهى الشاب كلامه ثم رتب على كتفه وأستأذن منه ليلحق بإحدى السيارات قبل مغادرتها فسمح له وصافحه ثم مضت ساعات الظهيرة متسارعة ليتعاقب الزبائن على عربته ولكنه رغم كل ذلك الزحام ظل يفكر أي الحرفين هو من فرط أولاً؟

وما لبث أن زم شفتيه بحركة بطيئة تنم عن خيبة الأمل أكثر من أي شيء آخر ثم عاد صوته يصدح من جديد منادياً:

– حب العزيز يا لوز.. سُكر يا لوز

إن حركة العامة المكتظة في حيز مدخل القرية تبدو وكأنها رقصة باردة لا أغاني فيها إلا أنهم يهزون رؤوسهم يميناً ويساراً متنشين بإيقاع غير منتظم ولكن الوضع يختلف بعض الشيء في وسطها حيث الشوارع شبه فارغة إلا من بعض الباعة الغرباء الذين لم يُسمح لهم بحجز مكان لهم بساحة مدخلها وفي تلك الأثناء أخذت تمتد خُطى (زينب أم بيومي) حارسة بوابة الساحة الخضراء متجهة نحو " الفاخورة " تلك المنطقة الأشبه بمصنع صغير للفخار وكلما اقتربت (زينب) منها ازداد نز العرق من جبهتها كما هو الحال للعمال بالداخل حيث الجميع يغرق في العرق المالح ولكن يبدو أن أجساد هؤلاء العمال قد استجابت لنز كل هذا العرق يومياً دون أن تجف أو تتشقق وأما إن نظرت من الأعلى لتلك المنطقة ستجدها أشبه بمربع غير مسقوف انحرفت زواياه قليلاً يبدو العاملين فيه كخلية نمل لا تكف عن الضجيج أو الحركة وذلك لأن طبيعة صناعتهم شاقة تشبه إلى حد ما حياة الحدادين داخل ورشهم فحتى يتم إنتاج أي شكل من أشكال الفخار لابد من إعداد الطين أولاً ثم وضعه بشكل أفقي بجوار الصانع ثم يتم وضع قطعة من الطين فوق دولاب التشكيل ثم ترى أحد العمال يقوم بوضع قدمه أسفل الدولاب ويده على قطعة الطين كي يتم تشكيلها ومن ثم عقب الانتهاء من رسمها

على أكمل وجه يقوم بوضعها في مكان مشمس كي تتماسك كقالب واحد ثم يضعها داخل " الكوشة " وهي المكان المخصص لوضع الأشكال الفخارية المصنوعة من الطين اللبن لتُشعل بعد ذلك النيران بداخلها لأربع ساعات متتالية ويتم تغطيتها من الأعلى بقطع من الفخار المكسور كي تكتسب قوالب الفخار الموضوعة داخلها اللون الأحمر من الأعلى والأسفل وفي الغالب فإن أكثر الأنية إنتاجاً هو " الزير " وهو قدر كبير يوضع فيه الحليب الحامض ليبقى بارداً دون أن يفسد كما أنه يستخدم أيضاً لتخزين وتبريد مياه الشرب وهذا بالضبط ما أتت من أجله (أم بيومي).. فعلى الرغم من أنها أرملة بدينة ثقيلة الحركة في نهاية العقد الرابع من عُمرِها تركها ابنها الوحيد ليسافر للعمل في " بلاد الغربة " منذ تسع سنوات كما تقول هي دائماً دون أن يصلها عنه أي خبر فوجدت نفسها مضطرة للعيش على هبات زوار الأضرحة إلا أنها لا تُقصر أبداً في خدمة الساحة وأوليائها فقد وجدت أثناء تنظيفها صباحاً بعض أزيار الماء والحليب الموضوعة لخدمة المُريدين في الجنبات قد كُسرت وسال ما تحويه على الأرض فهرعت لجلب أزيار أخرى جديدة فهي تحرص على أنه لا يجب أن يبقى شيئاً مكسوراً أو خرباً داخل الساحة ولذلك فعند دخولها للفاخورة أخذت تبحث في وجوه العمال عن (مُحمد) أو أخيه الأكبر (علي) فهما أكثرهم تمرساً وحرفية وما أن مضت بضع دقائق حتى شاهدت أحدهم يعكف على تشكيل قدر طبخ وتتحرك قدمه آلياً أسفل الدولاب وأما الآخر فكان منهمكاً في عجن الطين بقدميه فاقتربت منهما ثم قالت:

– كُسرت أزيار الحليب والماء صباحاً في ساحة أبوكم الحاج (أحمد) وأريد منكم أزياراً أخرى جديدة لتركيبها في الساحة قبل أذان العصر.

هز (علي) الجالس أمام دولاب التشكيل رأسه مستجيباً ثم أردف:

– توكلي على الله أنتِ الآن يا خالة وسأقوم أنا و(محمد) بتبديل ما كُسر.. لكن أخبريني كم عددها؟

استدركت (زينب) حديثها مشددة:

-ثلاثة أزيار فقط.. لكن لا تتأخر فمازالت أمامك ساعة ونصف قبل أذان العصر فأنا لن أغلق بوابة الساحة قبل تبديل كافة الأزيار أم تريد أن تحل علينا نقمة أولياء الله الصالحين يا (علي)؟

فرد عليها مؤكداً:

- أقسم لك أننا ستتبعكِ بعد قليل لكن دعينا ننهي تشكيل هذا القدر أولاً.

استدارت (أم بيومي) عائدة لمكان خدمتها ثم أنكفئ (علي) أمام الدولاب ليُنهي ما بدأه بينما يقف أخيه وسط كومة من التراب يصب عليها الماء ويحرك قدميه ليستمر في العجن.. وما إن انضبطت عقارب الساعة مشيرة إلى الثالثة عصراً قُبيل الأذان بخمسة عشر دقيقة إذ بالأخوين يطرقان باب الساحة الموارب ثم يُشار لهما بالدخول حاملين الأزيار الجديدة التي سيُركبانها في حوامل حديدية دون أجر فلا أحد يقدم شيئاً لأولياء الساحة بمقابل ولكن كل شيء هنا لا يعدو كونه مجرد هبات حتى الطلاء الأخضر المُزين به السور كان هبة من أحد النقاشين ولم يتقاض عليه أي أجر فكل من يقدم خدماته لأولياء الساحة يبتغي شفاعتهم لا أكثر حسب الموروث الريفي المتعارف وخاصة إن كانت هذه الخدمة مقدمة لضريح الحاج (أحمد) صاحب أكبر أضرحة الساحة ذو القبة السداسية فهو ولي صالح صاحب كرامات باهرة شاعت بين أهالي القرية قديماً وعلى الرغم من أنه لا أحد رآه ولا حتى المعمرين منهم حيث عاش ذاك الولي قبل ستمائة عام لكنه مازال حاضراً في الذواكر الشعبية لسكان القرية ففي ذكرى مولده الذي يستمر الاحتفال به قرابة العشرة أيام يحرص الأهالي على طهي اللحم وتفريقه على الجموع ثم خلط العسل والبرتقال في قدور نحاسية كبيرة لصنع نوعاً محلياً من الشراب المُحلى لتوزيعه ليلاً على الأحباء المريدين ومما يتناقله الناس عن كرامات ذلك الولي أن امرأة عجوز لها أربعة بنات كن يتقوتنَ من غزلِهن حيث يبعنَ الصوف المغزول من الجمعة إلى الجمعة فأخذت أمهنَ الغزل ولفته في قطعة قماش حمراء ومضت إلى السوق لتبيعه وتشتري بنصف ثمنه قُطناً لحشو وسائد آسرتهم ولتشتري بنصفه الأخر ما يتقوتنَ به وبينما هي تسير في طريقها إذا بغراب ينقض

عليها ويخطف منها صرة الغزل ثم أرتفع وطار في الهواء فلما رأت العجوز ذلك وقع مغشياً عليها فأجتمع الناس حولها وأفاقوها ثم أخذت تبكي وتحدثهم قائلة:

– ماذا أصنع بأيتامي وقد أهلكهم الفقر والجوع؟

فدلها الناس على بيت الحاج (أحمد) قائلين:

– اسأليه الدعاء فإن الله يزيل بكِ

فلما جاءت إلى باب بيته فطرقته ثم سُمح لها بالدخول فأخذت تبكي مجدداً وأخبرته بما جرى لها مع الطائر ثم سألته الدعاء فترحم ودعا الله أن ييسر لها أمرها فجلست المرأة تنتظر الفرج أمام عتبة الدار حتى جن الليل وفي قلبها من جوع بناتها شدة وضيق لكن بعد أن خُتمت صلاة العشاء إذا برجل يقترب من بوابة منزل الولي ويحمل في يده صرة حمراء وما إن رأته العجوز حتى تهللت ودخلت على الحاج (أحمد) لتقبل يديه وقدميه بينما الرجل دخل معها بعد أن استأذن دون أن يعلم ما قصتها فلما أقبل عليه قال:

– أن لي أمراً عجيباً يا سيدي.. إنني تاجر أقمشة أسافر على بعيري بين القرى لجمع أندر القطع وأجودها وبينما أنا في طريقي نحو قريتكم إذا بغراب ألقى عليّ صرة حمراء فيها غزل والله لم أرى أفضل منه حياكة وما لبثت أن سمعت هاتفاً من السماء يقول لي:

– اذهب بالصرة لمنزل (أحمد بن سليمان)

ظل هذا الهاتف يتكرر دون انقطاع حتى اجتزت حدود قريتكم فشرعت من فوري بالحبس عن منزلكم فدلني الناس عليه وها أنا هُنا الآن ألتمس منك أن تبيعني هذه الصرة بخمسمائة دينار..

فعندما سمع الولي ذلك بكى وشكر الله ثم أخذ منه المال وصرفه لحاله بينما ظلت السيدة العجوز مشدوهة مما رأت تكاد تفقد قدرتها على النُطق فناولها الخمسمائة دينار وهذا أكثر من ثمن الغزل بمائة مرة فهرولت العجوز نحو منزلها وأخبرت بناتها بما جرى فجئن إلى بيت

السيد (أحمد) فقبلنَ يده وتبركن به..

إن تلك الساحة نُسج حولها آلاف الحكايا لأولياء دفنوا في أضرحتها المثبتة في وعي الأهالي بمسامير أشد صلابة من مسامير صليب يوم الجمعة العظيمة بجلجثة في أورشليم ولهذا فعلى قدر تبرك الناس بها على قدر خوفهم منها.. أوشك أذان العصر أن يشق عنان السماء صادحة به مكبرات مآذن المسجد المجاور للساحة ولذلك اصطحبت (زينب) الأخوين لوضع الأزيار في أماكنهم حيث وضعوا واحداً بجوار الجانب الشرقي للسور وأخر في وسط الساحة تماماً وأما الأخير فقد كان موضعه داخل ضريح (الحاج أحمد) نفسه ولضيق مساحة الباب اكتفى الأخوان فقط بالدخول لتبديل الزير المكسور بأخر جديد.. الضريح معتم وبارد كأي مقبرة مهجورة عدا رائحة البخور والغطاء الأخضر الفاقع المزين به هيكل القبر وعمامة الولي المثبتة فوقه فكل شيء طبيعي فلا يوجد هُنا ملائكة تسبح أو أي أمر سحري آخر بل أنه في الحقيقة تزداد الرؤية صعوبة كلما قطع الأخوين مسافة أعمق داخل الضريح لكن مع شعاع الضوء الخافت جداً المتسلل من الخارج يمكنهما تحسس الخطوات نحو الحامل الحديدي لوضع الزير عليه وما إن انتهيا إذا بقمر صغير مكتمل يبزغ في السقف داخل تجويف القبة فأنار الضريح بأكمله حتى ظن كُل من (علي) و(محمد) أنهما قد فقدا نظرهما لشدة النور المنبثق.. لقد كان قمراً حقيقياً مكتملاً بزغ في تجويف قبة الضريح بينما كانت الشمس لا تزال متوسطة كبد السماء أو هكذا هُيِئَ لهما.. ولجلال ما رأوه لم يُغش عليهما بل تجمدا في مكانيهما إلى أن سرت الدماء في جسديهما مجدداً للحظات فانطلقا مهرولين خارج الضريح يصرخان بصوت سُمع على بُعد ميل:

– القمر بزغ في ضريح أبوكم الحاج (أحمد) يا بلد!!

ظل كل منهما يركض إلى غير وجهة معلومة ويردد تلك الجملة عدد لا يحصى من المرات وكأنهما ممسوسين فلا يتوقفا عن الركض ولا عن الصراخ حتى تجمهر أهالي القرية أمام الساحة مطالبين برؤية ما أُشيع فاندفعوا كسيل عرم داخلها ومنهم من أقتحم الضريح وفتش عن ذلك القمر ومنهم من ظل

يتمسح بحوائط القبر طلباً للبركة بينما (زينب) لا تمتلك أي تفسير لما جرى فلا هي رأت ما حدث للأخوين بالداخل ولا هي تستطيع أن تمنع تلك حشود من اقتحام الساحة.. انتشر الأمر حتى وصل لمسامع (يونس) و(مريم) التي نظرت للخاتم الملتحف بأصبعها وقالت:

– دائماً أؤمن بكلام العجائز وإن كان قد ظهر لأحدهم قمراً داخل الضريح فما يمنع أولئك الأولياء عن مراقبة الواصلين والمغادرين للساحة وسماع أدق تفاصيل ما يقولونه؟.. أخبرت (يونس) بذلك لكنه لم يصدق.. لم يصدق.

سادت القرية حالة من الهِياج غير المبرر لسبعة أيام متتالية وانطلقت نحو الضريح قوافل الحجيج من القرى المحيطة فكُل من سمع بالقصة أتى مهرولاً طالباً للشفاعة أو للشفاء أو للبركة فحتى (رشاد الفخراني) ترك عربته صباح أحد الأيام في صحن بيته وذهب مبكراً للساحة الخضراء مُرتجياً من الأولياء أن يتشفعوا له ليعفيه الله من ابتلاءه كونه مدمناً للخمر.. اكتظت الساحة بهدايا وهبات وذبائح لا حصر لها اقتسمها الفقراء والدراويش فيما بينهم وأُغدقت على (أم بيومي) أموالاً تكفيها عاماً كاملاً وأكثر وكل هذا من أجل شيء واحد أن يحصل كل شخص من هؤلاء المُريدين على معجزته الخاصة التي تحول حياته لأفضل وضعية ممكنة.. فمنهم من يحلم برزق أوسع ومنهم من يحلم بالذرية ومنهم من يحلم بالسلطة.. إن النفس البشرية في حد ذاتها عالم عجيب من المتناقضات فهي جشعة ولكنها تتظاهر بالتقوى في نفس الوقت ويمكنها أن تصدق اي شيء إن كان سيفي إيمانها به بتحقيق ما تصبو إليه..

وخلال ذلك الأسبوع عجز كُلاً من (يونس) و(مريم) عن لقاء بعضهما لتمترس الناس أمام سور الساحة من كُل جهة لكنهما ظلا يراقبان ما يحدث متشوقان لليوم الذي يلتقيان فيه ليحكي كل منهما للآخر عن أغرب ما رأى

- ١٤ -

شعر (يونس) خلال تلك الأيام بدائرة من الضوء الوهاج تسلط عليه وفيما يبدو تتملكه فجأةً قوة ما جعلته يقفز من وراء ستار نفسه وينكمش.. أصبح الوقت لديه أطول وأنصب في جوفه صمت هائل ولا أحد يعلم كم من الوقت سيمكث على هذه الوضعيّة.. ينبعث صوتُها داخله كلحن كمنجات ناعم فيبدأ قلبه في بالنبض المتسارع كتفتح وردة ثم ينتصب واقفاً ويمشي بضعَ خطوات ويتوقف ثانية وظله يتبعه.. يقبل صورتها المثبتة على جدار كفيه.. يلعن قلبه ويهديه الريحَ ثم يسعى خلفه بخطى متعثرة لا تخلو من التنهد.. لقد تركته يصلي أسبوعاً كاملاً عكس أتجاه القبلة دون أن تُصحح له الوجهة لقد ظل يتمنّى لو كانت معه لكنه يعجز عن فعل أي شيء سوى التمني فتتحول موسيقى الكمنجات بداخله إلى قرع طبول ويعود إلى رشده ليسترجع المكان والزمان ووتيرة الأحداث ثم يحاول التحرك من جديد في محاولة تبدو أنها تجربة لتعلم المشي.. إنه يجد صعوبة في التواصل مع أعضائه فيصرخ بأعلى صوته ويفشل في سماع نفسه ليصم أذنيه ويرتجف ثم يفقد توازنه مِراراً ويسقط أرضاً لتحبس أنفاسه ويتوقّف قرع الطبول حوله فجأة للحظات.. لذلك فحتى الصراخ لن يفعله دونها.. لقد قرر أنه لن يصرخ وإنْ خُزنت في قلبه كل أحزان الدنيا وكل اشتياق خلقه الرب في قلوب المحبين إن وجع غيابها يُشعره وكأنه يُجر بحبل يمتدّ من عنقه إلى كل الأحياء المدمرة بداخله لقد قرر أن يصمتَ ولو بقي إلى آخرِ العمر يشرب وجعه ويجتره في نفس الكأس.. إنه أحياناً كثيرة يغفو داخل غرفته فوق كرسيه الخشبي ليرى أبعاد جديدة للمكان وللزمن وليرى أيضاً درجات أخرى من الألوان فيجد نفسه يرفع ذراعيه في الهواء كأنه يجيب على كُل التساؤلات الحرجة التي طُرحت عليه يوماً بحركة يائسة حزينة مفهومة على أنها إذاناً بانتهاء كل شيء ثم بدايته في ذات اللحظة ثم يُنزل ذراعيه على الكرسي ويدفع برأسه إلى الخلف غير منتظر لمشاهدة أي تعبير يبدر من أي شيء حوله أو

حتى ردة فعل صغيرة أو أي إشارة للامتنان أو هزة رأس تعبر عن الاقتناع.. كل شيء حوله صامت وكأن محيطه بالكامل نائم فعلاً حتى أنه بدأ يسمع صوت شخير معدني يتصاعد كدخان الأراجيل من اللا مكان منذراً بنهاية الحكاية التي بدأت من غفوته فوق كرسيه المجاور للنافذة وصولاً للخاتِمة عند الطرف الأخر من الغرفة ولكن قبل أن يُفيق من هذا كُله بدا له وكأن يداً ناعمة لينة لأنثى تخرج من الحائط حاملة لفافة أرجوانية معقودة من الحرير وأخذت تحلُ عُقدتها بأصابع مُتعجلة مطلية بالحمرة ثم أمسكت بطرفها ورمتها في الهواء لتسقط بعد ذلك جاعلة تلك اللفافة تنبسط إلى آخرها فتسقط منها زجاجة صغيرة شفافة تحوي بقايا الماء الذي خُلق منه الكون وعيني (مريم).. ليُحدث سقوطها صوتاً يفتح على إثره عينيه وهو مازال في غفوته ليرى الزجاجة متروكة وحيدة على الأرض تنتظر أحد ما ليلتقطها فيظل يسأل نفسه هل سيقوم بانتشالها ثم يعود لغفوته التي لم يُفيق منها في الأصل حتى الآن أم أن تلك اليد الخارجة من الحائط ستعيد لملمة اللفافة وما سقط منها ثم تعقدها من جديد وتغادر عائد إلى عالم ما وراء الحائط الذي أتت منه؟.. ظلت الأفكار تراوده حول هذا الأمر ولكنه بالتوازي مع كل تلك الخيالات التي تحدث أمامه ومع كل هذا الجنون المنظم جداً لم يشعر قط برغبة مماثلة في الاستسلام أكثر للنوم على كرسيه الخشبي وداخل غرفته التي تُشبه حصن ذو برج واحد للمراقبة فوق تل..

إن العالم لم يعد يمثل له سوى ثقب صغير في خشب أُطر النافذة المجاورة له يطل منه على حديقة سحرية يأتيه منها صوت فتاته ناعياً باكياً وكأنه بوق الدينونة وأحياناً يسمعه ضاحكاً رقراقاً وكأنه أزيز فتح بوابات الجنة.. إنها تتمثل له (كبلقيس) الأولى الخارجة من قصور (سليمان) بثوب قصير وخصر مشدود وعينان تلمعان ليبجل حضورها بكل حواسه في يقظته ونومه وما بينهما لتتسع في كل مرة رحابة صدره وتطرق مسامعه صهيل خيول طافرة وتغلي دماؤه لتفور مع كل دقة قلب مترعة بمائة ألف لذة.. وعندما يحل المساء تخرج الجموع نحو زيارة ليلة أخيرة للساحة وللضريح بينما هو

يجلس أمام عتبة منزله يأخذ بعض التراب ويضعه على كفه فتنبت منه شجرة صفصاف عالية عُلقت في غصونها ثلاثة مفاتيح لثلاثة أبواب مجهولة كُل مُفتاح منهم يعبر به من بوابة سماوية ليطل على نافذتها من الأعلى.. ليراقبها بصمت لأنه مهما حاول مناداتها فلن تسمعه.. إنه لا يستطيع التفكير بأي شيء يحبه فقد حاول اعتصار بضع قطرات من البهجة ينتعش بها من قلقه وحزنه لكنه لم يفلح فأصبح يرى كل ما يُحيطه بلونين فقط الأبيض والأسود وأنتفت البقية بطريقة ما.. وخلال تلك الأيام السبعة الجافة جداً كشمس الصحراء لم يفعل شيء سوى خروجه من غرفته ثم عودته إليها مرة أخرى ليستلقي على سريره المتعِب قرب الجدار الهزيل ويُصغي إلى الريح والمطر وأغاني الموتى القادمة من طريق المقابر الموازي للساحة الخضراء حيث عُلقَ قلبه على الأهلة النحاسية للقباب.. أصبح يُنادي الله حتي ينتهي كل هذا

وحتى يدعوه شيء أشبه بالنوم والعزاء..

استلقى بظهره على السرير وأخذ يتأمل في السقف وهو يقول:

– لو كنت يا (مريم) أستطيع أن أُخرج شعوري الحقيقي وأبكي في صدر أمي شوقاً لكِ ثم أُخبرها عنك لكنت أكثر راحة.. لو أني لا أبتسم لأحد وأُخبر جميع من حولي أنني حزين جداً ولا أستطيع التحدث معهم ولا أستطيع التظاهر أن كل شيء على ما يرام لكنت أكثر راحة.. لكن هذا التظاهر زادني ضغطاً وقلقاً وبؤساً، خاصةً معكِ عندما اتحدث معكِ ليلاً في مناماتي.. لا أريد أن أنفركِ مني لكن أنا مجبر على ذلك فشقائي الداخلي وشقاء العالم يُجبرني على النحيب عندما تغيبين لساعة فما بال غيباك لأيام..

إنه يُحبها للدرجة التي قد تجعله يحمل صليبه ويسير به في شوارع القُدس مضحياً بنفسه كمسيح جديد ليمنح بدمه المسفوك خلاصاً لكل المحبين ولتبني كنائس جديدة فوق ضلوعهم ولتُقرع أجراس الآحاد دون كهنوت أو صلوات أو رجاء.. وليزحف (يهوذا) نحو أنجيله فيقلب صفحاتِه ثم يقطع

بعضَها ويضعها في فمه ويلوكها ثمّ يبتلعها ويختفي مجدداً تاركًا كتابه على الأرض بينما سيجده البعض مشنوقاً معلقاً بحبل كما كان بالأمس يتدلى جسده أسفل شجرة الموت تلك لتتحرك عينيه نحو المارة بسخرية عظيمة وكأنه يقول:

– أنا لا أستطيع أن ألوكَ كلّ الأناجيل ولا يُمكنني الوشاية على كُل مسيح يظهر لكنك قد تفعل ذلك لتتخلص من الألم.. أما أنا فسأظل متأرجحاً ها هُنا لأبدو في عيون الناس كشيطان بينما في عالم آخر يتشفعون بي كقديس.. ثم يضحك.

- ١٥ -

أنهى (رجب الملواني) مهامه الوظيفية في مقر عمله بإحدى المؤسسات الحكومية التابعة لوزارة الأوقاف والشؤون الدينية والساعة الآن تُشير إلى الثانية ظُهراً موعد خروج الموظفين الحكوميين المُعتاد يومياً فخرج (رجب) مع زملائه مُتجهاً نحو محطة الحافلات الجديدة التي أُنشئت بالقرب من مقر عملهم والتي تُسير رحلات خاصة لكافة القُرى المُحيطة بزمام المدينة ومنها " طحانوف " وعلى الرغم من ارتفاع أسعار التذاكر إلا أنها أصبحت تُنافس سيارات النقل الأجرة المُسيرة أيضاً على تلك الخطوط نظراً لنظافتها ومحدودية عدد الركاب عكس السيارات الأخرى فلا عدد معين للركاب في الرحلة الواحدة من وإلى المدينة فالسائق يرغمك على الإفساح جانباً ليجلس بجوارك زبون أخر بالقوة وإن تسبب لك ذلك في ضيق تنفس أو حتى تقيأت بسبب التصاق الأجساد وروائح العرق المتفشية بين الركاب خاصة عندما يعودون من أشغالهم في نهاية ساعات الظهيرة ورغم أنها سيارات تفتقر للمعايير الأدمية وتصلح أكثر لنقل البهائم لكنها تظل الوسيلة الأرخص بالنسبة لقرويين يعملون في المدينة ويريدون توفير أكبر قدر ممكن من راتبهم الضئيل بالأساس.. لكن يبدو أن الشيخ (رجب) كما يُلقبه أهالي القرية لا يهتم بارتفاع أسعار تذاكر الحافلات طالما أنها تضمن له الراحة التامة أثناء سفره فهو رجل في نهاية العقد الرابع من عمره يُعرف بين الأهالي بالبذخ الشديد المقترن بكرم شديد أيضاً وقد يبدو لك الأمر منطقياً عندما تعلم أنه لم يُنجب ذُرية يُعدل من أجلها مسارات إنفاقه رغم أنه متزوج من سيدة تصغره بخمسة أعوام تُدعى (سوزان) إلا أنهما لم يُرزقا بأطفال ولحبه الشديد لزوجته رفض مراراً الزواج بأخرى واكتفى بها وظن أن الانخراط في العمل الحكومي ثم العمل الدعوي داخل القرية سيملأ وقته لكن الأمور لم تسر وفق خطته حيث كانت زوجته تعمل كمُعلمة رياضيات للمرحلة الابتدائية بمدرسة القرية ولكن أقعدها المرض حيث أصيبت بعدوى فيروسية

تسببت لها بتليف حاد في الكبد فشلت معه كُل الأدوية المضادة ويخشى الأطباء إجراء عملية لزراعة كبد جديد تسبب لها مضاعفات قد تودي بحياتها نظراً لأن التحاليل المخبرية تنبئ باحتمالية مرتفعة لعدم قبول جسدها لزراعة كبد جديد وأصبحت بصورة ما في عِداد الموتى ولو جزئياً لكنها تقضي أيامها مستعينة بالأدوية المثبطة للنشاط الفيروسي لتقلل من شدة انتشاره فأصبح الآن ملازماً لها ومقيماً على خدمتها وأضحى يقوم بأغلبية الأعمال المنزلية حتى يوفر لها الراحة الكافية أملاً في ورود أنباء جديدة من معامل التحليل تسمح لهم بإجراء العملية الجراحية فكل شيء متوقف تماماً على مدى الجاهزية التي قد تنبئ بها التحاليل الخاصة بعينات دمها المأخوذة بشكل شهري وعلى هذا الأمل يعيش الزوجان والأطباء يشاركونهم أيضاً نفس التطلع والرغبة.. تقطع الحافلة طريقها نحو القرية بسرعة وانسيابية فائقة وما أن تقترب من مدخلها حتى تتوقف لينزل الركاب بشكل متزامن عن طريق بابين في المقدمة والمؤخرة يفتحان في الوقت نفسه لتسهيل عملية الخروج أثناء التوقف بمحطات الوصول وما أن تطأ قدمه الأرض حتى يشرع في مد خطاه نحو منزله المقابل للكنيسة حيث كان يقف (يونس) مستنداً على جداره متأملاً خروج المُصلين منها صباح أيام الآحاد.. وخلال سيره يتوقف لدقائق لشراء بعض المستلزمات المنزلية من خضروات ولحوم وما شابه ثم يستكمل طريقه بنفس السرعة إلى أن يصل وفي غالب الأحيان قد يجد بعض الصبية يلعبون أسفل نافذة زوجته المطلة على الشارع والتي قد تكون جالسة بالأعلى تُراقبهم مستأنسة بهم خلال ساعات غياب زوجها والطريف أنه وفي كل مرة ينهر أولئك الصبية ويتوعدهم إن أعادوا تكرار ذلك بجوار المنزل ولكنه لا يفعل لهم شيئاً بل يكتفي بإبعادهم ما جعل الصبية يعتادون على هذا بشكل شبه يومي.. أما داخل المنزل فينتظره الكثير من العمل بداية من الطهي حتى تنظيف الردهات وغسيل الأواني.. فالمرض قد أنهك زوجته تماماً حتى أنها من شدة الهزال عانت من تساقط شعرها وأسنانها وأصبحت تشعر وكأنها تكبره بعشرين عاماً كما تخبره دائماً.. لذلك وعند حلول موعد صلاة المغرب يكون قد أنهى كل شيء

فيقرأ القرآن ويُصلي فيقوم ويركع ثم يسجد ويرفع يديه برجاء ووجل داعياً من أجل زوجته رباً سميعاً واسع الرحمة بصوت متحشرجٍ باكيًا مُتذللًا، وبعد أن يفرغ من صلاته يحمل صينية نحاسية وضع عليها حساء ولحم وفاكهة وجبن أزرق تُحبهُ (سوزان) وعُلب الدواء الخاصة بها وكوبين ماء ثم يصعد بها للطابق الثاني ويدخل غرفة زوجته ثم يضع ما يحمله على الأريكة ويجلس معها بجوار النافذة مُتقابلين وجهاً لوجه فيتسامرا إلى ما بعد صلاة العِشاء وهذا تقريباً يفعلانه يومياً وفي إحدى الأمسيات دار بينهما حديث طويل حيث افتتحت (سوزان) قائلة:

– (رجب) أخبرني بصدق.. أتشعر أن شيئاً ما ينقصك؟

– كيف ذلك وأنا أُصبح وأُمسي بهذا الوجه الجميل الذي أظنه سقط من السماء إثر تغافل الملائكة عن حراسته.

– ألا يمكنك الحديث بجدية ولو لبعض الوقت يا رجل؟.. عن أي جمال تتحدث وامرأتك سقطت أسنانها وسقط شعر رأسها وأصبحت ترتدي شعراً مستعاراً!

– قلت لكِ مِراراً هذا كُله لا يُحدثُ فرقاً بالنسبة لي فأنت دائماً في نظري كما أنتِ.. امرأة بجمال آسر اختصني الله بها كصاحبة في الدنيا وأرجو أن تكوني لي كذلك في الآخرة

– أما أنا فهذا يُحدثُ فرقاً لي، إنني في صباح كُل يوم عندما أقف أمام المرآة أشعر وكأنني لص يُسرع في جمع مقتنيات منزل أقتحمه للتو ليسرقه.. أشعر أن عليّ الإسراع في ارتداء طقم أسناني وشعري المستعار قبل أن يراني أحد ويكتشف أسراري التي أعمل جاهدة على تخبئتها، إن كان لا ينقصك شيء يا (رجب) فأنا لا زالت تنقصني أشياءً كثيرة

بعد أن سمع ما قالته زوجته وضع كوب الشاي الذي يحمله على الحافة الخشبية للنافذة وقال بصوت خفيض:

– أينقصكِ شيء حقاً وأنا معكِ يا (سوزان)؟

قال ذلك ثم مسح بباطن كفيه دموعها الحارة المنسابة على وجنتيها والتي كأنها تحفر أخاديد عميقة أثناء سيلانها لتُجيله قائلة:

– ينقصني شعوري السابق بالاكتمال.. ينقصني أن أقف على قدمي يوم كامل لأطهو لك طعامك.. ينقصني سماع ضجيج تلاميذي الصغار صباحاً قبل بداية الحصة الأولى.. إنني أخشى الشعور بالعجز أكثر مما أخشى الموت

– لماذا تُذكريننا بالموت الآن؟ مازلنا لم نتجاوز الخمسين بعد.. مازال العمر طويل أمامكِ يا عزيزتي لتطهي لي كما تُحبين ولتستمعي ضجيج تلاميذك حتى تملين كل صباح من تكراره.. فلنتفاءل خيراً.

–ومن قال لك أن الموت شر؟.. أتعلم ما هو الشر فعلاً؟.. هو أن تخسر كل شيء وأنت ما زلت حياً.. وفي حالتي فأنا قد خسرت أصدقائي وعملي وصحتي وما تبقى مني كأنثى.. أتعلم أن (نورهان) تلك الفتاة التي كانت تأتي لتساعدني في عمل المنزل قد تزوجت شاباً يعمل في إيطاليا وما إن سبقها إلى هُناك حتى أرسل لها أوراق الهجرة فاستكملتها وأتت لوداعي قبل يومين.. وعندما قلت لها: أهذا أخر عهدنا؟.. ضحكت وقالت: إنما الفراق واللقاء نصيب يا خالة وأتمنى أن أراكِ يوماً ما هُناك.. الناس ينسلون من حياتي كما تنسل المياه من فتحات المصفاة.

– وماذا عني؟

– أنت تعويض كافٍ عن كل الوجوه التي غابت وعن كل الخسائر التي وقعت.. أنت أنا.. ولكني أحببت أن أُريكِ ما بداخلي بصورة أوضح.

تنهد (رجب) ورفع حاجبيه ثم مد يده ليلتقط كوب الشاي من على حافة النافذة وأرتشف منه القليل ثم قال:

– أتعلمين يا (سوزان) أنا لا أحارب الزمن كما تظنين بل إنني أدرك جيداً أن كل شيء حولنا يتغير.. في البداية كنت أتمنى أن أترك من بعدي ذرية تُذكر الناس بي ويتذكروننني بها.. دليلاً ما أضعه في وجه الزمن لأخبره أنني تركت أثراً لكن طالما أن الله لم يُرد ذلك فلا راد لقضائه وكل ما أريده الآن هو الأنس بكِ يا جميلة الملامح

– إن كنت تريد الذرية يمكنك أن تتزوج غداً

أعاد كوب الشاي للحافة ثم ضحك بصوت عالٍ مما أجبر زوجته على الضحك أيضاً ثم نظر لها وقال:

– مضى وقت طويل ولم أراكِ تضعين أي مساحيق تجميل.. لماذا؟

– وهل يمكن أن تُزيل المساحيق وجه المرض المرتسم على ملامحي؟

– بل ستزيد وجهكِ بهاء ونضارة يا (سوزان).

تلفت حوله ثم قال:

–انتظري سأعود بعد لحظات

قام (رجب) من فوق الأريكة وأتجه نحو خزانة ملابس زوجته ثم فتحها وأخذ يفتش عن شيء ما وهي على الأريكة تنتظره وتراقب الأمر إلى أن وجده قلم حمرة وضع تحت كومة من الملابس فسحبه ووقف أمام زوجته مبتسماً وهو يلوح به في الهواء قائلاً:

– ها هو قلم الحمرة الذي سيرسم شفاه أجمل بنات الحي الآن

ثم أخذ يخطو نحو زوجته راقصاً في حين أنها ضحكت حتى دمعت عينيها وما أن جلس بقربها حتى أخذ يرفع رأسها بيديه ثم فتح غطاء القلم وأدار قاعدته فبرز قالب بلون أحمر مُشرق ينضح بالحياة فأخذ يضعه على شفاهها ويُزينُها به.. استمر الوضع هكذا لدقائق حتى أكمل عمله ثم قام وجلب مرآة صغيرة ووضعها أمام وجه زوجته وقال:

– أترين.. ألستِ حقاً أجمل بنات الحي؟

اقترب منها بحميمية أكبر ثم ضمها إليه وظل الزوجين على هذه الوضعية حتى غلبهما النوم..

وفي ساعات الصباح الأولى عندما أشرقت شمس اليوم السابع والأخير لهياج أهالي القرية حول ضريح الحاج (أحمد) فتحت (سوزان) عينيها ببطء.. الرؤية لا تزال غير مكتملة وكأن هناك غشاء أبيض على عينيها فاستغرقت بعض الوقت لتعي أنها في حجرتها جالسة متربعة على الأريكة بجوار النافذة وقد نامت طوال الليل في حضن زوجها الشيخ (رجب) النائم هو أيضاً بجوارها على نفس الأريكة فحركت رأسها وأفلتت ذراعيه من عليها لترى أثار حمرة شفاهها مطبوعة على صدر جلبابه فابتسمت ولكن لثقل وزنه فهي لا تستطيع حمله وتغيير مكان نومه ليشعر براحة أكثر كما تفعل الأم عندما يستغرق ولدها الصغير في النوم فوق كُرسيه الخشبي الهزاز أو ممدداً على الأرض بجوار ألعابه.. لذلك نراها خطت نحو السرير القريب وأتت حاملة معها غطاءً ودثرته به خوفاً عليه من هواء الصباح البارد الذي يُكور بقايا الليل ككومة كبيرة من الدخان الأسود المتلاشي ثم يقذفها بعيداً وكأنه يلعق باطن السماء ليُعيدها مُنيرة كما كانت في الصباح الماضي ويُبلل برطوبته طرقات القرية الترابية التي تدوسها أحذية التلاميذ الصغار خلال سيرهم نحو مدارسهم حاملين الحقائب البلاستيكية رديئة الصنع على ظهورهم ويخرجون من جيوبهم بواقي أصابع الطبشور التي سرقوها بالأمس في نهاية اليوم الدراسي فيكتبون بها أسماءهم على جدران المنازل بشغف لافت متجنبين أن تُكتب الأسماء على الحافة السفلية للجدار حتى لا تُمحى سريعاً بفعل قطرات المياه الساقطة من الملابس المنشورة على حبال الغسيل المعلقة على امتداد الشرفات بالأعلى بالإضافة للأتربة وروث الأبقار وكأنه تسكنهم أرواح بحارة قدماء كتبوا أسماءهم على جوانب سفينتهم قبل أن يضيعوا في جوفها لكن ملوحة مياه البحر محت كل شيء وأغرقتهم في نهاية الرحلة فماتوا قبل أن يُعيدوا كتابة الأسماء مرة أخرى فالكتابة بحد ذاتها خلود من نوع ما.. لكن أرواحهم بقت تُراقب الشاطئ من بعيد لمئات السنين لترصد تلك الأجساد العارية من الرجال والنساء وهم يتبادلون النظر بعضهم لبعض إنهم أخر نسل لتلك السلالة

التي لا تُنجب سوى البحارة لقد كانوا يتأملون عريهم برجفة غريبة ويُعيدون فحص الصدور والمؤخرات والتفافات الجسد وجميع التضاريس الباقية مرة بعد مرة.. إن قلوبهم المصبوغة بتدرجات ألوان قوس قزح القديم كانت تتشكل بوهج تحت الشمس التي انعكست أشعتها بقوة على أمواج البحر ثم تنامت إلى الأعلى باتجاهات مختلفة ثم فجأة ولمرة واحدة توقفوا عن كونهم مجرد أجساد حرة ترقص بصخب خارج تفاصيل الزمن حيث شعروا انه لا توجد لحظة قادمة فاكتفوا بالوقوف مصطفين على حافة الشاطئ لتلامس أرجلهم الماء الأزرق المالح ثم زفروا زفرة أخيرة قبل أن يتحولوا لتماثيل من البازلت تلوح بأيديها للسفن القادمة نحو شاطئهم.. إنها معركة مليئة بتناقض مع الطبيعة الأم والأرواح المتدافعة بسرعة خارج إطار المكان والأحداث والتقويم لكنهم رغم كل هذا لم يفلحوا من الإفلات من عريهم المفتوح الحر الذي رأوه مبتذلاً وفجاً فجعلهم مليئين بغثيان حاد وهم بدون ملابس أو سواتر حتى أن أرواح أسلافهم القابعة فوق التلال الصخرية بقاع المحيط قد غزت أراضيهم مرات عديدة لا لشيء وإنما فقط رغبه منهم لمشاركتهم تلك الحياة المتحررة من كل قانون لكنهم قابلوا ذلك بفتور دون ردة فعل تذكر وبمرور الوقت فقدوا كل ما حرصوا إخفائه منذ اكتشافهم أجسادهم ولوحة العري المقززة التي رُسمت على مدى أجيال بدت أبدية ومتكررة وغير قابلة للانفلات أو للمحو فتحولوا لتماثيل هرباً من طبيعتهم وليصبحوا فيما بعد أسطورة تتناقلها طواقم السفن بشك وريبة عظيمين حتى يأتي الوقت الذي لا يُعرف فيه أكانوا أهل هذا الشاطئ يرقصون عرايا حقاً تحت الشمس أم أنهم مجرد أسماء ممحاة من على جوانب سفينة غارقة كما كان أسلافهم؟.. كم هو سمح وكريم هذا البحر الذي يبتلع كُل شيء دونما احتجاج بداية من هياكل السفن لأجساد القباطنة وأجوله القمح المُعدة كمؤونة للطواقم وحتى أسراب النوارس يمكنه يبتلعها إن أراد.. هذا كُله يحدث قبل دخولهم بوابة المدرسة وانخراطهم في ذلك العالم الذي تكرهه فئة كبيرة منهم.. في حدود السادسة إلا خمس دقائق صباحاً استفاق الشيخ (رجب) من سباته وفتح عينيه

بصعوبة ليجد نفسه ممدداً على الأريكة ومُغطى بألحفة ذات ملمس ناعم وتفوح منها روائح عطرة.. في الغالب أخذ يتذكر كيف كانت ليلة أمس وبعد استرجاع ما حدث علم أن تمدده على الأريكة بشكل كامل ثم تغطيته حدث أثناء نومه فتلفت حوله باحثاً عن زوجته التي كانت تجلس على السرير المقابل له وقد قامت بتجهيز طعام الإفطار ووضعته على الطاولة بجوار المرآة وذلك على الرغم من هزالها الشديد ولكنها أرادت أن تشعر باكتمال ما ينقصها ولو جزئياً وبشكل مؤقت.. ثم قال مخاطباً زوجته بصوتٍ مبحوح:

– صباح الخير يا أجمل بنات الحي

هزت (سوزان) رأسها وارتسمت على شفاهها ابتسامة سرعان ما اختفت آثارها لتردف:

–صباح النور يا أجمل فتيان الحي.. ألم تزل مصمم على الذهاب للعمل رغم أيام الإجازات المتراكمة التي لم تستفد منها ولو بيوم واحد؟

– أنتِ تعلمين يا عزيزتي أنني لا أستطيع الجلوس يوماً واحداً في المنزل دون عمل حتى أيام الجُمع أخطب في الناس وأقضي الفترة بين ما بعد الجُمعة حتى صلاة العصر بين تلاميذي في المسجد ولكن في نهاية اليوم وقبل الرابعة عصراً تجدينني هُنا معكِ بين يديكِ

– لماذا لا تذهب للساحة الخضراء لترى ما يفعله الناس هُناك.. يقولون إن أشياء عجائبية حدثت قبل أيام في تلك الساحة.. لما لا تذهب وعند عودتك تُخبرني عما رأيته؟.. إني أتشوق فعلاً لمعرفة تفاصيل ما حدث فحتى الأطفال الذين تجدهم يلعبون تحت نافذة هذه الغرفة يتكلمون أيضاً عن هذا الأمر.

مسح وجهه بباطن كفه ثم تمغط وقال:

– يا عزيزتي لا وجود لأولياء ولا لكرامات ولا لشيوخ يحولون التراب ذهباً ويطيرون في الهواء.. إنها محض خرافات نسجتها عقول أولئك المزارعون المسحوقون جوعاً وقهراً هرباً من واقعهم محاولين إيجاد كيان ما يختبؤون وراءه.. إنهم يجدون العزاء والطمأنينة حين يجتمعون تحت أضواء المصابيح

الكهربائية المُبهرة المحيطة بالساحة ليلاً في مواسم الأعياد ليستمعوا ذاهلين إلى مواعظ عن أولياء الله ومعجزاتهم وكيف شَفى الولي الفلاني الرجل المشلول بمجرد وضع يده على ركبتيه وكيف تجلت الملائكة للولي الأخر في كهوف الجبال.. ولا ريب أن الحكائين قد لمسوا شيئاً من الاستجابة عند ذلك الجمع المسكين المطرق فثمة همهمات وبكاء صامت وحشرجة خفيّة في تلك التجمعات تساعد على ترسيخ الوهم.. لهذا لا تشغلي بالك كثيراً بما يحدث في القرية هذه الأيام لأن كل ذلك مجرد فقاعات وهم ورجاء كبيرة لا أكثر.

– ولِم لا تقول أنهم يقدرون الأرواح النفيسة حتى وإن كانت غير قطعية الوجود فقلوبهم بيضاء غير صدئة وأنا مؤمنة أن ما اجتمعت عليه أمة لا يمكن أن يكون محض خيال

–إنهم في الواقع يقدرون رمزية الحياة بعد الموت بل والقدرة على فعل المعجزات من داخل القبر وهذا لم يُمنح لنبي فكيف به يُمنح لولي إذن؟ إن حياتهم قبل تصديق الخرافة لا تشبه حياتهم بعدها.. فإن عادوا مرة أخرى لواقعهم المتجرد من أي إبهار ستنقلب الحياة في نظرهم رأساً على عقب وستتحول لكوميديا سوداء مع الكثير من الضحك الباكي ولن يكفروا فقط بالمعجزات بل سيكفرون بوجودهم الذاتي أيضاً وقد يطلقون النكات عن أولياء موازيين يتخيلونهم يرتدون ربطة عنق ويدخنون السجائر ويركبون ظهور الدواب بشكل عكسي.. إن الوهم في حد ذاته يا عزيزتي لبعض الناس نجاة.. دعيهم يعتقدون ما يُريح قلوبهم.

أنهي (رجب) حديثه وقام من فوق الأريكة ثم اقترب من زوجته وقبل رأسها ويديها ثم توجه للاغتسال وبعد ذلك أستغرق بعض الدقائق في إعداد فنجان شاي صباحي مُعتاد مُضاف إليه ثلاث حبات من القرنفل وملعقة عسل وما إن أتم الماء غليانه وصُب الشاي في الفنجان الخزفي عاد للغرفة مرة أخرى فتناول إفطاره ثم أرتدى ملابسه متوجهاً لعمله في المدينة.. بينما هي كانت تراقبه بصمت إلى أن لوح لها مودعاً وخرج ثم أغلق الباب خلفه.. بقيت تُدَورُ بصرها بين جدران الغرفة التي

تكسوها كآبة حالكة ثم مدّت يديها وكأنها تتحسس أطرافها للتأكد بأنها باقية في مكانها كما خلقها الله قبل ما يزيد عن أربعين عاماً لم تُرد أن تنتقل لجوار النافذة لتشاهده يخرج من باب المنزل ويقطع الشارع بخطى متسارعة متجهاً نحو محطة الحافلات المستقرة على بُعد مائتي متر من مدخل القرية تجنباً للاحتكاك مع سائقي سيارات الأجرة.. بل أكتفت بالتمدد على سريرها في محاولة لقتل الوقت الذي يبدو طويلاً جداً حتى موعد عودته في الرابعة عصراً فوضعت شعرها المستعار جانباً وأسقطت طقم أسنانها في محلول خاص به وغفت.. ولساعات لم يُسمع بين جنبات المنزل أي شيء عدا صوت سُعالها.. كل ما يُحيط بها ساكن إلا أنفاسها المتلاحقة وكأنها في سباق محموم للخروج من حويصلات رئتيها والناظر لتلك السيدة الهشة ربما سيشعر بثقل الزمن الذي يمر ببرود من فوق رأسها ويعانق في داخلها حزن قديم نمى وأزهر لينبت بين أوردتها تيجاناً من ورد وشوك حتى كاد يكبل فضاءات روحها التي شاخت قبل أوانها.. لكن عند الثالثة تماماً تجد بعض الأُنس من أولئك الصبية الذين لا يملون من اللعب بعُصي المكانس التي يمتطونها كأحصنة فتتابعهم من على حافة شرفتها حيث تُخبر أحدهم بحتمية الإسراع قليلاً ليفوز بالسباق ثم تجدهم يقفزون إلى الأسفل كأرانب برية في أجوله الذرة الفارغة التي تُقدم كقربان من أو كهبة للكنيسة المقابلة لهم حيث يتخلص منها خُدام الكنيسة بعد أن يفرغوا ما بها.. حياتهم بسيطة وسلسة لا يعرفون شيئاً عن الوحدة والمرض وتساقط الشعر والأسنان بل إن أكبر المخاطر التي قد يواجها طفل في سنهم هو خسارة محتملة أثناء المقامرة بأغطية المشروبات الغازية الملونة التي يتباهى كل واحد منهم بجمع أكثرها ندرة وجمالاً.. وفي بعض الأيام يصلها صوت الصغار بوضوح من الأسفل عندما يجتمعون لوضع خطة ما للخروج من حارتهم إلى الحارات المجاورة لصيد الحمام اللاجئ إلى الظلال تحت شجر الليمون في تلك المنطقة فيقطعون الأحياء المكتظة إلى أن يصلوا لأحياء منزوية ليحاصروا أعشاش الحمام المستقرة على أغصان الشجر السميكة.. لهذا فأحياناً تبدو لها الحياة أقل جدية وصرامة مما تعتقده فزوجها الذي يوقره أهالي القرية

كثيراً كرجل دين يعمل في الدوائر الشرعية الحكومية كان يحمل قلم حمرة ويرقص به ليلة أمس أمامها رغبة منه في مواساتها والتخفيف عنها دون أن يشعر بأي خجل ودون أن يشعر بانتقاص من نوع ما كما تشعر هي ولا يمكن أن تمر ليلة واحدة دون أن يقول لها:

– أنتِ قوية يا حبيبتي وأثق بأنك قادرة على تجاوز كل خيبة وكل سقوط وكل كسر.. فالحياة خُلقت في الأصل لمن هم مثلك لمن هم بعظمتكِ وقوتكِ.. إنك فعلتِ الكثير فعلت ما هو أكبر من مجرد تحمل هذا الوجع ومن مسايرة هذه الظروف.. فعلتِ ما يجعلكِ أعلى من سماء وأرض هذه الدنيا

دائماً ما يردد لها تلك العبارات لأنه يشعر بأن حياته بدونها مجرد نكتة سخيفة وغير مهضومة إنه فقط يتمنى أن تتقبل وتؤمن ببعض ما قاله وتنزع عنها جلباب حزنها الأسود الذي كسى روحها حتى بدت إنسانة أخرى غريبة مناقضة لتلك الرفيقة الضاحكة الناضحة بالأمومة.. كان يشعر بأنها فعلاً قادرة رغم كل شيء كان يشعر بأنها آلهة من الوجع والجمال والتضحية ويمكنها قهر ذلك الشر الذي يسكن جسدها إنه فقط كان يتمنى أن تؤمن به كما يؤمن هو بها..

## - الفصل الثاني -

# دانيـال

« أَنَا هُوَ الرَّاعِي الصَّالِحُ،
وَالرَّاعِي الصَّالِحُ يَبْذِلُ نَفْسَهُ عَنِ الْخِرَافِ. »
(إنجيل يوحنا، ١١:١٠)

- ١ -

دوّى صوت بالغ الحزن بدا وكأنه صرخة مكتومة في فضاءات القرية صباحاً صادراً من حنجرة رجل يهرول بين الأزقة مُرتاعاً حيث كان يطرق بوابات البيوت بقوة ويُنادي قائلاً:

– "يا أهل البلد، شُنِقَ السلطان (طومان باي، يا أهل البلد، شُنِقَ السلطان (طومان باي)".

فخُلعَت قلوب الفلاحين والأهالي ومُلاك المزارع والبساتين حيث إن ذلك يعنى سيطرة العثمانيين بشكل تام ونهائي على مصر وهذا حتماً سيتبعه سن قوانين جديدة للضرائب والمعاملات حسب ما تراه سلطة آل عثمان المتغلبة في القاهرة وسيتغير نِظام الحِسبة المملوكي الذي على الرغم من اختلاله إلا أنه أفضل كما نمى إلى علمهم من نِظام الحِسبة العثماني الجائر والمستفحل الفساد.. كان هذا في صباح الخامس عشر من نيسان للعام ألف وخمسمائة وسبعة عشر للميلاد وهو اليوم الموالي لشنق سلطان مصر (طومان باي) على يد الجيش العثماني في قلب القاهرة بعد أن تمكن السلطان (سليم الأول) من الانتصار على الجيش المصري في معركة " الريدانية " في العام نفسه وبذلك ينجح العثمانيون في إسقاط الخلافة العباسية وضم مصر لتصبح ولاية شديدة الثقل تخدم توسعاتهم السياسية لإنشاء خلافة جديدة تحت رايتهم أقوى وأكثر تماسكاً ومركزية.. والجدير بالذكر أنه على الرغم من تفوق الجيوش العثمانية على الجيوش المصرية من حيث نوعية السلاح وعدد الجنود وكُل شيء تقريباً فكان عدد الجيش العثماني مائة وخمسون ألف جندي بينما كان عدد الجيش المصري ثمانون ألفاً فقط إلا أن السلطان (طومان باي) أذاقهم سوء العذاب على مدار ثلاثة أشهر من خلال حرب العصابات في شوارع القاهرة ونجح السلطان بنفسه في قتل الصدر الأعظم للدولة العثمانية (سِنان باشا) وكاد أن يفتك بهم مما دفع (سليم الأول) لدك القاهرة بالمدافع وارتكاب واحدة من أكبر المجازر الوحشية في التاريخ الإسلامي وأكثرها إجراماً فسالت الدماء في الشوارع وضجت الأزقة بالجثث

والرؤوس المقطوعة ورغم هذا الحجم الهائل من القتلى وبشاعة المأساة إلا أن حركات المقاومة المصرية استمرت في ضرب الألوية العثمانية ضربات متتالية موجعة إلى أن سقط (طومان باي) أسيراً في يد العثمانيين في مساء الثاني عشر من نيسان إثر خيانة أحد مساعديه الذي دل وحدات الإنكشارية على مكان اختبائه داخل أحد أحياء القاهرة لينتهي الأمر بانتصار حاسم للدولة العثمانية تبعه القضاء على المقاومة وشنق السلطان وتعليق جثته على إحدى بوابات القاهرة المسماة " بوابة زويلة " وفي وصف ذلك يقول المؤرخ المصري (ابن إياس) وهو شاهد عيان على ما حدث: « عند باب زويلة توقف ركب السلطان الأسير (طومان باي) وكان في حراسة أربعمائة جندي من إنكشارية الجيش العثماني حيث كان مكبلاً فوق فرسه بقيود حديدية من أعلى كتفيه حتى معصميه وكان الناس في القاهرة قد خرجوا ليلقوا نظرة الوداع على سلطان مصر فتطلع السلطان المغدور إلى قبو البوابة فرأى حبلاً يتدلى فأدرك أن نهايته قد حانت فترجل وتقدم نحو ساحة الإعدام بخطى ثابتة ثم توقف وتلفت إلى الناس الذين احتشدوا من حول البوابة وتطلع إليهم طويلاً ثم طلب من الجميع أن يقرؤوا له الفاتحة ثلاث مرات والتفت بعد ذلك إلى الجلاد وطلب منه أن يقوم بمهمته فحمله إلى منصة الشنق ولف حول عنقه حبلاً غليظاً خشناً وبعد أن أوثقه شد ذراع المنصة ففتحت أرضيتها وسقط السلطان مشنوقاً وظلت جثته معلقة ثلاثة أيام ثم دفُنت في قُبة (الغوري) وبموته انتهت دولة المماليك وسقطت الخلافة العباسية التي كانت عاصمتها القاهرة لمدة تزيد عن المائتي عام وذلك بعد خراب بغداد على يد المغول فاستتب الأمر للسلطان (سليم) بمصر والشام وأصبحت مصر ولاية عثمانية بعد أن كانت حاضرة الخلافة العباسية ولا حول ولا قوة إلا بالله». إن الذاكرة الشعبية للمصريين لا يُمكن أن يُمحى منها اسم ذلك الرجل العظيم (طومان باي) السلطان الشهيد الذي أحب مصر وعشقها وصار مصرياً بالدم رغم أنه شركسي جُلبَ من الشام كعبد لينضم كجندي في ألوية الدولة المملوكية الذي تحول فيما بعد لحاكم مُطلق الصلاحيات لتلك الدولة كما هي العادة التي استمرت في مصر لمدة خمسمائة عام

حيث يُجلب إليها الأطفال الصِغار من البلقان وما جاورها ليتعلموا فنون القتال والحرب ثم ينضموا كجنود في الجيش المصري ومنهم من يصبح أميراً لقطاعات الجند ومنهم أيضاً من يصبح السلطان ذاته.. إنه شعب عجيب حقاً يجلب الغرباء ليُربيهم ويُعلمهم ثم يجعلهم بعد ذلك حُكاماً له!.. إنها تلك القصة المشوقة لفهم طبيعة الشخصية المصرية المسالمة جداً حد الوداعة البلهاء فرفض المصريون للإدارة بالقهر والقمع والرغبة في تدوير مقاليد الحكم بين جميع فئات الشعب تحت شعار الاختيار للأصلح بغض النظر عن العِرق دفع بهم إلى السقوط في قاع القهر والقمع على يد بعض السلاطين المماليك والذين كان منهم أيضاً أبطالاً عظماء خرجوا من بوابات القاهرة لقتال الجحافل التترية الوثنية لحماية الإسلام وأهله من الفناء على يد هؤلاء الهمج الرعاع فإلى قيام الساعة ستظل أمة الإسلام من المحيط إلى المحيط مدينة بالشكر والتبجيل لسلاطين مصر الذين كسروا شوكة المغول ومزقوهم شر ممزق. استمر الهرج وعمّت البلبلة وشاع الخبر بين الناس فخرجت النساء من بيوتِهِنَ وراء الرجال حافيات يهرولنَ بالسواد باكيات منتحبات يَشققنَ جيوبهن وأكمامهنَ ويلطمن الخدود ويحثون التراب والوحل فوق رؤوسهنَ دلالة على فجيعتهنَ لتتصدع أركان القرية بحزن عميق أشبه برائحة عفن فجة أو بصرير اصطكاك فكي عجوز تُنازع.. بينما تتسارع وتيرة الأحداث في جهة ما من القرية كان (يونس) مُستنداً على حائط منزل يألفه يرى ويسمع كُل تلك التفاصيل بعينين جاحظتين وفم مفتوح فيبدو لكل من يراه كأبله.. إنه في الحقيقة هو لا يعي تماماً ما يحدث حوله ولا يفهم لماذا يخرجنَ نساء القرية نائحات بهذه الكيفية التي يراها لأول مرة ولا يعرف من هو ذاك المغدور الذي شق العويل بطن القرية من أجله ومن المؤكد أنه أيضاً لا يُدرك في أي عام أو شهر هو فربما ظنَ أنه مازال في اليوم الأخير من أسبوع الحج لأضرحة الساحة الخضراء كما كان الأمر قبل أن تتغير مواقيت كُل شيء.. لقد امتلأت رأسه بسؤال متضخم واحد فقط.. أين هو؟.. فكل ما يتذكره أنه فتح باب غرفته نازلاً لأسفل قاصداً الخروج لوجهة ما لا يتذكرها الآن لكنه يتذكر جيداً أن الظلام قد خيم على القرية حين

هم بالخروج من المنزل لقد كانت الساعة تقترب من الثامنة مساءً وبينما هو ينزل على الدرج سمع والداه يتسامران على الأريكة في غرفة الضيافة كما هي العادة بعد تناول طعام العشاء.. فكيف يجد نفسه مستنداً على حائط في صباح باكر وبارد كهذا ليسمع ويرى أحداثاً تدفعه دفعاً للجنون؟ فعلى الرغم من أن بيوت القرية كما هي وشوارعها لم تُغير مساراتها بل حتى أن جلابيب الأهالي وعمائمهم لم تتبدل لكن يبدو أن هناك هوة ما حدثت جعلت كل هذا الخبل يظهر للسطح.. ليظل سؤاله قائماً كيف أنتقل بين زمنين مختلفين لمكان واحد؟ لا أحد يمتلك الإجابة.. إنه الآن يُحاول الرجوع إلى المنزل فلابد أن في الأمر خدعة لم يفهمها أو أنه بالفعل قد جُنَ فقطع المسار الموازي للحي الذي وجده نفسه فيه لسلك أقصر الطرق لمنزله لكن الشيء المثير حقاً للسخرية أنه رغم انتقاله من حي لآخر ومن شارع لآخر إلا أنه يعود لنفس النقطة بجوار نفس الحائط مجدداً مهما حاول تغيير مساره في كُل مرة!!..

ومما زاد حيرته أيضاً أنه يحفظ أركان تلك القرية وساكنيها ركن بركن ورَجُل برَجُل عن ظهر قلب إلا انه لم يستطع التعرف على وجوه المارة فكل شيء بقي ثابتاً على حاله إلا ملامح الرجال!!..

إن لم يكن هذا عبث محض فما هو إذن؟

كيف للأزمنة أن تتداخل.. كيف لعام ألف وخمسمائة وسبعة عشر بكل ما يحوي من بشر وقصص ومعارك أن يُنسخ ويُعاد تكراره في عام أخر يحوي بشر أخرين وقصص ومعارك أخرى؟

كيف لكل شيء أن يظل ثابتاً لا يتغير بينما يحدث فيه الماضي الآن؟

كيف لمنزل بُني منذ عشر سنوات فقط ليكون مقر (إبراهيم الشعايبي) هو وزوجته بعد عقد قرانهما أن يسكنه أُناس أخرين عاشوا قبل خمسمائة عام؟

فعدم وجود إجابات يجعلك تظن بلا شك أن هذا هو الجحيم بشكل ما حيث كل شيء خارج نطاق كل شيء.. كيف لأيام سالفة أن تحِل في أيام سارية دون أن تُغير فيها شيء إلا وجوه البشر؟

كيف يُمكن لكلمة " ماضي " أن تعيش في كلمة " الآن "؟

لا أحد يعرف..

لا أحد يمكنه الإجابة..

ربما الرب وحده من يستطيع تفسير ذلك!

- ٢ -

لم يجد (يونس) مهرباً من هذا كُلِه إلا أن يسير موازياً لحشود أولئك الرجال الصامتين الذين قفت فوق عمائمهم الغربان مخترقاً أزقة القرية رفقتهم دون مقصد معلوم فظل هائماً مدهوش إلى أن نال منه التعب وأعيته فِجاج تلك القرية التي تحولت لمتاهة سمجة فارتكن لحائط منزل آخر تتوسطه نافذة أشرعتها مفتوحة ليسمع رغماً عنه حواراً دار بين فتاتين وشاب داخل صحنه ليدرك فيما بعد أنهم أشقاء مُطت بينهم حِبال الرجاء في مناقشات أشبه بالتضرع فسمع إحداهُنَ تقول:

– خرجت قبل ذلك في عمر الرابعة عشر قاصداً جبل المعونة لتترهبن في دير الأنبا (بولا) فأغشي عليك وكدت أن تموت في منتصف الطريق لبُعد الدير ووعورة مسالكه ولولا أن أعادتك إحدى القوافل لدفنتك رمال الصحراء يا (دانيال).. أتريد أن تتركنا مرة أخرى لنفس السبب؟

التفت لها شقيقها الأشقر أزرق العينين شديد صفاء البشرة الذي يبدو أصغر منها سناً ليُردف:

– كان هذا قبل تِسع سنوات وعُدت لأن هذا قدري أما الآن فأنا سالكٌ لنفس الدرب لأن هذا أيضاً قدري يا أختاه.. سامحيني

– ونحن.. من لنا بعدك؟

– لكم الله وآباء الكنيسة

–أهكذا تفعل بنا بعد موت والدنا يا أخي؟.. أتترك أُختيك وحيدتين بلا أب ولا أخ ولا زوج؟.. أتتركنا أيتاماً نقتات على صدقات الكهنة وأنت حي تُرزق؟

– أنتِ تعلمين أن حياتي لا تتفق ومسار هذا العالم.. حتى أبي كان يعلم ذلك جيداً قبل أن يتنيح.. وإن كُنتِ تخشين الفقر والعوز فخذي هذه الصرة فبها ثمانية ألاف دينار مِقدار كُل ما جمعت خلال عملي في مزارع الدراق فهذه الأموال تكفيكُنَ لسنوات طويلة.. طويلة جداً ولهذا عملت بلا كلل أو

تذمر لأجمع لكُنَ ما يكفي من مال يسد حاجتكنَ ويمنعكُنَ من شر السؤال.. يُمكِنُكِ يا أختاه أن تشتري حانوتاً لتتاجري فيه بما يروق لكِ أو مزرعة صغيرة ورؤوس من الماشية أو بيتاً جديداً.. كُل تلك الخيارات متروكة لكُنَ ولهذا فإن غادرت فلن أقلق عليكُنَ أبداً

ألقى (دانيال) بالصرة الثقيلة في الهواء لتلتقطها يد أخته الكُبرى ثم خرت على الأرض باكية مُمسكة بطرف ثوبه لتفعل أخته الصغرى أيضاً نفس الشيء ليُكلمنه بصوت وجِل متشقق:

– نتوسل إليك بالقديسة العذراء أم (المسيح) أن لا تتركنا يا أخي.. إن الرهبنة موت على قيد الحياة فلن يُمكِنُنا رؤيتك مرة أخرى ولا يُمكِنُكَ مُغادرة الدير لزيارة العالم.. أرجوك ابق معنا يا (دانيال)

جثى الشاب المتشوق للحياة النُسكية على ركبتيه ورفع بأطراف أصابعه ذقون أختيه لتكن وجههم متقابلة كقلوبهم في تلك اللحظة وقال:

– نحن لا ندري شيء عن المستقبل وعما قد يكون فيه لكننا نعلم جيداً أننا جميعاً في يد الله الحكيمة وتحت ظلال مشيئته لذلك كُنَ فرحات في الرجاء صابرات في الضيق يا بنات (هارون)

اشتد بكاء ونحيب شقيقتيه فضمهما لصدره وباركهما وأخذ يُهدهِدهُنَ كطفلتين متشبثتين بكتف والدهنَ إلى أن هدأت نفوسهُنَ وكففنَ عن البكاء ليُذعنَ أخيراً لما أراده وظل هذا الوضع قائماً لدقائق طوال مما أتاح (ليونس) أن يتلصص برفع رأسه فوق حافة النافذة ليراه بعد أن سمع الحوار الذي دار بينهم وسمع أيضاً كُل الرجاءات الخائبة للأختين.. فتكلمت إحداهن بصوت خافت وهي تدفن رأسها في صدر أخيها قائلة:

– اذكرنا في صلاتك يا أخي ولتكن شفاعة القديسين معك

ثم أجهشت بالبكاء مجدداً..

وبينما هو يُراقب ما يحدث في صحن المنزل عبر تلصصه من حافة النافذة إذ به يسمع أزيزاً صادراً من الباب الذي يُفتح الآن ليخرج منه شيخ طاعن في السن يبدو وكأنه تخطى التسعين أو المائة عام ذو

لحية طويلة بيضاء له عينان زرقاوان وبشرة شديدة النقاء وخصلات من شعره الأشيب تتدلى وراء أذنيه مرتدياً قفطاناً أسود اللون مربوط بحزام من الليف حاملاً بيده اليُمنى كِتاباً تخرج من بين صفحاته رأس قلم مصنوع الغاب مُلطخ بآثار جافة لحبر أزرق.. تأمل (يونس) هيئة هذا الشيخ متعجباً فهو لا يعلم من أين أتى وكيف خرج من البوابة فهو حسب ما رأي فالمنزل فارغ إلا من الأشقاء الثلاثة؟ فكيف لم يلحظ وجوده معهم؟ لكنه قال لنفسه:

– منذ ساعات والأمور تسير هُنا باختلال عظيم وبلا منطق أي منطق يُذكر فلما العجب إذن؟

حك بسبابته أسفل ذقنه ثم أخذ يتبعه فمد خطاه مسرعاً إلى أن جاوره سائلاً:

– يا سيدي.. يا سيدي.. أيمكنك أن...

لم يُكمل (يونس) جملته حيث قاطعه قائلاً:

– اتبعني

توقف قليلاً بعد تلك الإجابة بينما كان الشيخ مستمراً في سيره متكأً على عصاه.. فلحقه مرة أخرى وقال:

– ماذا حدث للقرية يا سيدي؟ هل حلت بها لعنة؟ أين ذهب الجميع؟ لماذا لا أستطيع العودة للمنزل رغم أنني أسير في الطريق الصحيح الذي أحفظه عن ظهر قلب منذ أن كنت في الثالثة؟ هل جُن العالم؟ هل هذا هو الملكوت؟

– ألم أقل لك اتبعني؟

– أجبني أولاً وسوف أتبعك.

– ملكوت الله داخل كل قلب ينبض.. سترى وتسمع ما يُريد لك الرب أن تراه وتسمعه.. المجد لله في الأعالي.. المجد لله في الأعالي

رفرفت حمامة بيضاء مُنقطة ببقع بُنيه ووقفت على كتف (يونس) وأخذت تنوح وتهدل بنبرات تصل إلى حواصله فمد لها ذراعه لتهبط وتقف عليه لكنها شرعت في تحريك رأسها يميناً ويساراً ثم ضربت الهواء وطارت فعاد ليلتفت نحو ذلك الشيخ مرة أخرى لكنه لم يجد له أثراً لقد اختفى وكأنه خيط دخان فارتبك لبرهة ثم طفق يُنادي عليه بصوت صارخ لكن دون مُجيب ليسأل عنه المارة بعد ذلك ولكن أيضاً لا مُجيب.. لا أحد يُعره اهتمام.. لا أحد ينظر إليه.. كأنهم نبذوه نبذ النواة بعد أن أُكلت ثمرتها.. فاستشاط غضباً ودفع بجسده لوسط الطريق فمد ذراعيه وقدميه بين حائطي ذلك الزقاق ليسُد عليهم سُبُلهم إلا أنهم استمروا في التقدم نحوه حتى مروا من خلاله!!..

عندئذ شهق (يونس) مُرتاعاً كجثة بعثت من قبر وسقط قلبه بين كاحليه فارتمى ببطء على وجهه ليُعفر التراب شقوق جلده فظل مغشياً عليه لساعة من نهار، وما إن استفاق حتى أخذ يركض مُغبراً بين الأزقة دون وجهة إلى سكن فجأة، واهتدى للعودة لذلك البيت الذي كان يتلصص على ساكنيه عبر أشرعة نافذته المفتوحة لعله يُقابل الشيخ الذي يبحث عنه هناك حيث قابله أول مرة.. إنه الآن يعلم بطريقة ما عدم جدوى نداءاته فهم لا يروه ولا يسمعوه ولا يشعرون بوجوده وكأنهم خيالات متحركة لبشر ما في زمن ما اجتمع معهم في نفس المكان ولكل طرف عالمه الخاص لذلك أسرع في العودة ليرتكن على ذات الحائط وتحت ذات النافذة وما إن وصل حتى رأى ذلك الشاب المُسمى (دانيال) يخرج من الباب حاملاً صُرة ملابسه بيد وملوحاً لأخواته الغارقات في بُكائهِنَ بيده الأخرى.. أراد (يونس) اللحاق به آمِلاً في الحديث معه لعله ينجح في فعل هذا كما استطاع ذلك الشيخ الخارج من نفس البوابة أن يُحدثه أيضاً وحين هم بالمسير خلفه شعر وكأن قدميه قد غُرِزتا عميقاً في الأرض كجذر شجرة عتيقة عظيمة الجذع فلم يستطع التحرك للأمام ولو لخطوة واحدة وعندئذ رأي كُل الأحداث تتحرك من حوله بسرعة خاطفة والأرض تطوى والزمن أيضاً يطوى حتى أنه أصبح يرى كُل ما وقع لهذا الشاب طوال عقدين في ساعة واحدة فها هو ذا جندي (المسيح)

لا بل أسير عشق المحبة الإلهية يطفر بين الأديار والمناسك متنقلاً ليختار في نهاية المطاف وكحمامة مُحِبة للقفر الانعزال في برية موحشة لا عزاء فيها إن المكان الذي اختاره يسبّب لأول وهلة لدى الرائي كآبة واضطراباً إذ إن طبيعته لا توحي بوجود أية راحة أو تعزية داخلية فالصخور جرانيتيه سوداء وعرة ومخيفة والوديان ضيقة تولّد تجهماً وضيقاً للنفس.. الأشجار تقريباً غير موجودة فالمنطقة صخرية لكن هذه الطبيعة مع وجود قلالي النساك المتناثرة والمباركة تؤلف بتسبيحاتهم وتأملاتهم تغريداً صامتاً وسرياً للأبدية لتُقهر وحشة المكان منهزمة بقوة محبة الله العارمة في النفوس ويغدو القفر بهجاً للسكنى وللجهاد الرهباني والفوز على الذات.. فتعاقب الليل والنهار وتلى الشهر الشهر و(دانيال) يتحرك أمامه ليُسام راهباً ثم رئيساً للشمامسة ثم رُسِمَ قساً فقُمُصاً ثم يكبُر ويمرض ويُصلي ويتبتل ويرقد ويقوم دون أن يتحرك شبراً واحداً.. فظل واقفاً مُثبته قدماه أمام بوابة المنزل يرى ويسمع دون أدنى ردة فعل تاركاً أهالي القرية غريبي الوجوه يؤبنون سلطانهم المغدور في الخلفية وكأنما تحول من بطلٍ لقصته الخاصة إلى مُجرد مُشاهد لتفاصيل قصة أخرى تُروى عن بطلٍ آخر.. إن أقرب وصف لما يحدث الآن هو أن كل تلك الحيوات التي يراها ما هي إلا صوراً مُسجلة على شريط مُحمض يدور في قلب آلة عرض مسلطة عدستها بطريقة ما عبر كوة صغيرة مُعلقة في سقف قاعة سينما لتتجسد أمامه كُل تلك الحبكات والشخوص دون اهتزاز أو عطب يشوب الصور وكُل ما عليه فعله هو أن يُشاهد ما فُرض عليه أن يُشاهده

- ٣ -

بدأت الصور في التحرك وأخذت المشاهد المتقاة تتضح تدريجياً مُفتحته بمشهد كاشف علوي لدير الأنبا (بولا) المستقر في قلب جبال المعونة شديدة انحراف الزوايا التي بدت حوافها كأنصال السيوف والمُحاطة بالخلاء من كل جانب ويظهر من البعيد على الجانب الأيمن لإطار الصورة خطاً أزرقاً يرمز للبحر المجاوز لتلك الصحراء متزامناً مع ذلك تعاظم أصوات التسبحة همهمات الشمامسة.. بدا الوضع وكأنك تستعد تماماً لمشاهدة عرض سينمائي قبل الإظلام التام للقاعة لينعكس ضوء الشاشة على وجهك ولتتسع حدقتي عينيك لاستيعاب هذا الكم الهائل من الحركة والظِلال والألوان ..

– " أنتم نور العالم لا يُمكن أن تُخفى مدينة موضوعة على جبل "

بصوت رخيم هكذا تكلم الراوي الآتية نبراته من جهة ما محيطة بأذن (يونس) المُستند برأسه على الحائط مستغرقاً في السمع.. عاد صوت الراوي مستدركاً:

– إن كان (المسيح) هو شمس البر فالقديسون هم أشعة الشمس التي تصل لتُنير الأرض.. ففي صمتهم عرفوا أسرار الملكوت وفي بساطتهم صنعوا المعجزات وقهروا الشياطين فكانوا البشارة المفرحة والكنز المخفي.

ظهرت عجوز مُقعدة مرتدية جلباباً مزركشاً يتخلله خطوط صفراء لتقول:

– منذ أن ولد كان يكاد لا يعرف شيئاً عدا الصوم والصلاة.. كان قلبه مُعلقاً في ساحة الكنيسة وكثيراً ما هرب من منزله لاجئاً لغرف الكهنة في جناحها الغربي ليُجالسهم ويحفظ عنهم ألحان الترانيم ونصوص التسبحة والمزامير فقوة إيمانه منحته الحكمة لأن يتحرر من قيود العالم ويُقدم حياته كاملة لله.. لقد كان منذ يومه الأول قديساً

تعاقب في الظهور كهلاً آخر ليروي ما لديه مستنداً بكفيه على الانحناء العلوي لعصاه الغليظة مُحركاً شفتيه ببطء يناسب عمره ليتكلم مواصلاً السرد:

– حكى لنا والده أنه ذات ليلة صيفية عندما كان متمدداً بجواره على سطح المنزل فرأى صليباً من نور يتمدد بأتساع السماء حتى غطاها بالكامل فلم يعد يعرف بدايته من نهايته بعد ذلك ظهر لهما الملاك (روفائيل) رئيس جند الرب ليقترب من الصبي ويقول له:

– أنا معك منذ أن نُفخت فيك روح أدم وحتى اليوم الذي تموت فيه

لقد شاهد رفقة ولده عجائب كثيرة ففي ظهيرة أحد أيام حصاد القمح ذهبا معاً للعمل كأجيرين في حوض فرز مفتوح ومكتظ بالعمالة وبينما كان منكفئاً على تنقية السنابل كان الصبي ينظر لأعلى حيث ظهرت نجمة لامعة رغم أن الشمس قد دنت من رؤوسهم وأغرقتهم في عرقٍ مالح إلا أنها كانت تزداد توهجاً ليتحلق حولها أطفالاً صغاراً عراه يمسكون بيد بعضهم بعضاً ويدورون في مسارات متوازية حولها ويغنون " أبانا الذي في السماوات ليتقدس اسمك ليأتي ملكوتك لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض " ويبدو أنه لم يشاهد هذا أحداً من العمال وكأنها علامة أخرى على قدسيته.. والغريب أنه أعاد رأسه مُنكفئاً على تنقية السنابل كما كان يفعل والده منذ قليل دون أن يتهلل كما هو متوقع لصبي في سنه.. لقد كان مشهداً مهيباً تجلى فيه مجد الله.. مشهداً يمكن لرجلين متخاصمين إن رأوه أن يتصالحا دون يقول كل واحد منهم للآخر كلمة واحدة بل إن

قلوبهم هي من ستتكلم. تتابعت حركة الصور وتوالى ظهور الرواة إلى أن هدأ كُل شيء وظهرت لقطات أخرى داخلية لغرفة بدت أقرب لكهف حُفرت في الجبل يجلس وسطها رجلان يرتديان مسوحاً سوداء وتغطي رأسهما قلانس مطرزة بصلبان بيضاء صغيرة ويظهر خلفهما أجوله متوسطة الحجم مُلئت بنوى التمور الجافة كما أن الغرفة خالية من أي أَسِرة أو فُرش لكن إن دققنا النظر سنجد

أثار ظهريهما قد طُبعت أسفل الحائط دلالة على اِرتكان طويل أو ربما لنومهما في وضعية الجلوس مستندين إليها.. أفتتح أحدهما الحديث سائلاً رفيقه بصوت خفيض:

– ألن نهبط لأسفل الدير لنجمع بعض التمور المدفونة في الرمال هنا الساقطة من عُذُوق النخل المحيط به فلم يعد هنالك ما يكفينا!

فالتفت إليه رفيقه بتؤدة وأناة ثم قال:

– ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان يا (أبانوب) هكذا تكلم السيد الرب

– لكننا نتضور جوعاً منذ أربعة أيام يا أخي وحتى الآن لم توافقني على النزول لجلب بعض المؤونة

– ألا تكفيك الصلاة كطعام؟

– اتعبتني يا (دانيال) فحتى الرب ورئيس الملائكة قد لا يرضون عن ما تفعله بنا.. دعنا نذهب لنجمع كِسر الخبز الجافة من قلالي بقية الرهبان بالأسفل فصلاة الليل طويلة وجسدي لم يعد يتحمل البرد والجوع معاً.

وبعد إلحاح مستمر نجح في جعله يرافقه على مضض لملء أحد أجولتهم الفارغة بما يكفيهم من تمر وخبز وملح.. الشمس تنحدر نحو في المغيب وقلالي الرهبان بالأسفل ستُغلق لتُنيرها أضواء الشموع بعد قليل استعداداً للصلوات الليلية لذلك أسرع الراهبان في جمع ما أمكنهم من مؤونة ووضعها داخل ذلك الجوال المهترئ الذي يحمله (أبانوب) على كتفه بينما يجمع صديقه فضلات الخبز وما تيسر من البقول المطبوخة إن وُجد حيث أنه أعتاد ساكني الدير من الرهبان والكهنة أن يقوموا بطبخ بعض البقول في قدور فخارية قبل كل موسم صوم أو صلاة طويل عدا ذلك فطعام الجميع هُنا هو نفسه الذي يُجمع الآن داخل الجوال الخاص بالناسِكَينِ ساكني القلالي العُليا.. طرق (دانيال) باب أحد الغرف ليَفتح له بعد لحظات راهب آخر مُشيراً له بالدخول ومُرحباً:

– أهلاً أبونا (دانيال) حلت علينا البركة يا قديس الله.

في عُرف الحياة الرهبانية يُحيي النُساك بعضهم البعض بهذه اللفظة " أبونا " حتى وإن كان الشخص المُخاطب صغير السن لكنها تُعد تقديراً لتلك النفس التي وهبت حياتها بالكامل لخدمة كلمة الله..

دخل (دانيال) الغرفة وبرغم وجود أريكة وفُرش صوفية موزعة في الأرجاء إلا أنه فضل الجلوس على الأرض رغم إصرار الراهب المُضيف على رفعه لأعلي الأريكة لكنه رفض بأدب ليضطر هو أيضاً للجلوس بجواره على الأرض إلا أنه أيضاً منعه من ذلك وقال:

– اجلس أنت على الأريكة يا (مكسيموس) ما جئت لأُنقص من درجة كتبها الرب لك.. لكن إن كان لديك ما يفيض عن حاجتك من طعام فأرجو أن تتفضل علينا ببعض منه. اهتز الرجل لعِظم تواضعه مُردفاً:

– العفو والرضا يا أبونا.. العفو والرضا

ثم اقترب منه محاولاً تقبيل يده إلا أنه أيضاً مُنع من ذلك.. فاستكمل كلامه:

– يوجد بالداخل أرغفة قمح وبعض رؤوس البصل سأجلبهم الآن

قام من فوق أريكته متوجها لتلك الخزانة الخشبية الصغيرة الموضوعة داخل كوة في الجدار الداخلي للغرفة ثم عاد يحمل فائض طعامه على يد ويحمل على اليد الأخرى نعلاً جديداً صُنع من جلد البقر فقدم ما يحمله (لدانيال) الجالس متربعاً على الأرض ليرفع رأسه نحوه قائلاً:

– أعرف أن هذه أرغفة قمح ورؤوس بصل وقد قبلتها منك شاكراً لك جُهد محبتك.. لكن هل يمكن أن تقول لي ما هذا؟

أجاب (مكسيموس) متعجباً:

– هذا نعل جديد لك يا أبتِ

– أتظن أنني أحتاجه؟

– بلى أظن ذلك.. فمنذ سنوات وأنا أراك حافياً مُتقشفاً رافضاً لأي متاع حتى تشقق باطن قدمك.. ألا تُشفق على نفسك؟

– وهل خلق الرب أدم مُنتعلاً لحذاء أم خُلق حافياً؟.. أيولد الجنين منتعلاً لحذاء أم يولد حافياً؟.. لولا أن يظن بي الناس السوء لخلعت عني هذا الثوب المرقع الذي تراه.. كُل من يملك شيئاً من متاع يملك قطعة من الجحيم

– أتوسل إليك يا أبتِ أن تقبله مني

– قلت لك يا (مكسيموس) أنه لا حاجة لي به

– وأنا أُصر برجاء مُحِب على أن تنتعله.. فحقق لي رجائي

– وإن قبلته مِنك أيحق لي أن أتصرف فيه ما أشاء؟

– يحق لك أن تفعل ما تشاء لكن أقبله

وعندئذ مد يده حاملاً النعل نحوه فقبله منه ثم ضحك وقال:

– ها أنا ذا قد امتلكت من متاع الدنيا نعلاً جديداً لم يلبَسه أحد قط قبل هذا..

أعاد (دانيال) النظر نحوه مستدركاً:

– هل لي بسكين؟

دُهش (مكسيموس) من الطلب الذي سمعه فرد سائلاً:

– لم تُريد السكين يا أبتِ؟

أعاد (دانيال) طلبه بنبرة أكثر هدوءً:

– أريد سكينًا

هز صاحب الغرفة رأسه وقام ليفتح نفس الخزانة الخشبية التي أخرج منها الطعام ليُخرج منها أيضاً سكيناً صغيرة لم يعد نصلها حاداً بما فيه الكفاية ليقطع رغيف خبز يابس ثم عاد ليمُدها نحو (دانيال)

الذي لم يُغير وضعية جلوسه منذ دخوله.. فألتقطها منه ثم أخذ يشق بها جوانب النعل حتى أحدث به فتحات وثقوب عديدة على جانبيه ثم لبسه فكان جلد قدميه يظهر من تحت تلك الثقوب وخرجت أصابعه من الفتحات الأمامية التي أحدها بالنعل فسأله (مكسيموس) لم فعل ذلك؟ فأجابه مبتسماً:

– حتى لا يتعلق قلبي به يا أبونا.

ثم قام متجهاً نحو الباب حاملاً أرغفة القمح ورؤوس البصل مرتدياً نعله الجديد المثقوب ثم ظل يبحث عن شريكه في جمع الهِبات وبواقي طعام الرهبان حتى وجده يقف أمام بوابات الدير الخارجية يُمسك بِجِوالَهُ ويبحث في الرمال عن تمر ساقط أو قطع من الكِلس للعقها إن تعذر عليهم إيجاد ما يكفي من الملح أو إن نفذ مخزونهم منه.. فاقترب منه (دانيال) مُتحدثاً معه من الخلف:

– كف عن البحث.. جلبت معي مؤونة شهر أفتح لي هذا الجِوال لأضعهم فيه.

التفت (أبانوب) ناظراً للوراء مُحافظاً على وضعية انحناءه وقال:

– من أين لك بالأرغفة الكاملة؟ ثم إني أراك تنتعل حذاءً جديداً.. أيوجد هُنا في الدير رهبان شديدي الترف لهذا الحد؟

ثم ضحك وقام مُقترباً منه فاتحاً فوهة ذلك الجِوال لتُلقَى فيه الأرغفة ورؤوس البصل لتختلط في القاع مع ما استطاع جمعه من فتات الموائد ليدخلا بعد ذلك عبر البوابات لحدود الدير ويُغلقاها خلفهما وما إن وصل الراهبين لحافة البستان الصغير الواقع بجوار الجهة الشرقية للمذبح طلب (دانيال) من صديقه أن يحمل الجوال ويصعد لغرفتها بالأعلى حيث يُحِب أن يختلي بنفسه هُنا لبعض الوقت.. رفع (أبانوب) جوال المؤونة على ظهره وهز رأسه تاركاً له مساحة كافية من الوحدة التي يُريد ثم مشى مبتعداً صاعداً لأعلى ليجلس أمام عتبة الغرفة مُراقباً لما يفعله شريكه الناسك بالأسفل.. غاب قرص الشمس بشكل شبه تام وخيم على سماء الدير ظلام هادئ خجول مشرئب بحمرة المغيب ليستند حينها (دانيال) لجذع شجرة ليمون فتية ولكن من خلال رؤيتنا لملامح التعب المرتسمة على

وجهه وعينيه اللتين ارتفعتا نحو السماء يتضح لنا أنه يُشبه تماماً رُسل (المسيح) المُعلقين على صلبان معقوفة عُكِست للأسفل في ساحات روما مرتدين عباءاتهم الكهنوتية البُنية ذات العطفات الكثيرة المشدودة على خصورهم بحبل من الليف حيك بخشونة لهذا فهم أفضل حالاً من سيدهم الذي صُلبَ على خشبة عارياً تماماً إلا من خرقة بالية لعينة تلُف حقويه لتستر عورته.. إنه يُشبههم حقاً حتى أن عقصات شعره الأشقر تؤكد ذلك فهكذا غالباً ما يكون مظهر رجال الله.. وبعد سكون دام لدقائق أخذ صوته يرتفع شيئاً فشيئاً إنه لا يُرنم بل إن ما يفعله أشبه بالغناء أكثر فيداه نصف مرفوعتان وشفتيه ترتعشان ونبضاته سريعة وعشوائية وتلك تبدو وضعية صلاة معتادة لكن القشعريرة التي تضرب جسده الآن تنم عن رجل اختلط الحب داخله بالخوف فصارت الصلاة عنده نوعاً من الغناء.. فهو يؤمن أن التعبد لا يجب أن يُقيد بحركات لازمة لكن المهم أن يكون فعل الصلاة نفسه صادقاً على أي شكل كان.. إنه يؤمن أيضاً أن الله يقبل رجاءات عبيده المشوهة القليلة مادام هذا هو جهدهم بل ويبارك الرب هذا الجهد كأنه شيء كثير ولهذا أخذ يتضرع قائلاً:

– يا رب ارحم عبدك الذي لم يُدن إنساناً مدى الأيام فلا تُدنه يا حي يا ملك السلام.. ها أنا ذا وقد تلقيت نِعَمٍ عديدة منك فإنني الخاطئ غير المستحقّ لا أزال أعيش تحت ظل مجدك وأتمرّغ كالخنزير في الخطيئة غير مُدرك كيف يجب أن أتصرف تجاهك يا رب وتجاه إخوتي إنني قد تسربلتُ بخوفي أن أُدان كما حصل للخادم الشرير الذي خبّأ وزنته.. إنني أتضرّع مُلتمساً غفرانك يا إلهي فلترحمني أنا الفاسد الدنس الخاطئ

خرجت كلماته مُنغمة من عمق قلبه حتى وصل صداها لأذن كل راهب كان يجلس قريباً من كوة غرفته فجعلهم ذلك يدركون أنه يوجد هُناك أحد ما بالخارج يُحاول إماتة الذات والعالم في قلبه.. ازداد الليل ظُلمة وظل (دانيال) يتبتل بنفس وضعيته مستنداً على جذع شجرة الليمون حتى غلبه

النوم وما إن أشرقت شمس الصباح حتى خرج (أبانوب) من غرفته التي أمضى فيها ليلته وحيداً قاصداً بستان الدير حيث صلى ونام صديقه بالأمس فهبط مسرعاً عبر سُلم الدير المنحوت في الصخر الرابط بين طوابقه ثم أنتقل للساحة المجاورة للمذبح ومنها إلى البستان حيث وجده غافياً مُرتكناً إلى الجذع ذاته الذي كان يُراقبه من الأعلى وهو مستنداً عليه فاقترب منه وهز بيده كتفه بلطف مُنبهاً إلى أن أستيقظ ليفتح عينيه ببطء ناظراً حوله ليجد شريكه قد جلس على العشب مقابلاً له ليبدأ معه حديث طويل بعد تمام إفاقته مُفتتحاً:

– غفوت هُنا بالأمس وتركتني أقضي ليلتي وحيداً يا رجل الله

اعتدل (دانيال) في جلسته ثم عقب على كلامه بصوت متحشرج وقال:

– وما الفرق بين أن تغفو مُرتكناً إلى حائط صخري لغرفة ضيقة أو أن تغفو مُرتكناً لجذع شجرة! أنت فقط تفتقد الرفقة التي اعتدت عليها رغم أنني تركتك برفقة من هو أفضل مني وأعظم.

– لقد راقبتك من الأعلى وخُيل لي أنك تُصلي ولكني كنت أسمع صدى تنغمك.. أكنت تُغني حقاً؟

– بلى فعلت

– أيحق للناسك أن يُغني يا أبانا

– أنت كالذي يسأل أيحق للسُحب الثِقال المكتظة ماءً أن تمطر؟ الحق أقول لك أنه لا يوجد فرق بين الغناء والصلاة

– إذن أظن أنني سأجد إجابة سؤالي القديم عندك

– أي سؤال؟

– دائماً ما كنت أؤمن بأن التفكر والتعقل هي أقرب الأشياء للألوهية التي يمارسها البشر.. لكن السؤال الذي كان ينمو بداخلي يوماً بعد يوم أنه إن كانت ذات الله خالصة وأبدية وقادرة على الخلق فهذا يتطلب فعل يتمثل في نشاط عقلي يُناسب هالة الألوهية بلا مادة أو جسم فكيف يحدث ذلك؟

– إن التعقل له نوعان.. إما تعقل متغير أو تعقل ذاتي ثابت.. إن عقل الإنسان يفسر كل شيء على حسب ما يراه من تغييرات تطرأ على هذا الشيء وبالتبعية فإن ذلك الشيء لا يبقى على حال واحد للأبد ولذلك فتعقلك فيه سيتغير أيضاً وما هو معرض للتغير لا يصلح موضوعاً لعقل كامل ولهذا فلا يجوز للعقل الإلهي أن ينفعل بما هو ناقص لذلك فإن العقل الإلهي لا يعقل إلا ذاته الثابتة لأنها أكمل الأشياء وتعقله لذاته يتيح لمشيئته أم تنتقل من المقدمات إلى النتائج فهو بناءً على ذلك عقل وعاقل ومعقول في آن واحد وهذا يهبه أسمى أنواع القدرة التي لا يمكن أن تفنى

– هل لي بسؤال آخر يا (دانيال)؟

– بل لك كل ما تريد

– أيمكن للإنسان أن يتخلى عن السعادة بإرادته؟

– إن السعادة مرتبطة بالاستقامة وهي في حد ذاتها أحد أوجه الخير فجهل الإنسان به هو وحده مصدر التورط في الشر

– أوضح يا مُبارك!

– إن كانت السعادة تتحد بالخير فإن الشقاء سوف يتحد بالشر ولذلك يستحيل على الإنسان أن يرتكب الشر وهو يعلم في قرارة نفسه أنه شر ولكن يفعله تحت سيطرة ضلالة ما عليه

– إذن السعادة مرتبطة بالفضيلة

– بلى.. وتحقيقاً لذلك فمن يعرف نفسه سيعرف ما يناسبها وما لا يناسبها أي أنه سيعرف الخير الخاص به وحين يمكنه عيش حياة الفضيلة سيجد سعادته في قناعة نفسه وطهارتها فكلّ خطيئة تُغلب بفضيلتها المقابلة.. يتمّ التغلّب على الحسد بالمحبّة وعلى الكبرياء بالتواضع وعلى البخل بالفقر وعلى الجشع وقساوة القلب بالإحسان والتعطّف ولكن أكبر الخطايا هي تلك المتعلقة بالبطن واللسان

فالشراهة تُجاهد بالصوم والإمساك والكلام الباطل يُميته الصمت ولوم النفس والصلاة.. أنّنا لا نقوم بهذا بفضل جهدنا الشخصي وقوّتنا بل بتوسلاتنا إلى الله ليقوم بذلك

-أهذا ما قرأته في المخطوطات اليونانية التي تعكف على ترميمها وإعادة كتابتها في ساحة الدير؟

- بل هذا ما أوصلني إليه إيماني

- كيف أتقنت اليونانية يا أبتِ؟ من علمها لك؟

- عندما كنت طِفلاً كثيراً ما كنت أهرب لبهو الكنيسة صباحات الآحاد والليالي السابقة لموسم الصوم الكبير فأجلس بالقرب من الكهنة وهم يُرتلون المزامير بالقبطية واليونانية فتعلمت منهم كيفية النطق ثم بعد ذلك تعلمت كيفية الكتابة ولكن ما أشعل شغفي بترميم الأناجيل وإعادة نسخها كانت تلك البقع الزيتية الظاهرة أعلى لفافة مُهترئة خاصة بإنجيل (لوقا) الذي وجدته متروكاً على حافة طاولة بجوار مذبح الكنيسة فأحسست أنني أُدفع دفعاً لفتحه وما إن فعلت ذلك وقلبت صفحاته حتى رأيت الخط الغريب الذي كُتبت به الأسفار على تلك الرقع التي بدت لي متآكلة إلى حد ما لقد كان إنجيل ذو جودة هزيلة مثبت على عمودين قصيرين من خشب الصنوبر على غرار توراة اليهود.. المتن كلماته جد متقاربة فيما بينها ومرتبة على شكل آيات وفي الزاوية العليا للصفحات أدرجت أرقام بالقبطية فأثار انتباهي أن كُل صفحة زوجية كانت تحمل رقماً مختلفاً عن ما تحمله الصفحات الوترية التي تتبعها.. فعلمت أن ضرراً ما أصاب هذه الرُقع فعجز من جمعهم على وضعهم في الترتيب الصحيح فاستعرت ذلك الإنجيل وعكفت على ترميمه أربعة أشهر فمحوت تلك النقوش التي بدت وكأنها مرسومة بيد طفل صغير غير حاذقة فجعلت الصفحات موشاه برسم صغير كالذي نجده في القواميس.. مرساة حمراء منمقة الجوانب تفصل بين كل نص وآخر ثم سلمته بعد ذلك للكنيسة وفي داخلي بهجة عظيمة

- ألا ترى أنه كان يليق بك أن تكون وراقاً أكثر من كونك راهباً؟

– إن كُنت وراقاً فلن أنسخ شيئاً على ورق إلا الأناجيل وتعاليم الآباء وهذا ما أفعله هُنا فلماذا أُخير في أمرين اجتمعا لي؟

– حياة الوراقين رغيدة يا (دانيال) نسخ واحدة من الإنجيل تستغرق كتابتها شهوراً ويوازي سعرها ثروة.. ألم تُفكر في هذا؟

– الحق أقول لك أنه لا يوجد أشقى مِن مَن يكتب كلام الله ثم يبيعه.. كيف للأناجيل أن تكون سلعة؟

– لكن حتى الكهنة يُقيمون شعائر القداديس كُل أحد وكُل عيد ويزوجون الناس ويعظونهم ويُصلون على المُتنيحين من الشعب بأجر.. إنهم يرتزقون من هذا ولم يُعيب عليهم أحد!

– لا أفهم كيف يرتزق كاهن من نُسكيته فهذا إن لم يكن إثم فهو عار

– لم تراه عاراً؟

– لأن (المسيح) وهبنا تعاليمه وجسده وملكوته بلا أجر فكيف يأتي من يبيع كلامه بالدراهم؟

– ماذا تقول إذن في كنائس الملكانيين التي بُنيت على أعمدة من الذهب الخالص؟ إن كنيستنا فقيرة ولولا الهبات ما عاش الرهبان ولولا أجور الكرازة والزيجات ما عاش الكهنة

– " كثيرون سيقولون لي في ذلك اليوم: يا رب، يا رب! أليس باسمك تنبأنا وباسمك أخرجنا شياطين وباسمك صنعنا قوات كثيرة؟ فحينئذ أصرح لهم: إني لم أعرفكم قط! اذهبوا عني يا فاعلي الإثم! " هكذا تكلم السيد الرب في إنجيل (متى).. إنه أطهر للكاهن أن يأكل طعامه هبة عن أن يأكله من أجر كرازته.. إني أخشى عليهم حب الدنيا وأخشى أيضاً أن يُقال لهم " إني لم أعرفكم قط "

– أنت كما أنت دائماً لا طاقة لأحد بجدالك فكُل الإخوة في الرب هُنا يعلمون من هو الوراق جيداً.. لكن أتدري! أنا أؤمن تمام الإيمان أنك لم تأتِ لهذا الدير عبثاً بل أنك راهب مُختار مثل أولئك المُصطفين عبر الرؤى والأحلام

– لست أكثر من ناسك يقتات على فتات الموائد يا أخي.. لكن بالحقيقة نعم لقد رأيت في صغري منامات كثيرة وكنت دائماً ما أستيقظ قبل الفجر فَزِعاً

– حدسي صحيح إذن

– دائماً ما كان كذلك

– فلتحكِ لي عن أبرز ما حلمت به

– أتذكر أنني في إحدى الليالي عندما كنت في التاسعة ذهبت إلى السرير ونمت فرأيت عمالقة مخيفين ذوي وجوه بشعة مروعة يتجهون نحوي لقد أخافوني وهم يصرّون بأسنانهم حاملين السكاكين وشاهري السيوف والحراب واحد منهم – بالأخص يبدو أنه قائدهم – قال بغضب: تخلص بسرعة مما يجول في خاطرك وإلا سوف نُصفيك مقطعين إياك إرباً.. ثم نخسوا جسدي بسيوفهم وسهامهم لكني قاومتهم بتوسلات عميقة للأم العذراء حتى أنشق فجأة سقف الغرفة وأتت فاتحة ذراعيها تحملها سحابة فابتعد أولئك العمالقة وأخذوا في التضاؤل حتى خرجوا من تحت عقب الباب أما العذراء فقد جلست بجوار سريري

إلى أن أشرقت الشمس

– تحت ظل حمايتِكِ نلتجئ يا قديسة.. طوبى لك يا (دانيال).. طوبى لك ولكل من ترحمت عليه.

– إن هذا العالم شرير جداً فقد تجد الشر مُحيطاً بك في كُل مكان حتى ولو كُنت داخل مذبح أو هيكل تُصلي

– أنا أشهد على ذلك.. فوالله لن تُترك إلى أن تُجرَب

– أتعلم.. سأخبرك بأمر حدث لي قبل سنوات بينما أنا في طريقي للدير أتياً من قريتي البعيدة المنسية القابعة على ضفاف النيل

– أستمع لك بوداعة أيها المُبجل في القديسين

– عندما اقتربت من نواحي الدير مررت بقرية أخيرة فاصلة بين العمران والصحراء.. أخر قرية تزودت منها بماء وخبز وكان ما رأيته فيها حقاً شيئاً عجيب!

– أتقصد تلك القرية المطلية جدران بيوتها بزُرقة يتخللها خَضار؟

– نعم هي تلك البلدة النابتة كصبار على حدود الصحراء.. فخلال مروري بها ليلاً رأيت على باب أحد البيوت شيطاناً واقفاً يدعو الناس إلى الدخول وتنبعث من فتحات الباب روائح بخور ونبيذ مُعتق فعلمت أنه لا شك ماخور ثم رأيته يصفق فرحاً جذلاً كلما استجاب لدعوته أحدهم وبينما كنت أتأمل هذا مفكراً كيف يهلك البشر دون أن يشعروا إذا به يقترب مني قائلاً:

متِّع ناظريك ما شئت من مغريات هذا العالم الفانية إنها المرة الأخيرة التي ترى فيها أشياء كهذه ثم ضحك واختفى!

– هل رأيته مُجدداً؟

– نعم.. فبعد أن تابعت مسيري في اليوم التالي متوجهاً إلى سفح الجبل قاصداً دير الأنبا (بولا) الذي نحن فيه الأن.. رأيت راهباً جالساً على الطريق فقلت له: باركني يا أبي لأني أود أن أكون راهباً مثلك.. فقال لي: وإلى أين تقصد؟ أجبت: إلى دير القديس (بولا) أول السواح.. فقال: ليس حسناً ما اخترت، إذ إن الرهبان هناك أدعياء كَذبة كما أنهم لا يفقهون شيئاً لا من تعاليم الرهبنة ولا من نظامها تعال معي وسوف أعلمك الكثير.. فقلت: لست بمحتاج إلى تعاليمك سأذهب إلى هناك لأنها إرادة الله.. وما إن قلت هذا حتى أصبح ذلك الراهب دخاناً واختفى عن ناظري تاركاً وراءه رائحة كريهة فأدركت ساعتئذ أنه كان شيطاناً ولا أظنه إلا من كان واقفاً أمام باب الماخور

– صدق (الناصري) عندما حذر تابعيه من الشرير وجنوده.. حتى أنا يا أبتِ كُنت أرى شياطين تطوف متحسرة حول قِباب الدير.. إننا لا نملك سلطاناً على الأرواح النجسة بتقوانا بل بالمحبة التي مُنحت لنا لكي نرى بها الله.

– حري بكُل مؤمن ألا يطلب من الرب رزقاً أكثر مما يطلب مِنه محبة فبها فقط يحيى ابن الإنسان.

– إن الحب في حد ذاته معجزة.. فعندما صاحت الحشود من حول ابن العذراء صارخة: أنقذ نفسك، أظهر لنا معجزة من السماء، انزل من على الصليب لنؤمن بك.. فأعطاهم معجزة غير متوقعة هي مغفرته لهم ولجميع أعدائه. أليس هذا الغفران عسلاً إلهياً أعظم من أية معجزة وأقوى من أية علامة من السماء؟!

– خرقت شغاف قلبي بحديثك هذا يا أبتِ..

حقاً لم يطلب (يسوع) اثني عشر جيشاً من الملائكة لينقذوه، بل بالحري صلى لأجل صالبيه.. رؤساء الكهنة والحكام والجنود الرومان والغوغاء الذين طالبوا بصلبه لقد كان يمكنه أن يهلك هؤلاء جميعاً ولكنه دخل إلى أعماق كيانه حيث شعر أنه جاء خصيصاً لخلاص العالم كله فقال:

" يا أبتاه اغفر لهم، لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون "

ولهذا لم يستجب معظمهم لحبه ولكن الأهم هو أنه قابل شرهم بخيره العميم.. لقد جسد (المسيح) المكسور قلبه على خشبة الصليب المسفوك دمه ما تفعله بنا خطايانا إذ تصير نفوسنا بلا حب أكثر سواداً وتدق فيها المسامير وهذا هو الذي يجعلنا نصرخ مثل زواني أورشليم قائلين:

اللهم ارحمنا نحن الخطاة..

إن الإنسان ما إن يصل لمحبة العالم في ذاته يمكنه أن يغفر للناس أي شر يمسه منهم بل وحتى يمكنه أن يُسامح قاتليه كما فعل (بطرس) الرسول حينما سامح من صلبوه في ساحات روما..

فقط إن تمكنت نفوسنا من التسامي حينئذ يحطم الله الحجاب الحاجز بيننا وبينه ويؤكد لنا أن خطايانا لا يمكنها أن تمنع حبه لنا أو تحرمنا منه!

- ٤-

توقفت حركة الصور للحظة وعاد صوت الراوي الرخيم ليملأ الأجواء قائلاً:

– الله لا يترك نفسه بلا شاهد ويمنح قديسيه في كل زمان القدرة على صنع المعجزات والآيات لكي يرى الإنسان قوة الله.. لقد قال ربنا بأن أتباعه سوف يقومون بعجائب كما فعل هو نفسه فها هو (دانيال) المُبارك يُعطي برهاناً جلياً على انتمائه إلى رسل (المسيح) الحقيقيين هذا ما تؤكده النعمة الغزيرة التي كانت له كصانع عجائب.. لقد ذاعت شهرته بسبب استنارته وامتلاكه موهبة الرؤية فهناك العديد من الأمثلة عن قيامه بتذكير الناس بخطايا مُحدّدة كانوا قد نسوها أو أخفوها خلال اعترافهم له بها هناك حالات لأزواج ذوي عُقر فكانت النساء تحمل عاجلاً بعد طلبها شفاعته وآخرون أخبروا عن شفاءات من السل والطاعون والعمى بعد أن صلى لهم..

عادت المشاهد لتتابع مرة أخرى بينما (يونس) يقف مرتكناً بكتفه بهدوء على الحائط مكتوف اليدين غارقاً في فهم ما يراه ولكن فجأة تتحرك حدقتي عينيه بسرعة توازي سرعة ذلك الراهب الاتي مهرولاً من انعطاف البستان نحو شجرة الليمون التي يجلس تحتها رجُلي الله المباركين فما إن وصل حتى وقف أمام (دانيال) لاهثاً وقال بوجل:

– أدركنا يا مُبارك

فرفع رأسه نحوه مُجيبا:

– ما بك؟

جثى الراهب المفزوع على ركبتيه وقال بأنفاس متقطعة:

– إن جميع إخوة الرب يلتفون الآن حول العنزة الوحيدة المتبقية في الدير بعد أن نفقت جميع رؤوس الماشية إثر الجفاف الذي ضرب الأنحاء منذ الصائفة الماضية.. إنها ساقطة أرضاً بجوار باب حظيرتها

الخوصي تنزف دماً وتُنازع فإن هلكت يا أبي فلا لبن ولا زُبد حتى عيد القيامة بعد أشهر خمسة من الآن عندما تأتينا زيارات المؤمنين من القرى والمدن حاملين معهم هبات وعطايا ومؤونة للدير بالإضافة إلى أن كبير الرهُبان أبانا المُبجل (خريستوذولس) لم يعد يتحمل كسرات الخبز الجافة والملح ولا يدخل جوفه طعام إلا إن كان لبناً أو زُبداً رغم كرهه لذلك ولكننا نجبره خوفاً من أن نفقده ونُحرم من بركاته.. فمن أجل (المسيح) يا أبتِ تعال وصلِ لهذه العنز لعل الله يرفع عنا تلك الكأس. قام (دانيال) من تحت الشجرة مستنداً على باطن يديه ثم تبعه (أبانوب) أيضاً ليُرافقا هذا الراهب المستجدي نعمة الله وما إن وصلوا إلى بوابة الحظيرة حتى ألتفت جمع الرهبان نحو (دانيال) مفسحين له طريقاً بينهم ليرى ما حل بعنزتهم الوحيدة الباقية فاقترب منها وجلس القرفصاء ومس بيده أنفها النازف دماً ورفع بأصبعه جفنيها المتهدلين ثم أخرج من جيبه منديلاً قماشياً ووضعه على وجهها ثم ضم كفيه ورفع رأسه للسماء وأخذ يتمتم بصلاة طويلة وما انتهي حتى قامت تلك العنزة الهزيلة تدب بحافريها أرض الحظيرة وتُطلقُ ثُغاءً بهيج كأنه أجراس الكنائس في ليلة تنصيب البطريرك فتهللت وجوه الحاضرين وأخذت صيحاتهم تشق سماء الدير وما زاد من حماستهم رؤيتهم لبطن العنزة تكبر شيئاً فشيئاً أمام أعينهم حتى انتفخت بصورة بالغة وكأنها في شهرها الرابع والأخير من الحمل ومما زاد الوضع جنوناً رؤيتهم لانتفاخ ضرعها أيضاً حتى نز منه الحليب ثم رؤيتهم لها تتحرك لتجلس في الظِل جاثية على قوائمها الأربع ساكنة هادئة كأي أم رؤوم في أخر أيام حملها.. فاقتربوا منها غير مُصدقين وفحصوها فإذا بهم يُصعقون!.. العنزة حقاً تحمل في سخل صغير وربما ستضع وليدها اليوم ليلاً على أقصى تقدير.. الجميع في حالة نشوى عظيمة فمنهم من سجد شاكراً ربه ومنهم من احتضن (دانيال) ومنهم من ركض لداخل غرفة كبير الرهبان الكهل المتداعي جسده ليحمله بين ذراعيه ليأتي به ويُشهده مجد الله الظاهر على يد الوراق الأشقر.. وبعد أن هدأت صيحات الرهبان أخذوا يتحلقون حول (دانيال) يصفقون ويرنمون بصوت عالِ وبنسق واحد قائلين بالقبطية:

" هلليلويا هلليلويا إيسوس بي إخرستوس بى أوأو فا بين نوتى شا اية نية نى اية نية ذكصاصى كيريه آمين "

أو ما معناه بالعربية:

" ابتهجوا ابتهجوا بيسوع المسيح.. المجد لله إلى أبد الأبدين.. المجد لك يا رب آمين "

غابت الشمس وارتفع صوت غثاء العنزة فهرول جميع الرهبان نحو الحظيرة ليقفوا مشدوهين أمام تلك المعجزة التي تتحقق.. العنزة تلد الآن سَخلها المُكتمل.. الجميع يرى تلك الولادة الإعجازية الناتجة عن حمل لم يدم سوى ساعات النهار فقط.. يا إلهي ما أعظمك عنزة هزيلة شارفت على الموت أحييتها وخلقت في رحِمها روحاً جديدة بلا تيس وملئت ضرعها لبناً!!.. فمنذ ذلك اليوم ذاعت شهرة رجل الله صانع العجائب (دانيال الوراق) في أرجاء مصر كافة من أقصاها إلى أقصاها فحج الناس إلى الدير أتين بإيمان عظيم قاصدين لقائه طالبين المعونة راجين أن يُكمل الله عمل المعجزات على يده.. وفي أحد الأيام قُبيل عيد الفصح أتت امرأة عجوز تخطت الستين بقليل تسحب زوجها الكسيح الراقد داخل عربة خشبية فأخذت تطرق بوابة الدير إلى أن فُتح لها لتدخل سائلة عن الأب (دانيال) فدلها الرهبان على مكان خلوته في البستان فاستمرت في سحب العربة إلى أن دخلته مقتربة من شجرة الليمون التي أضحى رجل الله لا يفارقها بل إنه أتخذها كنيسة له يصلي تحت ظلها ويرنم للرب مستنداً على جذعها.. نبه صوت خُطى قدمي المرأة السائرة على العشب القديس المُتأمل فما إن وقفت أمامه حتى ألتفت إليه وقال:

– ما حاجتك يا أمة الله؟

فأردفت برجاء:

– أتيتُكَ آمله أن يُقيم الرب بصلواتك زوجي الكسيح

– مُنذ متى وهو على حالته تلك؟

– زوجي فقد القدرة على المشي منذ سبعة عشر عاماً يا أبتِ

– لتكن مشيئته كما في السماء كذلك على الأرض.

أصاب المرأة تلعثم مفاجئ حين أرادت أن تُخبره عن ما تحمله معها من مؤونة له ولكنها قالت على استحياء:

– معذرة أيها المُبارك.. أنا امرأة فقيرة وزوجي رجل كسيح ولكني أحضرت لك قنينة زيت وصاع شعير راجية من الله أن تقبلهم مني.

ابتسم (دانيال) وقال:

– هل لي بهذا الزيت؟

هرولت المرأة نحو العربة الراقد زوجها الكسيح في جوفها وأخذت من جواره قنينة الزيت وأعطتها له فوضعها بجوار الجذع ثم بعد أن أخذها قام وأتجه نحو العربة ثم أنحنى ليُدخل ذراعيه فيها ليلُفهما هول خصر ذلك الشيخ الكسيح ليُخرجه منها بعد ذلك حاملاً إياه إلى أن وضعه أرضاً ثم أسنده على جذع الشجرة ورفع عنه ثوبه فكشف قدميه العاريتين من الركبة حتى الكاحل فقالت المرأة بصوت مرتعش:

– أحقاً ستصلي من أجله الآن يا أبتِ؟

فأجابها بأناة:

– بلى

ثم أخذ القنينة وصب منها على قدمي الشيخ وأخذ يمسح بيديه عليهما حتى غسلهما تماماً بذلك الزيت ثم أنتظر ساعة من نهار حتى جفت قدميه وتشرب جلده كُل الزيت الممسوح به وحينئذ وضع باطن كفيه فوق ركبتي الكسيح الممدد على الأرض وأخذ يتمتم قائلاً:

– حسن هو الحمد للرب والترنم لأسمك أيها العلي.. شكراً يا إلهي لأنك تسمع لي كُل حين.. باركي يا نفسي الرب وكُل ما في باطني ليبارك أسمه القدوس.. باركي يا نفسي الرب ولا تنسي كل حسناته الذي يغفر جميع ذنوبك الذي يشفي كل أمراضك الذي يُكللك بالرحمة والرأفة الذي يشبع بالخير عمرك فيتجدد مثل نسر البرية شبابك.. الرب مجري العدل والقضاء لجميع المظلومين الرب رحيم ورؤوف طويل الروح وكثير الرحمة لا يُحاكم إلى الأبد ولا يغضب إلى الدهر.. لم يصنع معنا حسب خطايانا ولم يجازنا حسب آثامنا.. إليك أيها الرب القدوس رئيس القوات الذين يُدين العالم أتضرع أن تشفي بقدرتك عبدك هذا آمين.

وما إن انتهى من صلاته حتى أبتهج وجه الشيخ وشعر بالدماء تُضخ عبر عروق قدميه التي هُيء له أنها جفت منذ زمن فقام مستنداً على شجرة الليمون غير مُصدق أن قدميه عادتا لتحملانه من جديد.. ظل يتخبط لدقائق بين القيام والسقوط إلى أن تمكن من الوقوف بثبات وأخذ يمشي في البستان باكياً وما إن رأت زوجته العجوز ذلك حتى ركعت أمام (دانيال) شاكرة صنيعه فأخذ بيدها وأقامها ثم قال:

– لا تركعي لأحد قط.. لا تركعي إلا عند صلاتك للرب

هُنا عادت حركة الصور للتوقف من جديد وطغى على الأجواء دخان وردي اللون غير معلوم المصدر.. دخان له رائحة أوراق التوت فاستنشقه (يونس) واستفاق من نصف غفوة أثقلت رأسه.. استفاق وأخذ يتلفت لعله يرى أحد يكلمه ولكن ظل الحال كما هو عليه طرقات فارغة وصور تتحرك وأصوات أتيه من اللا مكان يصحبها دخان وردي!.. لم يعد يشغل نفسه كم يبدو الأمر جنوني لأنه بالفعل كذلك.. حاول ان يُحرك قدميه ولكن أيضاً دون جدوى لقد فعل كُل شيء يمكنه تغيير أوضاعه والخروج من تلك المتاهة غريبة التفاصيل وفي نهاية الأمر أيقن أن من وضعه هُنا فعل ذلك لسبب وفي الغالب لن يمكنه المغادرة إلا بعد انتفاء هذا السبب لهذا عاد ليُسند رأسه على الحائط لتعود

أيضاً أضواء العرض لتُسلط على تلك الشاشة الاعتبارية ويبرز هُنا مشهد جديد.. (دانيال) يجلس بجوار سرير رئيس رهُبان الدير الأنبا (خريستوذولس) ويبدو أن حديثاً ما دار بينهما

ولكن ما وصلنا منه هو ذلك المقطع الذي بدأه (دانيال) قائلاً:

– أخبرني إخوتي بالخارج أن قداستكم تُريد مني السفر خارج الدير لأمر هام.. أنا تحت تصرفك يا أبتِ.

سعل الراهب الكهل سعال أولئك المُشرفين على الانتقال للضفة الأخرى من النهر.. الشطر الآخر من الغابة.. ذلك السعال المصحوب بنحيب لا يفهمه سوى من يفقه لغة الموت إلا أنه استعاد رباطة جأشه وقال:

– ما يفعله الله على يديك من أعاجيب وصل صداه إلى الإسكندرية فأرسلوا إلينا أساقفة كنسية البطريركية المرقسية مشددين أنه يجب أن تكون حاضراً في صباح عيد الفصح القادم بعد أيام ليُلبسوك الإسكيم المقدس.. مُبارك لك ما مُنحت يا ولدي.. مبارك لك يا رجل الله.

يُمكننا وصف الإسكيم على أنه شبه حِزام من الجلد يلبسه الراهب حينما يصير متوحداً أو عندما يتقدم روحياً ويدخل في حياة أشبه بالوحدة ولو في داخل الدير ويضم مجموعة من الصلبان بعد إقامة صلوات خاصة بلبسه.. والراهب الذي يلبس الإسكيم يقدم صلوات وأصوام أكثر من بقية الرهبان غير اللابسين له فالراهب الذي يلبسه يلتزم بقوانين خاصة كالالتزام بعدد معين من قراءات الإنجيل كُل يوم مع التقليل إلى الحد الأقصى من الطعام الأمر الذي يصعب الالتزام به لغير المتوحدين ولهذا فقد أنعقد لسانه ولم يعرف كيف يمكنه الرد على خبر كهذا ولكنه أكتفى بالركوع أمام الأب الممدد جسده على سرير ذو قاعدة خشبية ضربها عفن بُني مما جعل احتمالية سقوطه أرضاً بها يحمله واردة بأي لحظة.. الحياة هُنا متقشفة للغاية وهذا ما يجعلها أكثر طهارة.. خرج (دانيال) من غرفة كبير

الرهبان وهو يُفكر كيف سيذهب للإسكندرية بثوبه المرقع هذا وكيف سيُقابل رجالات الكنيسة الأقدس بهذا الشعر الأشعث واللحية المغبرة؟ لكنه سرعان ما قال لنفسه:

– لأن الإنسان ينظر إلى العينين أما الله فينظر للقلب.. هكذا تكلم السيد الرب..

ثم صعد لغرفته وأخبر (أبانوب) بما سمعه فلم يكن منه إلا أن أصر على مرافقته في تلك الرحلة إلى الإسكندرية فليس هنالك أعظم من الصلاة في البطريركية المرقسية إلا الصلاة في أورشليم نفسها فهبط الراهبان لأسفل حيث وقفا بساحة الدير ينتظران أن تفتح لهما البوابات ولكن قبل هذا مُنح كل واحد منهما حِماراً ليكُن راحلته في سفرهم الطويل المرتقب فخرجا مودعين إخوتهم الرهبان أملين لقائهم مُجدداً حين عودتهم قائلين لهم:

– حافظوا ما استطعتم وبحرارة اجتهاد على تتميم قانونكم الرهباني.. احرصوا على سلامكم الداخلي وعلى رباط المحبة بين بعضكم البعض وليس بينكم فقط بل ومع الجميع تموا خدمكم الديرية بأمانة كما للرب أكرموا الغرباء وخاصة الفقراء منهم مقدمين لهم الإحسان قدر الإمكان لأنكم بعملكم هذا تستضيفون كنيسة (المسيح) نفسه الذي سوف يعوض عليكم مائة ضعف..

أتم كُل واحد منهما وصيته وحمل معه ما يكفيه من ماء وغادرا حدود الدير سالكين طريقاً مختصرة لكنها أكثر وعورة من الطُرق الاعتيادية للقوافل.. إن المسافة من سواحل بحر القلزم حيث يقع دير الأنبا (بولا) حتى الإسكندرية تتطلب خمسه أيام لقطعها بمسير لا تهدأ وتيرته ولهذا كان دور الحمارين هاماً للغاية فأما (دانيال) فلم يمتطي حِماره نهاراً حتى لا يجتمع عليه حر الشمس وثِقل جسده بل كان يمشي بجواره متحننا عليه واكتفى بامتطائه بعد غروب الشمس وقسطاً من الليل أما (أبانوب) فلم يفعل وامتطى حِماره طوال الطريق.. وفي صباح اليوم السابق لعيد الفصح دخل الناسكين حدود الإسكندرية وأخذا ينخلان شوارع المدينة إلى أن وقفا أما تلك الكنيسة العظيمة الأشبه بقلعة ضخمة ذات قِباب لامعة وصلبان فولاذية مطلية بالفضة معلقة أعلى المنارات فأخبرا حراس البوابات عن

هويتهما فسمحا لهما بالدخول ليُستقبلا على أحسن ما يكون وليطلب أحد الأساقفة من (دانيال) تبديل ملابسه وتهذيب هيئته لأنه في صباح الغد سيُمنح الإسكيم من قداسة البطريرك ذاته بالإضافة إلى أن الاحتفال سيحضره جمع غفير من المؤمنين فعندئذ نظر له وقال:

– نيافة الأسقف المُبجل.. أنت تراني على الصورة التي أرادها لي الرب وأنا لن أُغير هيئة رسمني بها (المسيح) حتى وإن صُلبت فلتغفر رفضي لما طلبت يا أبتِ.

تغير وجه الأسقف وبدا ممتعضاً مما سمعه فهو لم يعتاد قط قبل ذلك أن يُرفض ما يُمليه على من هو أقل منه في التدرج الكنسي لكنه اكتفى بهز رأسه وترك الراهبين يقفان أمام باب غرفتهما ليدخلاها بعد ذلك تاركين الأسرة فارغة ممددين أجسادهم على الأرض منتظرين لما سيؤول إليه الأمر في الغد..

هُنا الإسكندرية المدينة المقدسة التي تحتضن أول كنائس (المسيح) المحافظة على إيمانها القويم كما يقول أساقفتها وبطريركها.. إنها المدينة التي يُمطر السحاب فيها عطراً وأزهاراً وربيعاً وأحياناً أيضاً تُمطر السُحب هُنا ملحاً أحمراً يمنح خيبة الصيادين على السواحل طعماً ولوناً وريحا رائحة.. وكما يقول الكهنة في الإسكندرية كما في أورشليم تُقتلع عين الخطيئة ويجعل الريح بصفيره كل آثم أعرج.. إنها المدينة التي دخلها (مرقس) رسول (المسيح) لتتحول إلى مصيدة للموت والشياطين والآلام فلا معاناة هُنا ولا وجل ولا خوف بل يمكن لكُل مؤمن أن يفتح صدر قميصه منتظراً هطول ماء الخلاص ليُلامس جسده ويحرره ويُمكنه أيضاً أن يشهد في صباح كُل يوم ميلاد جديد وقيامة جديدة.. مرت ساعات الليل بوداعة وخِفة كاشفة عن صباح رائق فاتجه جميع الرهبان والكهنة وأعداد عظيمة من المُصلين نحو بهو الكنيسة فصعد الكهنة والشمامسة أعلى منصة المذبح وجلس المصلين في أماكنهم ومن لم يجد كُرسياً ليجلس استند على أعمدة البهو أو افترش الأرض رافعاً يديه للأعلى ملوحاً للأساقفة بسرور تلى ذلك تصاعد روائح البخور التي جعلت المشهد أكثر سماوية فتقاسيمها المنبعثة تُحرض الأنوف لتلوك غصن زيتون أخضر ويكتمل البدر في عيون المُصلين حتى

وإن كانت صلاتهم نهارية إن البخور يجعل كُل الحاضرين يعرجون داخل ردهات من نور مليئة بالأنبياء والقديسين.. تتابعت الطقوس واهتزت الكنيسة بدفء حياة سرت فيها مع ابتداء القداس فجاشت النفوس بالتلاوة والترتيل وأتى صوت الأب الكاهن حاملاً أنشودة فرح ذلك اليوم وهو يقرأ من إنجيل (لوقا) فصله التاسع عشر :

– " ولما قَرُبَ عند منحدر جبل الزيتون ابتدأ كل جمهور التلاميذ يفرحون ويسبحون الله بصوت عظيم لأجل جميع القوات التي نظروا قائلين: مبارك الملك الآتي باسم الرب! سلام في السماء ومجد في الأعالي! وأما بعض الفريسيين من الجمع فقالوا له: يا معلم انتهر تلاميذك! فأجاب وقال لهم: أقول لكم إنه إن سكت هؤلاء فالحجارة تصرخ! "

وحينئذٍ دخل الكاهن الأعظم بطريرك الكنيسة ليشهد مع شعبه مراسم العيد وصلواته فما إن جلس على كُرسيه حتى ضج الجميع يهتفون طالبين بركته فقطع هذا الصخب كُله صوت كاهن أتى من منصة المذبح حاملاً مجمرة البخور ومرنماً:

– فلنسأل الله ضابط الكُل ربنا وإلهنا (يسوع المسيح) ونطلب من صلاحك

يا محب البشر أن تذكر يا رب بطريركنا الأب

المكرم رئيس الكهنة البابا أنبا (ديمتريوس)

ليتداخل في تلك اللحظة صوت الشماس مخاطباً جمهور الحاضرين:

– صلوا من أجل رئيس كهنتنا البابا أنبا (ديمتريوس) بابا وبطريرك ورئيس أساقفة المدينة العظمى الإسكندرية وسائر أساقفتنا الأرثوذكسيين

ليرد عليه الشعب بصوت واحد:

– يا رب ارحم

فيعود الكاهن مستدركاً:

– حفظاً احفظه لنا سنين كثيرة وأزمنة مديدة

مكملاً رئاسة الكهنوت المقدسة التي ائتمنته عليها من قِبلك كإراداتك المقدسة الطوباوية مُفصلاً كلمة الحق باستقامته راعياً شعبك بطهارة وبر وجميع الأساقفة الأرثوذكسيين والقمامصة والقسوس والشمامسة وكل امتلاء كنيستك الواحدة الوحيدة المقدسة الجامعة الرسولية.. أنعم عليهم وعلينا بالسلام والعافية في كل موضع بصلوات القديسين التي يقدمونها عنا وعن كل شعبك وصلواتنا نحن أيضًا عنهم.

وفي تلك اللحظة يصدح صوت الشماس قائلاً:

– عبادة الأوثان اقلعها من العالم.. الشيطان وكل قواته الشريرة اسحقهم وأذهِّم تحت أقدامنا بسرعة.. الشكوك وفاعلوها أبطلهم ولينقضي افتراق فساد البدع أعداء كنيستك المقدسة يا رب مثل كل زمان.. والآن أذهِّم وحِل تعاظمهم عرفهم ضعفهم سريعاً أبطل حسدهم وسعايتهم وجنونهم وشرهم ونميمتهم التي يصنعونها فينا يا رب اجعلهم كلهم كلا شيء وبدد مشورتهم يا الله الذي بدد مشورة أخيتوفل.

ليعقب ذلك صوت هدير المُصلين مرددين:

ننتظر القيامة من الأموات يا رب وحياة الدهر الاتي.. آمين.

ومع اقتراب نهاية مراسم العيد جاء صوت أحد الكهنة الواقفين على يمين كُرسي البابا حاداً بما فيه الكفاية ليُخبر الجميع أنه هناك أمراً مهيباً على وشك الحدوث.. صمت كل الحاضرين فجأة وارتفع نداء الكاهن مُجلجلاً:

– إن قداسة البابا المعظم (ديمتريوس) رئيس كهنة المسكونة وحبيب (المسيح) تحنن على أخينا الراهب (دانيال بن هارون) ومنحه الإسكيم المقدس تقديراً لجهاد نفسه العظيم وشكراً لعجائب الرب التي أُجريت على يديه.. فيا شعب الله باركوا المانح والممنوح

ردد الحاضرين استجابة لطلب الكاهن قائلين:

– بارك يا رب

عاد الكاهن مستكملاً:

– فليصعد أخينا الراهب على منصة الكُرسي الرسولي ليحمل عطيته وليكن مُباركاً من الآن وإلى الأبد آمين.

بعد أن أنهى الكاهن سرده خرج (دانيال) من خلف ستائر المنصة وتقدم نحو البطريرك الجالس على كرسيه ثم صعد أول درجتين على سلمها فانحنى احتراما ثم أُشير له بالتقدم أكثر ففعل حتى أصبح مُقابلاً تماماً لحواف الكرسي الباباوي فلما قام البطريرك ركع (دانيال) أمامه وقبل يده الغضة الناعمة استعداداً لرسامته راهباً متوحداً.. ولكن بينما كان البابا يشاور أساقفته لدقائق وبينما كان الجميع في انتظار الكهنة الذين سيأتون للمنصة حاملين الإسكيم ليُلبسه البابا لهذا الراهب الأشقر الجاثي على ركبتيه أمام الكُرسي.. كان (دانيال) قد رفع رأسه وضم كفيه وأخذ يتأمل تلك اللوحة العملاقة المُحاكية لتجلي (المسيح) أعلى جبل الزيتون والتي رُسمت أعلى سقف الكنيسة.. اللوحة يظهر بها مشهدان واحد سماوي وآخر أرضي فهُناك فوق الجبل في السحاب المبهر للنظر يظهر (يسوع) في السماء وعلى جانبيه يظهر النبي (موسى) والنبي (إيليا) بالإضافة لثلاثة تلاميذ هم (سمعان) المسمى (بطرس) و(يعقوب بن زبدي) وشقيقه (يوحنا) الذين ذهبوا مع (المسيح) إلى الجبل ويبدون في حالة ذهول فخروا سُجداً وعلى الجانب الأيسر منهم نجد صبي مسه الجنون جاء مع والده يبغي الشفاء وتسعة من تلاميذ (المسيح) الآخرين يستمعون للعِظات ولكنهم عاجزين عن فعل أي شيء اثنان

منهم يُشيران نحو الجبل والبقية في وضعية تضرع.. الألوان أعلى اللوحة ساطعة متوهجة هارمونية ليست بينها ظلال لكن الأشكال أسفل الصورة محصورة بالظلال والظلام بما يتناسب مع مكانة كُل عنصر فيها.. انتهت دقائق الانتظار وصعد الكهنة إلى المنصة مُسبحين حاملين الحِزام المُقدس الموهوب من البطريرك لذلك الراهب الآتي من دير يتوسط صحراء يحفها بحر.. توجه البابا نحوه وهو يرفع الإسكيم عالياً ثم قال:

– يُعريك الرب من نفسك كرجل عاجز بأفعاله ويُلبسكَ ثوب جديد لتكن عادلاً وأميناً بالحقيقة.. ضع يا رب ستر الخلاص على جسده ليقهر الأخطار الشيطانية كُلها.. يربطك الرب بحزام التقوى ويطرح عنك شهوتك وشرور ذاتك لكي تبقى فضيلة الزهد والعفة فيك.. أقبل نور (المسيح) كعلامة لخلودك فحين تموت في العالم تحيا بالله.. آمين

ثم وُضِعَ الإسكيم على كتفه ورُبط به خصره وحينئذ خيم صمت ثقيل على أركان البهو لم يكسره سوى صوت الحشود الرخيم قائلين بنبرة واحدة عميقة:

– آمين.

قام (دانيال) من ركوعه وقبل يد البابا للمرة الثانية ثم بعدها سُمحَ للمؤمنين أن يقتربوا منه لنيل بركاته والتشفع بصلواته وعلى الرغم من رفضه لكل من يقبل يديه أو قدميه إلا أنه أُكره على ذلك نظراً للزحام الشديد بعد نهاية المراسم فكل من حضر يُريد رؤية هذا الراهب الذي ذاع صيته وحيكت حوله الأساطير فمنهم من حكى أنه قد أحيا رضيعاً مات بعد ولادته ومنهم من أخبر عن طيرانه ليلاً من قلايته أعلى الدير إلى بيت لحم كُل ليلة حيث يُصلي هُناك مع التلاميذ الاثني عشر والكثير غير ذلك من الحكايا التي ينسجها خيال العامة إثر تعلقهم برجل مُبارك يرون فيه عمل الله.. ومع احمرار الشمس وقبل أن تُخيم الظلمة على المدينة استأذن (دانيال) ورفيقه بالمغادرة فسُمح لهما بعد إلحاح شديد ورجاءات فخرجا من بوابات الكنيسة على حِماريهما مُحملين بهدايا كثيرة ومؤونة تكفيهم لأشهر..

وبينما كانا في طريقهما لمغادرة حدود الإسكندرية إذ برجل يمتطي حِصاناً يأتي من خلفهما مُنادياً بصوت صارخ:

– يا رجال الله.. توقفوا طوبى لكم

فشد كُل مِنهما لجام حِماره وتوقفا عن المسير حتى يمكنهما سماع حاجة ذلك الرجل

فلما اقترب منهما قال:

– السلام لكما آبائي.. المجد (ليسوع المسيح)

فرد (أبانوب):

– وعليك السلام.. فليتمجد دائماً.. من أنت؟ وما هي حاجتُكَ؟

أجاب الرجل:

– هل أنتم متفرغون قليلاً؟

فسأله (دانيال):

– لِمَ؟

فقال الرجل بصوت مُلتاع:

– أنا صاحب بُستان فاكهة ويجتاح القمل أشجار الكمثرى وإن ظل على نفس الوتيرة فمحصول الفاكهة هاذ العام سيفسد ولن أجد ما أطعم به صِغاري

قاطعه (أبانوب) مستفهماً ليبدأ بينهما حواراً مقتضباً:

– وما علاقتنا بذلك؟

– ألستما راهبين؟ أليست هذه ثياب رهبان؟

– بلى

– إذن يُمكِنُكما المُباركة لإبعاد هذا القمل عن بستاني وإن لم تفعلا سأفلس

– من قال لك أننا نستطيع فعل المعجزات؟ كيف لنا أن نُبعد جيوشاً من القمل؟

– لكنكما تعرفان أحداً ما في السماء يُمكنه المُساعدة

ضحك (أبانوب) ثم قال:

– اذهب وابحث عن فلاحين مهرة يمكنهم تنقية أشجارك من القمل

لكن هُنا تقدم (دانيال) بحِماره وخاطب رفيقه قائلاً:

– لا بأس دعنا نذهب

ثم التفت نحو صاحب البستان مُنبهاً:

– سنصلي لمرة واحدة فقط وليُتمم الله مشيئته بعد ذلك

هز الرجل رأسه موافقاً ثم أشار لهم بأتباعه فسار الجميع مُحاذيين للبحر حتى توقف الحِصان أمام بوابة لبستان تُقابلها سارية حديدية تطل على البحر لم يُعرف سبب تثبيتها في تلك البقعة.. لكن على أية حال دخل الراهبان عبر تلك البوابة وأكملا المسير حتى أصبح الجميع في منتصف البستان تماماً فنزل (دانيال) من فوق حِماره وقال لصديقه:

– ابق أنت هُنا وأمسك بلجام حِماري ريثما أطوف سريعاً معه حول الشجر المُصاب ثم أعود لنُكمل سفرنا .

أجابه رفيقه بالموافقة فظل ثابتاً في مكانه مُمسكاً بلجام الحِمارين بينما كان هو يتنقل مع صحاب البستان بين أحواض شجر الفاكهة متضرعاً:

– أيتها الأم الطاهرة ارحمينا.. أيتها العذراء الممتلئة نعمة ارحمينا

ظل يردد تلك الصلوات عند كل بقعة يقف بها وما إن انتهى من مُباركة المحصول عاد لرفيقه فأمتطى حِماره وسارا متوجهين نحو البوابة أما صاحب البستان فلم يُرافقه بل تركه بالداخل يُراقب

الأشجار.. وعند اقترابهما من الخروج عبر بوابة البستان أتى صوت صاحبه من الداخل مُنادياً فسمعاه بوضوح حيث كان صاخباً وفرحاً:

– يا أبتِ.. يا أبتِ.. إن القمل يموت.. يموت يا أبتِ.. يا (يسوع)!.. كيف حدث هذا بحق بحيرة النار والكبريت!

نظر (أبانوب) نحو رفيقه بإعجاب شديد ثم ما انفكا عن الضحك بعد أن خرجا من البستان.. لكن مع اقترابهما من تلك السارية الحديدية توقف عندها (دانيال) وأخرج من جيب جلبابه المُرقع قطعة قماش بيضاء ثم نزل عن حِماره وسار على مهلٍ حتى وصل للسارية فربط تلك الخرقة في أعلى نقطة ممكنة منها وتركها ترفرف بالأعلى مُراقصة هواء البحر.. ثم عاد ليستكمل المسير والحديث والرفقة.. وعند سؤاله عن جدوى ما فعل قال:

– قلبي يُحدثُني أن روحاً طاهرة ستتعلق هُنا في تلك البقعة على تلك السارية أو ربما جزءاً من تلك الروح ستفعل.. لهذا أحببت أن أُرشدها إلى المكان متى ما حانت ساعتها الآن أو بعد ألفية.

هز (أبانوب) كتفه ثم زم شفتيه ورفع حاجبه غير مُلم بمقاصد كلام صديقه لكنه قال:

– حسناً.. الآن أي طريق تراه مناسباً ليكون مَسلكاً لعودتنا؟

نظر (دانيال) ناحية البحر للحظات ثم أردف:

– ما رأيك أن نسلك طريق القوافل الطويل المُعتاد عوضاً عن طريق ذهابِنا المختصر؟ ألا تُريد أن نستأنس بوحدتنا أكثر قبل عودتنا للدير؟

– بلى.. ولكن لا تنسى أن الجميع ينتظرونا هُناك فكل ما نحمله من هدايا ومتاع ومؤونة هي لهم

– لا تقلق سنصل في الوقت المحدد ولكني أُغرمت حقاً بالمسير ليلاً تحت النجوم اللامعة الملتصقة في تلك السجادة السماوية المعلقة فوق رؤوسنا.. أحببت هذا جداً

– إذن لا بأس.. دعنا نفعل ذلك لمرة أخيرة حيث لا نعلم متى يُمكن أن يتكرر خروجنا من الدير مُجدداً.. أتعلم! يُقال أن الأب (خريستوذولس) لم يخرج من أسوار الدير منذ ما يزيد عن ثلاثة عقود وقد لا يخرج أبداً.

– إنه رجل خرج من عتمة ذاته وعتمة العالم لنور الرب وكمال العبادة حيث أضحت غرفته هي ملكوته.. لتكن صلواتك معنا أبانا القديس (خريستوذولس) آمين.

انطلق الناسكين في رحلة العودة سالكين طريق القوافل الذي يمر بالسواحل الشمالية يخترق أراضي وادي النيل الخصيبة ثم يعود مرة أخرى للمرور عبر الصحراء الشرقية لمصر فاستغرت رحلتهم مدة أطول بأيام قليلة عن سابقتها وظل (دانيال) يتعامل مع حِماره بنفس النمط الذي تعامل به معه في رحلة الذهاب فكان لا يركبه في الظهيرة قط بل يمشي إلى جواره ثم يمتطيه بعد مغيب الشمس حتى ساعات المساء الأولى حين يحل الظلام بشكل تام على طريق عودتهم.. وبعد قطعهم تلك المسافات الشاسعة لم يعد يفصل بينهم وبين حدود الدير إلا عبور تلك القرية الفاصلة بين العمران والصحراء المجاورة لبحر القلزم ولكن عند دخولهم لها كان المساء قد حل وخيم ظلام ثقيل مُريب على الأنحاء فمروا اثناء ذلك بشارع ممهد مستقيم ويبدو طويلاً جداً يحفه صفان من المنازل وكما كان متوقع فبوصولهم لنهاية هذا الشارع سيدخلون حيز الصحراء بشكل مباشر وستظهر لهم قمم الجبال المستدقة بصورة أكثر وضوحاً ولكن أثناء مرور (دانيال) بجوار أحد المنازل اختلط عليه أمر أحدهم.. فهو يُشبه إلى حد ما منزل رآه في نفس القرية خلال رحلته الأولى للدير قبل سنوات.. الأمر ليس مُهما لدرجة التفكير فيه هكذا أخذ يحدث نفسه وعلى الجانب الأخر كان التعب قد نال من (أبانوب) وأعياه طول المسير وهكذا الحال أيضاً بالنسبة للحِمارين فطلب من صديقه أن يؤجل عبور هذا الشارع للغد وليفترشوا الأرض هُنا مستندين على حائط أحد البيوت حتى الصباح فالظلام هذه الليلة حالك والقمر غير مكتمل والرؤية ضبابية للغاية فأجابه بالموافقة فأراحوا دوابهم وافترشوا الأرض ونام

الجميع بجوار أحد الحوائط على بعد أمتار قليلة من بوابة المنزل الذي أرتاب (دانيال) في أمره حيث يمكنهم رؤية تفاصيله بوضوح من زاويتهم تلك التي ينامون فيها.. استسلم (أبانوب) لتعبه وغط في نوم عميق ولم يقم بأي حركة ولم يمكنه حتى تحريك رقبته دليلاً على مدى الإرهاق الذي وصل إليه جسده خلال تلك الرحلة وعلى الرغم من سكونه التام إلا أن صوت شخيره أخذ يرتفع بشكل متقطع على فترات ولكن على أي حال فقد مرت الليلة بهدوء وسلاسة إلى أن أستفاق (دانيال) على صوت أزيز باب خشبي يُفتح قُرب الفجر ففتح عينيه ببطء ثم ألتفت حوله فإذ ببوابة ذلك المنزل تُسحب على مهل إلى أن فُتحت على مصراعيها وخرج من صحن المنزل ضوء أصفر شديد التوهج لدرجة أنه أنار الشارع كُله والأزقة المتفرعة منه رغم الظلام المحيط بكل شيء حينها فرفع (دانيال) ذراعه أمام عينيه مُحتمياً من ذلك الضوء الطاغي الذي لم تتحمله عينه النصف ناعسة والمنتفخة إثر طول الرحلة.. هدء ذلك التوهج نوعاً ما وخرجت من المنزل امرأة شابه يقطر وجهها جمالاً ويضج جسدها بالفتنة وأخذت تمشي نحوه بخطى ناعمة متأنية ولكنها كلما اقتربت منه خلعت عنها قطعة من ملابسها وطرحتها أرضاً إلى أن وقفت أمامه عارية الجسد تماماً إلا أن خصلات شعرها الحريري المُنسابة كانت تُغطي ثدييها فأشاح بوجهه عنها وبدأت حبات عرق غزير تتفصد من جبهته وقال مُحذراً:

-استري جسدكِ وعودي من حيث أتيتِ!

لم تُعر لما قاله بالاً لتردف:

- ألا ترى يا (دانيال) أن العمر قصير ووقتك أثمن من أن تهدره في الرهبنة؟ إنك حتى لم تضاجع أي امرأة قط في حياتك؟ ألست رجلاً بما يكفي لفعل ذلك؟

حينها قام منتصباً على قدميه وأدار لها ظهره ليُكلمها على وضعيته تلك قائلاً:

- قُلت لكِ استري جسدكِ فالله لا يرضى بالفُحش.

حينئذ ابتسمت كعاهرة واتسعت حدقتي عينيها المظلمتين ثم صدرت مِنها ضحكة رقيعة وعَقبت بتغنج قائلة:

– ها هو ذا الراهب ذائع الصيت اللابس الأسكيم المبجل في القديسين يرتعد أمام امرأة عارية.. (يسوع) لم يعد هُنا بعد الآن يا عزيزي لقد صُلب وانتهى أمره هلم لنشرب من عرق جسدينا.. هلم ننغمس في المتعة.

اقتربت منه أكثر وهمت باحتضانه من الخلف وحينئذ خر راكعاً وأحنى رأسه وضم كفيه في وضعية صلاة مُناجياً السماء:

– إليك أتضرع يا رب أن تجعل صلاتي هذه مقبولة لديك واسمع لصوت تضرعي طارداً جميع جنود الشرير المنظورين وغير المنظورين أناساً كانوا أم أرواحاً بحق قوّتك الإلهية التي بها أخرجت الشعب اليهودي من أرض مصر منجياً إياه من عبودية المصريّن.. انصرني يا إلهي على جميع الأرواح المعادية واحفظ لي قلبي يا رب كما حفظت (يونان) في جوف الحوت وكما حفظت (نوح) في السفينة من الطوفان فإليك أتضرع ومنك أرجو السلامة.

تحركت تلك المرأة للأمام إلى أن أصبحت مجاورة له فجلست متربعة على الأرض ملتصقة به ثم نظرت نحوه بطريقة فظة تصحبها إيماءات هادئة مخيفة لتقول:

– عبرت أمام بوابتي قبل سنوات ولم تدخل.. كلمتك عند سفح جبل ديرك اللعين ولم تتبعني.. أتظن أنك أقوى من الغواية؟ أُقسم لك إن لم تعد عن رهبانيتك سأجعل حياتك جحيماً إلى أبد الأيام فلا ينجيك مني إله أو رئيس ملائكة.. وإن لم تُصدق فلتنظر ليديك الآن لترى.

رفع (دانيال) كفيه وقلبهما في الهواء وإذ به يشعر برؤوس مسامير غليظة تُدق في باطن كفيه حتى نزعت اللحم عن العِظام فصرخ بصوت مكتوم ثم ما يلبث أن يرى الدماء تتقاطر من يديه المثقوبتين وتُغرق الأرض تحته مُختلطة بالتراب بينما تتعالى ضحكاتها الرقيعة بجواره لتستدرك قائلة:

-ما رأيك أن تُصلب بجوار مسيحك على خشبة مماثلة الآن!!

قاطعها صوته المتحشرج هاتفاً بصوتٍ عالٍ:

- أُقسم عليك يا شيطان يا عين السوء أُقسم عليك باسم الله العظيم أن لا تقربني طالما الله يحيي ويميت والماء تورد والنار توقد فاهرب واذهب وذب كما يذوب الشمع والرصاص أمام وجه الله بحق (يسوع المسيح) رئيس جميع القوات.. آمين.

وما إن انتهى حتى أنقطع من حوله كُل صوت وتوقفت آلام يديه بل وبرأت من فورها وبدأت اللحم يُغطي عظام أصابعه المكشوفة فأطال النظر مدهوشاً إلى أن سجد مُعفراً وجهه باكياً حيث قال:

- الشكر لك يا قدوس لأنك رفعت عني هذه الكأس.

وما هي إلا دقائق حتى قام منتصباً مرة أخرى ثم ألتفت وراءه فلم يجد أحداً فأطال النظر نحو ذلك المنزل فوجده مُغلقاً مُعتماً كما كان فظن أن الأمر برمته ربما هُيء له غير أنه رأى قطع الملابس التي خلعتها مطروحة أرضاً مثلما رآها تفعل كما أن قطرات دمه التي سقطت مازالت رطبة.. تنهد بعمق وعاد للاستناد على الحائط رفقة أخيه في النُسك رغبة منه في الراحة لساعة أخيرة قبل استكمال الرحلة فارتكن برأسه على حقائب المؤونة بجوار حِماره إلى أن أشرقت شمس الصباح وبدأت خيوطها المتثائبة تُنير قسمات الوجوه الناعسة للراهبين ودوابهم فهب (دانيال) واقفاً ليُعيد ترتيب الاجوله المملوءة بعطايا البطريركية فوق ظهر الحِمارين بينما كان (أبانوب) يفتح عينيه بتثاقل مُحاولاً استيعاب الوجوه المحيطة به فأدار رأسه بتكاسل ثم قال:

- هل ستُكمل المسير الأن؟

ليُجيبه:

- نعم سنفعل.. قُم وأمسك بلجام حِمارك ودعنا نصل الدير قبل حلول الظلام.

ثم مد يده نحوه ليُمسك به ثم جذبه بقوة وأقامه ليُكملا طريقهما على ذات الوتيرة دون أن يحكي له (دانيال) عن تفاصيل الليلة الماضية إلا أنه تفاجئ به يسأل:

– هل الأحلام تجسيد للأماني التي نعجز عن تحقيقها أو رغبات مدفونة في أعماقنا المظلمة لحياة نريد أن نعيشها تندرئ علينا هكذا بدون انتظام في أوقات نومنا فلا نجد لها تفسيرات مقنعة؟

– لماذا تسأل؟ أرأيت شيء بالأمس؟

– بلى رأيت صوراً كثيرة أثناء نومي ولكني لا أتذكر منها إلا بعض الشذرات الآن لكنها كانت تبدو كأطياف مُلونة ومُبهجة جداً وأنا لا أعتقد أن في حياتي أمر ما يدفعني لأن أحلم بأشياء كهذه

– كُل واحد مِنا له حياتين واحدة يتمنى حدوثها وأخرى يعيشها بالفعل ولا يوجد فاصل بينهما إلا خط وهمي يهتز بشكل دائم يذوب ويتلاشى كلما تأمل الفرد مِنا الناس من حوله محاولاً التركيز في الإجابة عن السؤال المطروح منذ خُلق (آدم) هل نحن موجودون حقاً أم نسبح في دهاليز الوهم؟ هذا التساؤل يا صديقي ما هو إلا كابوساً طويلاً متقطعاً يتم توزيعه على الأيام بلا إنصاف.. دع عنك الأسئلة وكُن ممتناً لكل للحظاتك التي تعيشها حُلماً كانت أم يقظة

– وما هي حياتك الأخرى التي تُخفيها عنا وتراها وحدك في أحلامك يا رجل الله؟

تنهد (دانيال) ثم اعتدل فوق سرج حِماره وقال:

– أنا حقاً ممتن لحياة الزهد التي أعيشها مع كُل أخوة الرب بين زوايا الدير.. لكن دائماً ما تراودني رؤى تُزيد من حجم تلك الغصة التي رُشقت في جدار قلبي منذ سنوات

– أتشتاق لشقيقاتك؟ لقريتك؟ لصحن منزلكم حيث كُنت تحبو هُناك؟

– الكذب خطيئة، ولهذا فلن أُنكر؛ لأن الأمر فعلاً كما قُلت.

– ألا يُمكنك زيارتهم؟

– كيف يمكن لراهب كسر زوايا عزلته والعودة للاختلاط مرة أخرى مع العالم؟.. العالم شر يا (أبانوب) شر عظيم

– إذن أنت تنتظر زيارتهُنَ لك!

– شقيقاتي تزوجنَ وأصبح لكُل واحدة مِنهُنَ بيتاً.. وتقاسمنَ أموالي التي تركتها لهُنَ مناصفة أما بيتُنا القديم فقد هُجر وأصبح مكاناً تلفه العتمة وبرودة الخواء.. لهذا لا أنتظر زيارة أي مِنهُنَ ولا تسألني أيضاً كيف علمت كُل ذلك

– لا شك أن السماء أخبرتك هذا أمر بديهي ولا يحتاج الخوض في تخمينات أيها المُبارك.. لكن أتعلم حديثك هذا ذكرني بقصة قديمة

–اقصص عليّ ما تُخبئه في صدرك دع الطريق يهون

–عندما كُنت صبياً في الثالثة عشر كان لدي عصفوران وضعتهما في قفصٍ خشبي مُلون كُنت أظن دوماً أنهما أخوين لعمق المحبة التي تربطهما.. فلا يُغردان إلا سوياً ولا يسبق أحدهما الأخر في إتيان حبوب القمح التي كُنت أنثرها لهما داخل القفص بل كانا يأكلان معاً بل ويُغطيان بعضهما البعض بأجنحتهما عندما تُمطر السماء أو عندما تهُب رياح الشمال التي تهُز كُل شيء حتى أساسات المنازل وذات يوم فتحت باب القفص عن غير قصد فطار أحدهما فأسرعت بإغلاقه ليبقى الأخر بالداخل وحيداً وبعقل طفل لم أكن لأسمح له بمغادرة قفصي مهما كان تعيساً.. لكن ما حدث بعد ذلك كان عجيباً حقا.!

– ماذا يمكن أن يكون عجيباً أكثر من أنك تمنع كبد حي رطب من حريته!

– بل هُناك ما هو أعجب.. لقد ظل الطائر الحر يأتي كُل ليلة ويقف على حواف النافذة ليُطل على أخيه وكُلما جهزت له فخاً لأمسك به وأعيده لأسره القديم فطن لما أقوم به وطار بينما كان عصفوري يُعاني آلام الفقد في محبسه وكثيراً ما كُنت أراه يبكي بطريقة ما بغير دموع ثم يبدأ في تغريد حزين أشبه

بالنواح ليظل على حالته تلك شهراً أو يزيد قليلاً إلى أن أتت ليلة صيفية ثقيلة الأحمال لم يأتي فيها الطائر الحر لزيارة أخيه كما المُعتاد حينئذ ارتعش العصفور الحبيس بشدة وتساقط ريشه وأنقلب على ظهره وأخذت عيناه تغوران أكثر فأكثر داخل رأسه وظل يُنازع إلى أن بزغ الفجر ثم أنقلب على جانبه الأيمن ناظراً نحو النافذة ومات.. وعلى ما أظن أننا جميعاً يوجد بداخلنا قفصاً يحوي هاذين العصفورين

– إن ذلك ما هو إلا مثالاً لحرية النفس يا أبتِ.. فالعصفور الحر رغم شوقه لأخيه لم يستسلم للوقوع في الفخاخ عنده زيارته له والتي كان يعلم سلفاً بوجودها.. فحبه لحريته طغى على حبه لأخيه مع أنه كان يُمكنه الاستسلام لك ليتشارك حياة العزلة مع أخيه مُجدداً لكنه رفض

– إن الألم الحقيقي هو الذي يُسببه لنا الناس الذين نُحِبهم حتى وإن لم يتعمدوا فعل ذلك

– لكن الغفران موجود

– بلى.. ولكن ليس الكُل يملكون القدرة عليه

–الصلاة هي مُفتاح الغفران.. فلنُصلِ يا أبتِ ولكن من الإثم أن نفعل ذلك بحزن لأن إلهنا هو إله الفرح.. لهذا قلت لك أنهُنَ لن يأتينَ إلى هُنا تاركات وراءهن كُل مُتع الدنيا ليزُرن أخاهنَ الوحيد المُنقطع عن العالم في صحراء شاسعة ممتدة تبدو أطرافها كأذرع العناكب.. لذلك فلنتضرع للرب كي يمسح عن قلوبنا خدوش الفقد والوحشة.

توقفا عن الحديث وتابع كُل منهما قطع المسافات المتقاربة القليلة نحو الدير بصمت وعند انتصاف النهار هبت ريح جافة خشنة ممتزجة بغبار رمادي ثقيل جاعلاً الأشجار العارية تنحني لكل عصفة ريح حد الانكسار لكن وحدها أشجار الشوك السامقة كانت تتحدى الزوبعة بوجهها الشائك المسطح ثم في النهاية ترضخ للسقوط كاشفة عن أن الشجاعة مهما بلغت من ذروة ورغم السيقان الضاربة جذورها عميقا في التربة فإن لا حول لها ولا قوة أمام الهجمة الشرسة للرياح وهذا تماماً ما

يفعله الاشتياق بسيقان الورد المزروع بباحات قلوبنا فمهما كان صبرنا عظيماً فلابد من ان نُكسر شوقاً لمن نُحب ولكن طالما القدير لازال يُحكم قبضته على العالم فعزاءنا فيه عظيم.. غابت الشمس وتوقف الراهبان أخيراً أمام بوابات الدير فنزلا عن الحِمارين ثم سحب كل واحد منهم دابته من لجامها ودخلوا ساحة الدير عبر البوابة المفتوحة المتروكة بدون حارس على عكس المُعتاد..

وبعد أن قطع (دانيال) بضع أمتار قليلة داخل الممر الرئيسي شعر بشيء بانقباض حاد في قلبه وكأن أحدهم يعتصره بيديه فهو رغم تلفته المستمر لم يُشاهد أي راهب منذ دخوله وهذا أمر غريب ويدعوا للتوجس فقرر ربط حماره في جذع شجرة وتحرك نحو قاعة الصلاة الجامعة لعله يجد أحد الرهبان هُناك ليشرح له ما سر هذا السكون المُريب فتحرك بسرعة للأمام يتبعه رفيقه وما إن دخل قاعة الصلاة إذ به يجد جميع رهبان الدير يقفون متوازين أمام بعضهم البعض ينظرون لأسفل بأسى ينضح من وجوههم يرتدون مسوحهم السوداء المطرزة بصلبان نُسجت بخيوط قطنية بيضاء وأخرى صبغت بالأحمر وتوسطهم تابوت خشبي يرقد فيه على ما يبدو أنه جسد الأب (خريستوذولس) وقد أُغمِضت عينيه وجُمِعَ كفاه فوق صدره في وضعية صلاة وهُنا شعر (دانيال) بخيبة أمل كبيرة فهو لم يتعلم ما يكفي بعد من الأب المُتنيح.. هو لم يخدمه بالشكل الذي يليق بقديس مثله وها هو يتجرع كأس الفقد مُجدداً فبدأ يبكي بصمت ثم اقتربا من الجسد المُسجى وركع الراهبين العائدين من الإسكندرية أمامه ليُمسك (دانيال) بحواف التابوت العلوية ويقول مُنتحباً:

– إلهي،إلهي،إلهي.. يا من أنت إله الحياة أنت قلت أنك ستمنح أي شيء لم يتبعك إذا طُلِبَ منك باسمك.. أنا أتوسل إليك أن تدعيه يعيش.. يا (يسوع) دعه يعيش.

وضع (أبانوب) يده على كتف رفيقه ثم قال مواسياً:

– توقف يا (دانيال).. لقد مات.

فالتفت إليه بوجنتين غارقتين بدموعه مخاطبه بصوت مرتعش:

– نحن خطاه.. جميع من يقفون هُنا خطاه.. كان يجب أن نُصلي له أكثر لكي يرفع الرب عنه كأس الموت لكن أحداً لم يفعل.. كان واجبنا أن ننقذه لكننا تركناه يُنازع وحيداً.. نحن مجموعة من الجبناء

– لقد كان نيافة الأب (خريستوذولس) مريضاً جداً.. لقد استعد هو بنفسه لليوم الذي يُسلم فيه روحه ودائماً ما قال لنا أن ساعة الملكوت قد حانت.. هون عليك إنما هي إرادة الرب.

عاد (دانيال) ليتمتم بصلواته بوجل أكبر:

– إلهي، إلهي، يا من أقمت (أليعازر) من الأموات؛ أقمه ودعه يعيش من أجلنا نحن الخطاة.

حينئذ احتضنه (أبانوب) من الخلف ونهره عن المتابعة مُحذراً:

– لا تجرب الله.. لا تفعل هذا.. ألم يقل لنا تعلموا التواضع من الذين يتعذبون ويموتون! كُف عن النحيب إنها مشيئة الله.. إنها مشيئته.

جن الليل وانتهت طقوس الصلاة على القديس المُتنيح ثم بدأت مراسم دفنه في مقبرة الدير المجاورة لسوره الشرقي فحُفر له قبر عميق دون شاهد كما أوصى ثم أُنزل فيه تابوته ثم أعاد الرهبان ردم القبر بالتراب مرة أخرى إلى أن تساوت حوافه مع أرض المقبرة ليُصبحا سطحاً واحداً كما كان الوضع قبل الحفر.. تحرك الجميع نحو ساحة الدير بأثوابهم المتسخة وبشكل مفاجئ أخذوا يتحلقون حول (دانيال) تدريجياً إلى أن أحاطوه ليدخل أحدهم الدائرة بجواره ويقول له بنفسٍ واحدٍ هادئ:

– اسمع يا (دانيال) ربما يكُن في هذا الدير رهُبان أكبر منك سناً فأنت ما زلت في الثلاثينيات وبالحقيقة فهناك من هم تخطوا حاجز الثمانين لكن الجميع هُنا أقر رغبة القديس (خريستوذولس) رئيس رهبان الدير بأن تكون أنت رئيس الرهبان الجديد وقد أرسلنا اليوم خطاباً لقداسة البطريرك في الإسكندرية نطلب منه مُباركة رجاءناً فيك وسيصلنا صكاً منه يقر لنا ذلك فلتكن مُبجلاً ومؤيداً بروح الله يا أبانا.

توقف الزمن لدقائق ما إن سمع تلك الكلمات خارجة من فم ذلك الراهب.. لقد صُعق وهز رأسه نافياً غير مُصدق ولكنه بعد أن أُعيد عليه نفس القول مرة أخرى جثى على ركبتيه متوسلاً للجميع

عدم إقرار الأمر لكن ما كُتب قد كُتب إنها وصية الأب المتوفى منذ ساعات وقد وافقه عليها جميع رهبان الدير فشعر وكأنما يُساق للتهلكة رغماً عن أنفه فرفع رأسه نحو السماء صارخاً:

– أيها السيد الرب أنت تعلم كم أُحِبك.. أنت تعلم كم أُحب أن أتحمل عذاب الأخرين كما فعلت أنت.. لكنك عرفت كيف تفعل ذلك أما أنا فلا.. يا (يسوع) أنت ترى كم يمتلئ العالم هُنا بالتعاسة والألم وأنا لا أستطيع تحمل كُل هذا بمفردي.. قُل لي ماذا عليّ أن أفعل؟

أخذ الرهبان يقتربون منه ثم حملوه نحو غرفة رئيس الرهبان الفارغة وأقعدوه على كُرسيه ثم أحضروا طستاً به ماء فغسلوا له قدميه وهم ينشدون بصوت مُتشقق حزين:

– البئر عميقة ولكن ماءها طيّب عذب.. يا رب أرحم.. الباب ضيّق والطريق كَرِبَة ولكن المدينة مملوءة فرحاً وسروراً.. يا رب أرحم.. البرج شامخ حصين ولكن داخله كنوز جليلة والصوم ثقيل صعب ولكنه يوصِّل إلى ملكوت السموات.. يا رب أرحم.. فعل الصلاح عسير شاق يا قديسين الله ولكنه ينجِّي من النار برحمة ربنا الذي له المجد.. يا رب اعِنا واحفظ رئيس ديرك المُبارك.

- ٥ -

في صباح اليوم التالي قام (دانيال) من على كُرسيه الذي ورثه لتوه من القديس المتنبح البار (خريستوذولس) وهو الذي لم يُحرك ساكناً طوال الليل حيث جلس مشدوهاً داخل غرفته الجديدة لا يعلم ماذا يُمكنه أن يفعل.. إنه يشعر بكم هائلٍ من الحيرة وترتجف روحه خوفاً من عِظم تلك الأمانة التي أُلقيت على عاتقه فجأة دون رغبة منه.. وعلى أي حال فقد هم بالخروج في ساعة مبكرة قاصداً قاعة الصلاة حيث يعلم بانتظار بقية الرهبان له هُناك ليقود بهم أول قُداس كرئيس لدير رهبانيتهم.. خطى بهدوء نحو بوابة القاعة المفتوحة إلى أن وقف على خط عتبتها الفاصل بينها وبين الردهات الخارجية فعندما رأوه الرهبان الجالسين على المقاعد الخشبية بالداخل قاموا احتراما لنيافة الأب المُبجل رئيس رهبان الدير فأشار لهم بالجلوس ثم أكمل مسيره حتى وقف أمام منصة العِظات التي يقف عليها الأباء ليعظوا الزوار القادمين من أجل هداية أرواحهم أو حتى ليعظوا إخوتهم الرهبان إن اشتدت عليهم تجارب الشرير وعلى غير المتوقع لم يصعد (دانيال) لأعلى المنصة ليبدأ عظته لكنه جلس على درجات سُلمها بينما الجميع يُراقبونه بتعجُب إلى أن قال:

– من يرى فيكم أنه أهل لهذا فليرفع يده.

نظر الرهبان بعضهم لبعض ولم يرفع أحد منهم يده طالباً رئاسة الدير بل أقروا مُجدداً اختياره كرئيس لهم وعندها وضع كفيه على وجهه متحسراً ليخاطبهم بعد ذلك متحسراً:

– لماذا تفعلون هذا بي؟ من قال لكم أنني أقوى على هذا؟ من قال لكم أنه يُمكِنُني حمل صليبي وصلبانكم.. حمل عذاباتي وعذاباتكم؟ من قال لكم أنني مسيح؟

تعالت همهمات الرهبان مُحدثين بعضهم حول عدم إمكانية اختيار رئيس أخر غير الموصي به وزادت نبراتهم حِدة إلى أن قاطعهم قائلاً:

–ها أنا قد قبلت بغير فرح ولا غِبطة ولكن ليُتم الرب مشيئته.. لكن لي شرط وحيد وهو أنني لن أُقيم في غرفة الأب الجليل (خريستوذولس) ليوم واحد بعد الآن بل سأعود لغرفتي بالطابق العلوي من الدير رفقة الأب (أبانوب) كما كان الوضع في السابق وكُل من يحتاجني فأنا معه والحق أقول لكم أيضاً أنني لن آكل كسرة خبز زيادة عن ما تأكلون ولن ألبس ثوباً من قطن أو حرير ولن أضع عطراً أو أمسك صولجان فإن قبلتم وأقررتموني على ذلك فأنا خادمكم قبل أن أكون رئيسكم وإن لم تفعلوا فليذهب الرب عني هذا المجد غير المستحق له.

سادت بعض لحظات الصمت عقب انتهاءِه من الكلام ليهز الرهبان رؤوسهم مُقرين ما أراده ومتهللة وجوههم رضا بما سمعوه وعندئذ صعد إلى المنصة وجلس على كُرسيها وبدأ عِظته الأولى قائلاً:

– بسم الأب والابن والروح القدس إله واحد أمين.. فلتكن أول عِظة تجمعنا هُنا عن سبب الرجاء الكامن فينا.. عن أثر المحبة التي تجمعنا بالله.. عن التضرع والصلاة فما رأي إخوتي؟

هتف الرهبان مُجيبين:

– مُبارك أنت في العالمين يا أبانا

فهز رأسه مستدركاً:

– قال القديس (باسيليوس الكبير): الصلاة التصاق بالله في جميع اللحظات والمواقف فتصبح الحياة صلاة واحدة بلا انقطاع ولا اضطراب.. وتمتاز حياتنا كمؤمنين بأنها طريق موصول مع الرب فالراهب والراعي والتابع يمكنهم التحدث مع الله بشكل يومي دون حواجز تمنع أو مسافات قد تحجب عنهم ذلك الوصل وهذا ما نسميه بالصلاة.. إنها بمثابة الهواء الذي نستنشقه فكما أن الجسد

بدون هواء يموت هكذا الروح بدون صلاة تُطفأ وتفنى أيضاً.. إنَّ للصلاة قوة عظيمة فإن سَجَدتَّ على الأرض وصليت فأنت تُحرك السماء وتجعل يد الله تُفتَح وتصنع المعجزات

سكت لبرهة ثم تابع:

– أرى أن لكل ثلاثة منكم إنجيلاً وضع أمامهم.. إذن فلتفتحوا أناجيلكم على الإصحاح الثامن عشر من إنجيل (لوقا) وليقرأ أحدكم بصوت عالٍ الآيات من الرقم تسعة إلى الرقم أربعة عشر.

فتح الجميع نسخ الأناجيل الموضوع أمامهن على سطح الطاولة المقابلة لمقعد كل منهم ثم قام أحدهم ليقرأ مُرنماً:

– " صَعِدَ رَجُلانِ إِلى الهَيكَلِ لِيُصَلِّيا، أَحَدُهما فِرِّيسيّ والآخَرُ جابٍ فانتَصَبَ الفِرِّيسيُّ قائِماً يُصَلِّي فيَقولُ في نَفْسِه: " اللَّهُمَّ، شُكراً لَكَ لِأَنِّي لَستُ كَسائِرِ النَّاسِ السَّرَّاقينَ الظَّالِمينَ الفاسِقين، ولا مِثْلَ هذا الجابي. إِنِّي أَصومُ مَرَّتَيْنِ في الأُسبوع، وأُؤَدِّي عُشْرَ كُلِّ ما أَقتَني " أَمَّا الجابي فوَقَفَ بَعيداً لا يُريدُ ولا أَن يَرفَعَ عَينَيهِ نَحوَ السَّماء، بل كانَ يَقرَعُ صَدرَه ويقول: " اللَّهُمَّ ارْحَمْني أَنا الخاطئ! " أَقولُ لَكم إِنَّ هذا نَزَلَ إِلى بَيتِه مَبروراً وأَمَّا ذاكَ فلا فكُلُّ مَن رَفَعَ نَفْسَه وُضِع، ومَن وَضَعَ نَفْسَهُ رُفِع. "

جاء صوت (دانيال) من أعلى المنصة متداخلاً مع صوت الراهب الذي يقرأ الإصحاح ليسمعه قائلاً:

– أحسنت يا أبتِ وبوركت يا رجل الله.. هذا ما أردت أن يسمعه أخوة الرب هُنا.

ثم أشار له بالجلوس ليستكمل حديثه:

–إن تأملنا تلك الآيات التي قُرأت من إنجيل (لوقا) تواً نجد نوعين من الناس ونوعين من القلوب ونوعين من الصلاة أيضاً.. فالصلاة الأولي يا أخوتي صلاة الافتخار أما الثانية فصلاة تضرع ورجاء.. إن الشخص الأول يُعَدد حسناته وأعماله بكبرياء وتركيز مقيت على الذات وأما الثاني فيقرع على صدره نادماً على كل الذي أرتكبه من خطايا.. لهذا فشَتّان ما بين هذين الشخصين وبين بداية ونهاية كُل منهما فالشخص الأول ابتدأ صلاته بدافع هوى النفس وحبها للخيلاء وكأنه يريد أن يُسمع

العشار الذي بجانبه أنهُ أفضل منه وأنَّ صلاته هي الصلاة المقبولة لكن الكتاب يقول أن العشار المسكين رجع مُبَرّرا وتيقن من خلاصه كل اليقين وإننا نتعلم دروساً هامة من صلاة الفريسي والعشار دروساً تقودنا في صلاة فعالة وحارّة تؤثر في الأجواء الروحية وتخترق السماء وتعلن لنا أفكار الإله البار

رفع أحد الرهبان يده طالباً طرح سؤاله فسُمح له:

– لقد شعرت وكأنما تُخبرنا بطريقة ما أن الفريسي من داخله خاطئ ونجس وإن قلبه مظلم ويسكنه كِبر وكل شيء فيه رجس.. أيُمنع على المتضرع لله ذكر حُسن أعماله أو مدى محبته للإكثار من الصلاة والتعبد له؟ حتى وإن كان بينه وبين نفسه كنوع من تقوية النفس يا أبتِ؟

فأجابه قائلاً:

– إن الإنسان المتواضع يجد نعمة في عيني الله فالكتاب يقول: "يقاوم الله المستكبرين وأما المتواضعين فيعطيهم نعمة " ويقول كذلك: " القلب المنكسر والمنسحق يا الله لا تحتقره ".. فالله ينظر إلى الدافع وراء الصلاة وإلى القلب وليس إلى الشفاه فإذا أتينا بقلب متضع ومنكسر فسننال البركة ففي الصلاة أنا أعلن عجزي أمام الرب وأصَرّح بحاجتي له.. ولذلك فقد كانت صلاة الفريسي بمثابة تعداد لكل حسناته وأعماله ونرى فيها تركيز شديد مجد النفس فهوَ لم يذكر فضل الرب ولم يذكر الآخرين في صلاته فقلبه كان متكبراً ومتجَبّراً ولقد قادهُ هذا الموقف إلى الابتعاد عن الرب وإنكار فضائله المتكررة وإن التكبر وهذا مكروه لدى الرب فهو يحب المتواضع الذي يعترف بمحدوديته.. اعلم يا أبتِ أنه عندما نكون في محضر الرب فإننا يجب أن نُرجع كل الفضل له فنحن بدونه لا نستطيع أن نفعل شيئاً الكُل لهُ وبه ومن أجله.. لذا يجب أن نسكب كل شيء عند قدميه فتعبدنا وخدماتنا لأسمه مهما سَمت ما هي إلا نُقطة في بحر محبته وتلقائياً عندما نتضع أمام الله فإننا ننظر لباقي الناس بنظرته هو ونحبهم بمحبته ولا نحسب أنفسنا أفضل منهم فكلنا في نظر الله خطاه بحاجة إلى التوبة.. لقد نظر هذا

الفريسي إلى أعماله وبِرّهِ الذاتي وتفاخر وتعَظّم في ذلك لكن كما قلت لك فإن الله يهتم بِبرِّ القلب فلا تُعدد أبداً عملك الحَسن فتقع في دوامة خلاص زائف لكن حرصك لأن تكون مع الرب يُبقيك مُتضع ومحمي فكلما ركزنا عليه وامتلأنا منه فإننا ننقص وهو يزيد ونرى الآخرين من خلاله ونحبهم ولا ننظر إليهم بعيون الدينونة والحكم بل بعيون المحبة والرأفة والتفهم.

وما أن أنهى (دانيال) كلامه حتى رفع راهب أخر يده طالباً طرح سؤاله فأشار له بالبدء ليقول:

– كيف لي يا أبتِ أن أسمع صوت الله؟

أجابه رئيس الدير من فوق منصته:

– عندما تصعد الجبل

تعجب الراهب من الإجابة وقال متحرياً:

– أي جبل تقصد؟

فسمعه يقول:

– جبلك أنت.. الجبل الذي ترتفع قمته بداخلك كل يوم.. تغلب عليه وأصعد لتسمع صوت الله.

فسأله مرة أخرى:

– سامحني يا أبت فأنا لا علم لي بما تقصد

ابتسم (دانيال) وخاطبه متوجهاً نحوه:

– عندما نتأمل في حياة (موسى) النبي فإننا نرى الطفل الذي نجا بمعجزة من أمر فرعون بأن يُقتل كل ذكر من الشعب العبراني وكيف وجدته ابنته وأخذته ابناً لها ومن ثم كيف قتل الحارس المصري وهرب إلى مدين حقاً يا لها من تركيبة عجيبة تثير الدهشة في حياة (موسى) ووسط كل هذه الفوضى والضوضاء التي قامت في حياته وبينما كان يرعى الغنم في البرية قاطعه صوت الرب من خلال عليقة مشتعلة بالنار ووَكَّلَهُ بمهمة تحرير شعبه من العبودية في مصر وقد نكون في مرحلة معينة في حياتنا

مثل موسى خائفين هاربين ضعفاء ومترددين لكن عندما يقاطعنا الرب ويتكلم لنا بصوته فنتحول تحويلاً جذرياً ونمتلأ قوة ونذهب لنتمم أمر الرب.. فصوت الرب دائماً يعطي قوة يزيل التشويش والاضطراب صوت الرب يمنح السلام صوت الرب يرشدنا لنقرر قرارات حكيمة وحتى نسمع هذا الصوت نحتاج أن نفصل أفكارنا وقلوبنا عن ضوضاء العالم وهنا نحن محتاجين أن نصعد الجبل وننفرد بالإله.. ويُقَدّم لنا (المسيح) بنفسه مثالاً على ذلك فبعد أن خرج إلى الجبل ليصلي وبعد أن أمضى الليل كله بالصلاة دعا تلاميذه عندما كان النهار وأختار منهم اثني عشر.. لم يحتَر (يسوع) في ذلك ولم يربكه اختيار التلاميذ لأنه كان مُقاداً بالروح وكان قراره لاختيارهم مشَبَّعاً بالصلاة طوال الليل.. فبمثل ذلك فلنعمل يا أخوتي فعندما يحاربنا الشك والخوف وتحيط بنا التجارب.. عندما نظن أنّ الإله لا يرانا ولا يسمع أنين عذاباتنا لابد أن تتقدم ونصعد الجبل ونخطو خطوة نحو امتلاك الأمان، الفرح والقوة.. فقط فلنثبت عيوننا نحو الجبل ولنصعد جميعنا إليه لنتمتع بلقاء الإله الحي الذي يُغَيّر ويُحَرّر فيسمع رجاء قلوبنا ويُسمِعُنا صوته حتى نعيش تحت ظل نعمته.. آمين.

ظل (دانيال) يطرح رؤاه على جمع الرهبان المحتشدين في قاعة الصلاة حتى منتصف النهار ثم سمح لهم بالانصراف بعد تلك الجلسة الأولى الطويلة التي جمعتهم ليس كراهب مع إخوته في الرب بل كراعي مع شعبه وبدأ كُل شيء بعد ذلك يسير تدريجياً كما كان في السابق وتزايد عدد زوار الدير بصورة أكثر كثافة عن ذي قبل فبعد مرور شهر ونصف من توليته لرسمه رئيساً للرهبان قطعت إحدى السيدات مسافة تُقدر بعشرات الفراسخ من مدينتها الواقعة في قلب دلتا النيل قاصدة نواحي الدير الواقع أقصى شمال الصحراء الغربية عبر مرافقتها لإحدى القوافل طالبة من الله شفاء ابنتها الرضيعة ففي أحد الصباحات ترشح ضوء رمادي مُضبب عبر شقوق بوابة الدير متزامناً معه طرقات متتابعة خفيضة صادرة من يد مُنهكة صحبتها صرخات مكتومة لسيدة تتوسل الدخول فسمع الراهب حارس البوابة صراخها وإذ كان ذلك في وقت غير مناسب فغضب وفتح البوابة ثم أخذ

ينتهرها حيث أنه من غير اللائق خلق ضجيج كهذا بالقرب من السور ولكن بعد نقاش طويل واستجداء وافق ذلك الراهب على اصطحابها لمقابلة رئيس الدير في قاعة الصلاة كما اعتاد هو على مقابلة الزوار هُناك.. فدخلت السيدة المكلومة للقاعة حاملة رضيعتها التي لم تبلغ الثمانية أشهر بعد وجلست على أحد المقاعد تنتظر وصوله وما هي إلا دقائق حتى أُبلغَ (دانيال) بالأمر فنزل من قلايته العلوية لساحة الدير ثم توجه للقاعة ففتح الباب وتقدم نحوها وباركها ثم جلس مُقابلاً لها وقال:

– ما بكِ يا أمة الله؟

فلم تُجبه ولكنها بكت دموعاً حارة شقت أخاديد حزن عميقة على خديها أثناء سيلانها فأخذ يهدئ من روعها إلى أن سكنت للحظات ثم تكلمت مرتعشة:

–اسمي (دميانة) يا أبتِ.. أبلغ من العمر سبعة وثلاثين عاماً أقيم في القسم الشّماليّ الغربيّ من دلتا النيل وقد قطعت كُل تلك المسافة راجية من الله أن يهبني مُعجزة لا من أجل بل من أجل طفلتي فأنا غير مستحقة الرحمة ولكن كل الرجاء أن يصنع الله عجائبه وليتمجد من أجلها

– فلتحكِ لي إذن!

أخذت نفساً عميقاً أتبعته بشهقات متقطعة تلك التي تأتي بعد بكاء شديد لتبتلع معها ما تبقى من دموعها المُنسابة ثم قالت بصوت متحشرج:

– لقد بقيت لمدة إحدى عشرة سنة من دون أن أحبل وكنت أستجدي العذراء المقدسة دائماً في صلواتي لأنها أم شفوق سريعة الاستجابة ودائمًا ما ساعدت النساء العاقرات على الحَبل وقد وعدتها أنّه إن كان المولود بنتاً فإنني سأسميها (مريم) تيمُناً بها وكنت أذهب باستمرار إلى الكنيسة وأُضيء شمعة أمام أيقونتها وبعد سنوات من الصلاة أخيراً سَمعت القديسة رجاءات قلبي المُلتاع فحبلت بعد أن كان اليأس يُراودني من كُل فج.. أما عن الكيفية التي تم بها الأمر فهي عجائبية يا سيدي

اعتدل (دانيال) في جلسته وأقام ظهره من استناده على خلفية المقعد وانحنى نحوها واضعاً مرفقيه على ركبتيه في إشارة لمدى اهتمامه بما يسمع ثم حثها على الاستدراك لتقول:

– لقد حملت وولدتُ تلك الصبية خضراء العينين شديدة نقاء البشرة التي سكنت أفئدة جميع من رأوها وقبل أن يهبني الله عطيته رأيت بإحدى ليالي الشتاء أثناء نومي أنني أقف أمام جبلاً عظيماً يقف عليه أساقفة قدّيسون كُثر مقبلون نحوي بعكاكيزهم الذهبية تُحيط بهم حلقات متداخلة من أطفال عُراه متشابكين الأيدي وظهرت العذراء فوقهم مُحلقة في نورٍ باهرٍ وعظمة لا توصف تحيط بها ملايين من الملائكة رافعين رؤوسهم نحوها ويرنمون بلا انقطاع ثم أحسست بيدين تتلمساني وتتحسسان بطني فاستفقت صارخة ومتسائلة من كان يلمسني بهذه القوّة فرأيت من زاويتي كرة نارية تشتعل خارج الغرفة ثم ما لبثت أن اختفت فظننت أنني أحلم داخلي حلمي نفسه وليس لكل ما حصل أي علاقة بالحقيقة لكني ما إن استدرت حتى رأيت قنديلاً من الزّيت مضاءً بينما الغرفة مظلمة ولا يوجد بها أي قناديل وإذ ما كانت لا ازال متعجبة أيقظت زوجي النائم بجواري وسألته:

– من الّذي أحضر قنديل الزّيت هذا إلى هُنا؟

وإذ ظن أنني أهذي أخذ ينهرني مشيراً لي أن أصمت وأخلد إلى النوم إلا أنني استمريت مصره أنه باستطاعته أن يرى قنديل الزيت معي بالفعل كما أراها حتى أُثبت له ولنفسي أنني لست موهومة ثم هززته مُجدداً إلا أن استفاق ليرى ذلك القنديل مُضاءً ومُعلقاً على الجدار المقابل للسرير وعندئذ أيقن أن في ذلك تدخلاً إلهياً فقام على الفور ثم بعد قليل نظر بفضول إلى وجهي ورأى أن لون عيناي قد تغير وأصبح لي عينان خضراوين في حين أن عيني الأصليتَين كانتا جوزيّتَي اللّون.. فلما أخبرني بذلك اتجهت نحو الطاولة الموضوعة في ركن الغرفة وسحبت من عليها مرآة كنت وضعتها هُناك في صباح اليوم السابق وما إن نظرت إليها حتى تأكدت من كلامه وفي غمرة الفرح والخوف ظهرت العذراء القديسة أمامنا للحظات واقفة على عتبة الباب مُحاطة بأولئك الأطفال الصغار العُراه ثم اختفت ثم

واختفى معها القنديل فأخذت أصرخ بصوت عالٍ وأبكي وأمجد الله وأدعو باسمها وكذلك فعل زوجي ثمّ أخذنا نصفق معظّمين الكلية القداسة وبعدها بشهر بدت أعراض الحمل جلية فسجدت لله شكراً على ما أنعم لكني نكثت بوعدي الذي قطعته مع العذراء وسميت المولودة (سيلين) تيمُناً باسم أمي وما إن بلغت الطفل شهرها السابع حتى أخذت تنزف دماً من عينيها وأذنيها دون أن تصرخ أو تتألم ولم يتمكن أي طبيب من إيجاد دواء ما يُمكنه وقف هذا النزيف فأيقنت أن العذراء غاضبة فصليت وصليت ولكنني أشعر أنها لن تقبل صلاتي فأتيت إلى هُنا لكي أطلب شفاعتك يا أبتِ لعل مجد الله يتجلى على يديك.

وبينما هي تسرد ما حدث لها على مسامعه كانت الرضيعة لا تكف عن مص إبهامها ثم بدأت عينيها بالنزيف وهُنا صُعق (دانيال) مما رآه وعادت الأم للنحيب مرة أخرى فما كان منه إلا أن حمل طفلتها وتقدم بها نحو صورة العذراء المُثبتة على حائط في نهاية القاعة والتي تظهر (المسيح) بين ذراعي والدته التي تحتضنه بشكلٍ وثيق لدرجة أن اليد اليسرى للسيد تُحيط بها بالكليّة.. إن القديسة في الأيقونة تنظر إلى جموع المؤمنين ولكن دون أن تنفصل عن ابنها المرتبطة به ارتباطاً وطيداً فلا تستطيع الكلمات وصف نظرتها في هذه الأيقونة ففيها الحياة والموت وفيها القيامة والأبدية حتى أنه مما يُقال ويتناقله الرهبان هُنا أن القديس (لوقا) كاتب الإنجيل صوّر هذه الأيقونة بنفسه أثناء حياة العذراء وحملها إليها فلمّا عاينت رسمَها عليها ردّدت قولها:

- " ها إنّه منذ الآن تطوبني جميع الأجيال "

وأضافت:

- " لتكن نعمتي ونعمة المولود مني مع هذه الأيقونة "

ولكن بغض النظر عن صِحة ما يُشاع فقد وضع (دانيال) الرضيعة أرضاً أمام تلك الصورة ثم وضع رأسه ويديه على الأرض وراح يُصلي بخشوع طالباً عزاء الرب ورحمته فكان يتمتم بوجل:

– يا مَن هو في كلِ وقتٍ وفي كلِ ساعةٍ في السماء وعلى الأرض مسجودٌ له وممجد أيها الإله الطويل الأناة الكثير الرحمة الجزيل التحنن الذي يحب الصديقين ويرحم الخطاة الداعي الكلَ إلى الخلاصِ بموعد الخيراتِ المنتظرة.. أنت يا رب تقبل منا في هذه الساعة طلباتنا وترشدنا إلى عملِ وصاياك.. يا رب قدس أرواحنا طهر أجسادنا قوم أفكارنا نَق نياتنا نجنا من كل حزنٍ وشرٍ ووجع.. يا رب لتتمجد وتُظهر سلطانك وتُذهب البأس عن هذه الرضيعة يا رب لـ...

لم يستطع (دانيال) إكمال صلاته لأن صوت بكاء الأم طغى على سكون القاعة فتقدمت وركعت بجواره ورفعت يديها لأعلى مُخاطبة السيدة العذراء بصوت مُنتحب:

– أيتها الصِديقة الطاهرة النقية العادمة العيب البريئة من الأدناس يا زهرة عدم الفساد يا من بمولدكِ المُعجز أتحدت كلمة الله بالبشر جاعلة طبيعتنا الناقصة مُقترنة بالسماويّين يا رجاء من ليس لهم رجاء سواكِ وحدكِ.. يا من هي معونة للمحاربين ونصرة مستعدّة للمسارعين إليها يا ملجأ كل المسيحيين لا ترذليني أنا الخاطئة المدنسة بقبح الأقوال والأفعال بجملة ذاتي.. فلتتحنني بتعطف عليّ وأقبلي من شفتيَّ الدنستين ما أقدمه إليك من الابتهال.

أخذ رنين شهقاتها يتصاعد لأعلى سقف قاعة الصلاة حتى بدى لمن هم خارجها بأن أمراً جللاً يحدث بالداخل فمن استطاع من الرهبان أن يُراقب ما يحدث عبر زجاج النوافذ فعل ومن تشجع ودخل للقاعة فعل ثم خيم صمت مُطبق ثقيلاً كئيباً لا مقياس له فتكاد تسمع في تلك اللحظات أصوات خفقان قلوب كُل من في القاعة وربما ستسمع أيضاً صوت امتصاص شفاه الرضيعة لإبهامها.. الجميع يُراقبون بعضهم البعض وأنهم ينتظرون شيء ما سيحدث.. استمر الجميع في المُراقبة ويا للمعجزة!.. لقد رأوا الصورة المقدسة تهتز وتبكي!.. أخذت الدموع تسيل من عَيني أيقونة السيدة العذراء المثبتة على الحائط.. الدموع تسيل من عيني (المسيح) أيضاً وفي خِضم هذا الاندهاش الكامل لكل من في القاعة أخذت الدموع المناسبة من اللوحة تسقط على وجه الطفلة المُسجاة أسفلها واستمرت في

الهبوط ببطء للأسفل لتصطدم بوجنتيها الرقيقتين لتزيل عنهما أثار الدماء التي نزفتها مُقلتيها الخضراوين بينما حرك (دانيال) يده اليُمنى في الهواء راسماً الصليب على صدره ثم أسند يده الأخرى علي المقعد الخشبي المجاور له ونهض بخفوت دون أن ينبس بكلمة واحدة واكتفى بمشاهدة المعجزة التي يراها الآن رفقة بقية الرهبان..

ما (دميانة) أم الطفلة فقد كان جفنيها المُبتلين بدموعها يرتطمان ببعضهما بوهن حينما وضعت ساقيها الشبيهتان بساقا الهرة لتنهض غير مُصدقة ما تراه آخذة معها ردائها السميك الذي سقط خلفها لتلف به كتفيها ثم تقدمت بخفة نحو رضيعتها التي كانت تحدق في تفاصيل السقف دون اكتراث للوقائع العجائبية التي تحدث حولها فأمسكت بها واحتضنتها ثم وضعت شفتيها فوق جبهتها الصغير وقبلتها بشغف ومحبة طاغية لترجع بعد ذلك خطوة واحد إلى الوراء وتنحني إجلالاً للعذراء المباركة أمام أيقونتها الدامعة ثم ألتفتت نحو الرهبان الذين يراقبون المعجزة لحظة بلحظة من خلفها وقالت:

– فليشهد الله ولتشهد جموع القديسين والملائكة ولتشهد الكنيسة أنني سميتها (مريم)!

- ٦ -

توقفت الصور عن التتابع وأصابها تشويش أفسد جمال ألوان المشاهد فلم يستطع (يونس) رؤية نهاية حبكات تلك القصص التي عُرضت عليه مُجبراً ولكنه الآن يجتاحه شغف عظيم لمعرفة مصائر أولئك الأشخاص الذين عايشهم لساعات وشاركهم أجزاءً متقطعة من تلك الحياة التي عاشوها بكل ما تحويه من متناقضات وخوارق.. رافق ذلك رذاذ خفيف تحول ببطء لمطر لاذع البرودة فمع كلّ قطرة مطر تسطر نقطة استفهام على سطح نهر الأسئلة الذي يفيض الآن داخله

– هل أنا مدعو للإجابة؟ أم أن التيارات العاتية تمسح كلّ شيء على سطح ذلك النهر؟

إنه يرتكن على حائطه حائراً لا يعلم كيف يمكنه تفسير كُل تلك التفاصيل بينما يُتابع المطر الهطول فتسقط ألف قطرة وألف قطرة أخرى على مساحة قلبه الشاسعة تلح بعنف على افتكاك الأجوبة منه.. لكنه لا يُمكنه ارضاؤها لأنه لا يمتلك أي إجابة يُمكنها أن تُفسر عالمه المختل الذي يخرج منه ليقع فيه وللحظة ما أصبح راغباً في الاستمتاع باصطدام قطرات المطر على وجهه طويلاً طويلاً حتّى يصبح من الصّعب عليه فتح عينه تحت تلك الزخّات مُتجاهلاً آلاف الأسئلة تحاصر روحه.. شعر (يونس) أخيراً أن رباط قدميه الوثيق بالأرض قد حُلَ وأصبح يمكنه تحريكهما فهم برفع قدمه اليُمنى ولكن لشِدة ثقلها عجز عن ذلك فربما ما زال يشعر ببعض الخَدر فيها وبينما كانت محاولاته تتابع لتحريك قدميه للأمام ببطء عندئذ فُتح باب المنزل المرتكز إلى حائطه مُنذ بداية تلك العروض فنظر لعله يرى شقيقات ذلك الراهب يظهرن مُجدداً ليعوضنه عن هجرهِنَ له بطريقة ما ولكن ما أثار دهشته حقاً أن الخارج من بوابة المنزل كان ذلك العجوز أزرق العينين بنفس هيئته التي رآه عليها أول مرة حاملاً نفس الكتاب المدبوغ غلافه بنقوش أقرب لليونانية كما نعرفها اليوم.. فظل ناظراً نحوه دون أن ينبس ببنت شفه إلى أن اقترب العجوز منه بخطى متثاقلة وقال:

– أراك الرب ما كنت تبحث عنه.. أجابك الرب عن سؤالاتك.. إن أصل شر العالم هو أنت.. وإن أصل خير العالم هو أنت أيضاً .. القدوس لا يُنسب إليه إلا كُل عمل قدوس أما نفسك التي تتركها مطية للشرير وجنوده وكافة الأرواح النجسة فهي بالحقيقة ستمتلئ بالخواء وزفيف الريح إلا إذا فررت إلى الله لا بالعبادة ولكن بالحب فاعلم أن أرواح المحبين تعيش في بستان أحاطه الرب بسياج وما كتبه الرب في الألواح لا يُغيره ابن الإنسان ولا الملائكة القديسين.. أتبع قلبك.

ولسبب ما لا يعلمه أحد إلا هو أخذت دموع (يونس) تنز من عينيه مختلطة مع قطرات المطر المتساقطة ثم يهوي على كتف العجوز ويُقبله قائلاً:

– اوصني وباركني

فيردف العجوز:

– مد ذراعك

عند سماعه ذلك مد ذراعه نحوه مُشمراً أكمام ثوبه فأخرج العجوز قلمه من وسط الكتاب الذي يحمله ثم وضع سِنهُ على طرف لسانه ليبلله ليكتب ثلاث كلمات متقطعة على طول

الذراع وتلك الكلمات هي:

(حب – صلاة – بَركة)

ثم نظر إليه ليستدركا حوارهما:

– احفظ هذه الوصايا فإنها لا تُكتب على جسد إلا ويحل فيه عمل الله

– ولكن ما معنى هذا؟

– إن تحقق الحب تحققت الصلاة تماماً كما أراد الله لها أن تُصلىَ وإن تحقق رضا الله حلت البركة.. اذهب واكتفِ بعالمك الذي بين ضلعيك وأصلحه.. اذهب وأجعل يدك تعانق أيدي أحبائك بوداعة وخوف.. اذهب وكن معهم فساعتكَ قد حانت.

ارتفع أذان الفجر من كل ناحية وصدح صوت المؤذن شاقاً عنان السماء من مُكبرات ذلك المسجد الذي يتوسط القرية مُكرراً تلك العبارة:

– الصلاة خير من النوم

ثلاث مرات وعندها فتح (يونس) عينيه المغمضتين ليجد بصيصاً من ضوء نهار شاحب قد دخل من الكوة الضيقة المُعلقة أعلى جدار غرفة الأب (مكاريوس) وليجد الأب نفسه مُمدداً على أريكته بجوار الطاولة التي على ما يبدو قد نام سانداً رأسه فوقها دون أن يدري متى وكيف حدث ذلك.. بدأ النبض يضرب رأسه من الخلف ماراً عبر الصدغين ليصب فوق جفنيه دافعاً إياه لفرك عينيه المحمرتين ليحملق بعد في الجدران الداكنة المكبلة الزوايا بضوء ذلك المصباح الأصفر المرتعش وقد اكتسحت وجهه غلالات العرق ثم رمش قليلاً ليُمكنه رؤية ما حوله بصورة أوضح ليرى طبقاً خزفياً وضع فيه أربعة من شطائر العسل ولكن بلا شك يبدو أنها باردة فمثل تلك الشطائر لا تكف رائحة السكر المكرمل داخلها عن الانبعاث طالما كانت الحرارة بداخلها لا تزال متقدة فمال نحو الأب المُمدد فوق الأريكة وهزه مرتين بوتيرة سريعة ليهب من نومه فَزِعاً ودون أن يمهله سأله مستفسراً:

– أين أنا يا أبتِ؟

تنفس (مكاريوس) بعمق مُحاولاً امتصاص أثر إيقاظه بتلك الطريقة ثم مسح لعابه السائل على جانب فمه بطرف كُم جلبابه ومرة أخرى لم يمهله لاستعادة توازنه ليسأله مُجدداً:

– أين أنا يا أبتِ؟ ماذا حدث للقرية؟

سرعان ما اعتدل الأب الكاهن في جلسته ليقول بصوت مبحوح:

– لا تخف.. أنت هُنا في الدير منذ الساعة الثامنة مساء أمس.. قل لي ماذا رأيت؟

فأجابه (يونس):

– إن بيوت القرية في أماكنها يا أبتِ لكن الشوارع متاهات ووجوه الناس تغيرت.. قُل لي بحق أين نحن؟.. إنني لم أعد أتذكر شيئاً ولم أعد أفرق بين العوالم؟ ما هو الواقع وما هو الزيف أنا لا أعلم!

– لا عليك يبدو أنك رأيت أحداثاً كثيرة أثناء نومك.. كُل شيء على ما يُرام وأهل القرية لم يتغير فيهم شيء مُنذ أن غفوت

– ما الذي جاء بي إلى الدير يا أبتِ؟

تنهد (مكاريوس) وبلل شفتيه الشاحبتين بلسانه ثم قال:

– أنت أتيت إلى هُنا لتتكلم معي مُجدداً حول شكك وحيرتك في حقيقة العالم وهل إن صلح قلب الانسان حقاً يصلُح العالم؟ لتصل ما قُطع بيننا من حديث في اللقاء الاول..

فتكلمت معك عن أحد الرهبان الذي كرس حياته للحب وللصلاة فأجرى الله على يده معجزات وأصلح به العالم في زمنه.

– لا أتذكر شيء حول ذلك الأمر لكنني سأكون مُمتناً لك إذا أخبرتني باسمه وصفته

– اسمه القديس (دانيال بن هارون الوراق) وسُمي بالوراق لأنه كان يورِّق ويكتُبُ الإنجيل بالخط اليوناني الذي تُتلى به الصلوات في الكنيسة مناصفة مع الصلوات المتلوة بالقبطية.. كان ينسخ (دانيال) الأناجيل المهترئة ويكتبها باليونانية من جديد خِدمة للرب حتى أسماه بعض الرهبان (دانيال اليوناني) وقضى جل سِني عمره يكتب الأناجيل ويرممها حيث كان يتكلم اليونانية والقبطية والعربية.. وكان رئيساً لرهبان أحد الأديرة البعيدة في الصحراء الشرقية وهو أيضاً كان أحد أبناء هذه القرية ولكن أثناء حواري معك أوقفنا كُل شيء وذهبت لأجلب لك بعضاً من شطائر العسل المخبوزة أثناء وجودك في الدير وخلال تلك المدة بين ذهابي لإحضار الشطائر وعودتي للغرفة كُنت قد غفوت فلم أشأ أن أزعجك فتركتُكَ نائماً على الطاولة وجذعك مائل للأمام سانداً رأسك على ظهر كفيك فتركتك وبعد أن فرغت من صلواتي استسلمت للنوم بجانبك.. هذا كُل ما حدث!

ظل (يونس) يستمع لحديث الكاهن مدهوشاً دون وعيه بأن هذا كُله بالفعل قد حدث.. فصمت كلاهما لدقائق إلى أن قطع ذلك الصمت نبرات (مكاريوس) الذي أكمل حديثه مسترسلاً:

– لقد سألتني قائلاً: " هل لكل سؤال إجابة واحدة صحيحة؟ أم هُنالك أكثر من إجابة لسؤال ما؟ وإن كان السؤال لا يمكن لإجابته أن تحتمل معنيين فإما نعم أو لا هل يمكن حينها للإجابة حينها أن الجمع بين الضدين؟ ".. وحينها قلت لك سأُجيبك عن هذا بعد أن أحضر لك بعض الشطائر لكنك غفوت.. وأظنني الآن جاهز لإجابتك.

هز (يونس) رأسه دون أن يتكلم سامحاً له بمتابعة كلامه حيث قال:

–يُحكى أن رجلاً حكيماً عاش في بلاد بعيدة جداً عن هُنا ولكنه أشتهر بين أهالي مدينته بمعرفته لكُل شيء وكان أهل هذه البلاد منقسمون فيما بينهم إن كان حقاً يوجد تنين مُجنح عملاق ينفث النار يقبع خلف ذلك الجبل المُقابل التي تُطل قمته على مدينتهم ومستعد لتدميرهم إن لم يقدموا له الأضاحي صباح كُل يوم.. فكان طرفي النزاع دائماً ما يصنعون جلبة كبيرة وسط المدينة وفي أحد الأيام بينما كان يجلس الحكيم تحت ظل شجرة دراق جاءه أحد المؤمنين الذي ساوره شك عظيم وأشتعل الجحيم بين جنبيه قائلا:

– هل حقاً يوجد تنين خلف الجبل يا مُعلم؟

أجابه المُستنير بكلمة واحدة هي " لا ".. ففرح الرجل وعاد لبيته وهو يعلم أن حياته وكُل ما يملك تحت تصرفه وغير مُهدد بالمرة بأي خطر.. وبعد قليل جاءه رجل أخر يُنكر وجود تنين خلف الجبل ولكنه ساوره شك عظيم أيضاً في ذلك! فماذا إن كان التنين يقبع خلف الجبل فعلاً؟ فسأل الحكيم:

– هل حقاً يوجد تنين خلف الجبل يا مُعلم؟

أجابه المُستنير بكلمة واحدة وهي " نعم ".. فهدأ روع الرجل وأصبح يتصرف بحرص أكثر بحيث إن قام ذلك التنين في صباح ما بحرق المدينة يمكنه النجاة لأنه وضع خطة بديلة في مساء اليوم

السابق.. وهُنا تتضح الإجابة على سؤالك إن كان يُمكن وضع حلين مختلفين لمسألة لا يُمكن تأويلها على قولين.. فالخلاصة أن كُل شيء خاضع لك ولما تشعر به ولما تميل إلى اعتقاده.. الحياة هي منحة خاصة لك ولهذا فلتعش كما تُريد دون أن يُملي أحد ما عليك شيئاً ودون أن تنشغل بإصلاح الناس من حولك.. فقط كما قلت لك سابقاً عليك بإصلاح نفسك.

ما أن أنهى القِس حديثه مع (يونس) حتى استأذنه الأخير قائلًا:

– علي العودة للمنزل.. علي اختبار الطرق.

ليخرج بعدها راكضاً من الغرفة مُتجهاً لصحن الدير ومنه إلى شوارع القرية ليستكمل ركضه نحو الحي الذي يقع فيه منزله فيسلك نفس الطرق المعتادة ذهاباً وإياباً ليجد نفسه بالفعل أما منزله دون أن تختل ذاكرته ودون أن يفقد الوصف الصحيح للطرق أو أن يضيع في متاهة لا تنتهي كما حدث معه أثناء نومه وحينئذ جثى على ركبتيه أمام عتبة المنزل سائلاً نفسه:

– كيف وصلت لوسط القرية دون أن أذكر أنني فعلت ذلك؟ وكيف رأيت ما رأيته دون أن أعيه؟ ومتى ذهبت للدير؟ ومتى غفوت وكيف أفقت؟ ولماذا خرجت من غرفتي بالأصل؟ أنا لا أفهم أي جزء من أجزاء تلك القصة التي لا أستطيع تمييز بين روابط بدايتها ونهايتها ولا يمكنني التأكيد على أي جزء منها كان هو الحقيقة وأي جزء كان وهماً!

وبعد الكثير من الأسئلة والكثير من طرح الافتراضات أمسك رأسه بيديه وجلس على الدرجات الرخامية الخارجية للبوابة وكان ذلك في بداية صباح اليوم الثامن لحج الأهالي المُصغر نحو كعبتهم المؤقتة ألا وهي أضرحة أولياء الساحة الخضراء.. وهو أيضاً صباح ليوم الأول لعودة كل شيء كما كان دون مريدين دون دراويش ودون قرع للطبول ليلاً ولكن الأهم بالنسبة له هو أنه يستطيع الآن العودة لمقابلة (مريم) مرة أخرى عند نفس النقطة من سور الساحة الخارجي لكنه قطع عهداً ان لا يُخبرها بأي شيء حدث له وأن يظل الأمر حكراً عليه وحده.. لقد خرج من تلك التجربة يشعر وكأنه

صياد يجلس ساهماً على حافة زورق خشبي بمجدافين قصيرين داخل زجاجة يُمسك بيديه أطراف شبكته التي تتدلى لأسفل من بين قدميه التي يهزهما كما يهز الموج باطن الزورق كان يبدو أن عينيه مُطفأتين لأن نور وجه فتاته التي يُحِب لم يتوهج في مخيلته بعد.. المشهد بالكامل رائق جداً وهُناك شمس صفراء صغيرة تُشرق من جانب السماء ليبدو المشهد كلوحة لطفل طُلب منه أن يرسم بحراً وصياداً وزورق.. صوت النوارس يصطدم بسماكة السقف الزجاجي فيرتد ليعانق أزيز المجاديف الخشبية العتيقة الصادر إثر تجديف صياد أحس وكأن عرض البحر كله ملكه فنسى كُل ما عايشه من ألم عندما تجسد ارتيابه في تلك الهيئات الممتلئة المترهلة الجوانب.. إنه يفكر الآن فقط في مُعايشة تلك المُتع العذبة ولا يود في الغالب توديع تلك الألوان الآسرة للزهور لفروع الشجر ولأجنحة العصافير التي يراها على الضفة المقابلة للشاطئ.. لا يريد مُفارقة الخطوط المزركشة للثياب التي يرتديها التي تُشبه مصابيح الزيت المعلقة أنام بوابات بيته القديم الكائن في جهة ما لا تُعلم إحداثياتها فحتى هو نفسه نسيها إنه يعيش حالة فريدة من الفصام.. حالة سماوية مُنزهة عن الاشتهاء الذي يولد فينا الشعور بالاحتياج.. إنه الآن يمرح يغطس ويشق برأسه خارجاً سطح الماء ثم يبتعد سابحاً في اتجاه عرض البحر فيلتحق بالأحواض المتتابعة ويترك ذاته دون حركة تطفو على الماء متأملاً قناديل البحر الذهبية والفضية العمياء ذوات الرؤوس الرائعة والشعور من الخيوط الحصوية والتي لا تزال دلالتها منيعة عليه.

***

## - الفصل الثالث -

# طواسـين

«طُوبَى لِصَانِعِي السَّلاَمِ، لأَنَّهُمْ أَبْنَاءَ اللهِ يُدْعَوْنَ، طُوبَى لِلْمَطْرُودِينَ مِنْ أَجْلِ الْبِرِّ، لأَنَّ لَهُمْ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ. »

(إنجيل متى، ٥:٩ – ١٠:٥)

- الطواسين: مصطلح صوفي يُشير للسور القرآنية التي تبدأ بـ " طس، طسم"، ويعني أيضاً الإغراق في حالة التأمل والذِكر والذوبان في الحب الإلهي.

- ١ -

إنها الثانية والنصف ظُهراً بتوقيت القرية عجائبية التكوين التي تبدو من الأعلى كباطن قِدر فخاري مجوف مملوء بماء ملون تنعكس صورة الناظر إليه من فوهة القِدر على سطحه لتمتزج مع خطوط أرجوانية وأخرى صفراء وسماوية فتنتج قصصاً محكية مُبهجة ورسوماً حية لوجوه الأهالي.. كانت (سوزان) حينها قد مددت جسدها فوق سريرها المجاور للأريكة التي نامت عليها وهي تحتضن زوجها بالأمس وتضع رأسها فوق وسادتين وينز العرق من جبهتها بغزارة ورغم ذلك تتنفس بهدء وسلاسة دون حشرجة تُذكر ويُحيط ذراعيها بخصرها ويعلو كفها الأيمن فوق الأيسر ليستقرا وسط بطنها المسطح لتبدو كشخصية في لوحة تشير لمرأة ملهمة أو إلهة للحصاد تحمل سلة خوصيه ممتلئة بأغصان الزيتون الخضراء وثمار التفاح الناضجة وتحيطها بضع حمامات مرفرفة فيما أكوام القش تبدو ظاهرة في الخلفية مع مساحات كبيرة خضراء يهيئ للرائي أنها لا متناهية الامتداد وربما تكون هناك رسالة متضمنة في وضعيتها تلك لكنها غير واضحة لكن الشكل البيضاوي لظُلة المصباح المثبت فوق خزانة طولية مزودة بأدراج بجوار سريرها بدا وكأنه يأخذ شكل فراغ اسود فقد يكون هذا أيضا إشارة إلى اقتراب شيء ما.. الستائر الحريرية المعلقة فوق حواف إطار النافذة العلوي تحجب ضوء الشمس بشكل شبه كلي إلا من بعض الخيوط الضئيلة التي تمنح رؤية مقبولة لمحتويات الغرفة المطلية جدرانها بطلاء ذو لون أبيض أو حيادي لا لون محدد له لكنه يشترك مع الأبيض في منح الأجواء القليل من السلام الذي تحتاجه امرأة تحتضر كتلك الممددة الآن فوق سريرها الغارقة في تتبع صور أحبائها التي تظهر لها ملتصقة على طول الحائط كلافتات إعلانية ثم تختفي فجأة لتظهر في مكان أخر من الغرفة.. إن (سوزان) لا تفعل شيء سوى تحريك ذراعيها في الهواء راغبة في الإمساك بجسم ما ثم احتضانه وما إن تفشل في ذلك حتى تضحك ملء شدقيها في مشهد يثير الغرابة فبعد أن تتمتم

بصوت خفيض عدد من الجُمل غير مرتبة ذات معنى مُبهم مُخاطبة أحد ما غير مرئي تعود لتصمت قليلاً ثم تحاول رفع ذراعيها لأعلى مُجدداً ثم تنفجر ضاحكة.. إنها امرأة تحاول طرد هيبة الموت الذي خيمت سحائبه فجأة على سقف الغرفة لتدفعه بعيداً بكل ما تبقى لديها من عزم لتؤجل تيبس جسدها لبضع دقائق أخرى.. إنها تشعر وكأن الأمر برمته ما هو إلا ولادة جديدة يسبقها مخاض جديد لكن يبدو أنها تجرب لُعبة التدافع وجها لوجه مع الموت ربما يُمَكِنُها ذلك من أن ترى وجه (رجب) في تمام الرابعة لتُعانقه بعينيها عناقاً حاراً أخيراً وفي الحقيقة كُل من يُمكنه متابعة هذا المشهد متلصصاً خلال تواجده في بُعد مكاني أخر أو ربما سيمر بجوار حافة خزانة الملابس أحد المسافرين عبر الزمن فيتوقف ليُشاهد امرأة تحتضر وصدى ضحكاتها الذابلة تتردد بين جدران المنزل ليشعر هذا الزائر الافتراضي المتلصص بهالة دائرية عظيمة من الحزن البارد والتوحد تُحيط بجسدها فيمكنه أن يشعر بكم الأسى النابع من قلوب قطع الأثاث الخشبية الصماء الموضوعة في كافة أرجاء الغرفة حتى أنه سيسمع إن اقترب بما يكفي من مُحيط جسدها المُسجى نواح الجدران وسيرى كيف تحتضنها ملاءة السرير الراقدة فوقه كما تحتضن الأم الرؤوم رضيعها الباكي وفي خضم ذلك كله توقفت (سوزان) عن الضحك ومعانقة الفراغ واعتدلت ببطء بالغ على جانبها الأيمن وبلعت ريقها ثم بللت شفتيها الجافتين المتشققتين بلسانها بينما كان بؤبؤي عينيها يرتفعان لأعلى محجريها دلالة على موت وشيك سيقع لا محالة بعد لحظات تُعد على أصابع اليد الواحدة لكنها تماسكت قليلاً ثم قالت بصوت مرتجف مخاطبة احد تلك الخيالات:

– كونوا معه.. لا تتركوه وحيداً أبداً.. أفعلوا هذا من أجلي.

ثم عادت لتنقلب مرة أخرى على ظهرها لترفع سبابة يدها اليسرى نحو سقف الغرفة مشيرة لشيء ما ثم فجأة تهبط يدها بجوارها كصخرة تدحرجت على سفح جبل وتوقف بؤبؤي عينيها عن الدوران لتُسلمَ الروح في تمام الساعة الثالثة عصراً.. وفي نفس تلك اللحظة كان زوجها قد خرج مُبكراً هذه

المرة من مصلحته الحكومية التي يعمل بها ولكن على عكس العادة فهو لم يتوجه لمحطة الحافلات ولكنه خرج متوجهاً نحو سوق المدينة قاصداً شراء جهاز تسجيل وبعض الشرائط الصوتية المُدمجة لمُغنيين قُدامى قد طلبتهم منه زوجته ولكنه أخذ يُماطل مُمتنعاً عن ذلك بحجة أن الموسيقى مُحرمة وأن البيت الذي يُقرأ فيه القرآن لا يجب أن يدخله مزمار أو هكذا خُيل له لكن لا أحد يدري لمَ عزف عن الأمر هذه المرة ليُكمل طريقه نحو حانوت قديم يبيع هذه النوعية من الشرائط إلى أن وقف أمام بوابته الزجاجية فدفعها لتصدر أزيزاً مكتوماً ينم عن الشيخوخة التي ضربت قلب البوابة كما ضربت أيضاً قلب صاحب الحانوت الكهل الجالس خلف طاولة خشبية ومن خلفه تظهر رفوف الشرائط مرتبة حسب اسم كُل فنان مرتدياً نظارته سميكة العدسات التي تكشف عن عينين غائرتين ليتيقن الناظر إليه أنه قد تجاوز الثمانين أو في طريقه لتجاوزها

قريباً فتقدم نحوه وقال:

-السلام عليكم يا خال.. أريد بعض الشرائط الخاصة بأغاني (أم كلثوم) و(ليلى مُراد) وجهاز تسجيل.

وضع صاحب الحانوت يده خلف أذنه ومال برأسه تجاهه ففهم (رجب) أنه يُعاني من ضعف السمع أو كما يُشاع الطَرَش وهو معنى مُرادف للصمم ينتشر بين سُكان القُرى فاقترب منه ورفع صوته ليُعيد ما قال بنفس الوتيرة:

- يا خال.. أريد بعض الشرائط الخاصة بأغاني (أم كلثوم) و(ليلى مُراد) وجهاز تسجيل.

يبدو أن صاحب الحانوت قد سمع طلبه هذه المرة فأمسك عكازه ونهض على مهل ملتفتاً نحو تلك الأرفف الخشبية الممتلئة بشرائط صوتية نادرة لكبار المطربين القُدامى ليسحب أربعة منها بيديه المرتعشتين أثنين (لأم كلثوم) وأثنين (لليلى مُراد) ثم وضع الأشرطة فوق الطاولة وقال وهو يُدقق النظر بهيئة (رجب) الواقف أمامه:

– الحِساب ثمانية وعشرون جُنيهاً.

ثم سحب كيساً بلاستيكياً ووضعهم فيه وقبل أن يُعطيهم له خاطبه مُستدركاً:

– أنت " سُني "؟

فأجابه (رجب) مُبتسماً:

– الحمد لله يا خال.

وكلمة " سُني " في اللهجة الدارجة العامية لأهل مصر لا تعني مُسلم على مذهب أهل السُنة لا بل تعني مُسلم مُلتحي ومتشدد دينياً وهذا في الغالب ما يتداوله العامة فمصر كما هو معروف يدين كافة شعبها من المسلمين بمذهب واحد فقط وهو مذهب أهل السنة والجماعة ولكن انتشرت هذه الكلمة بين الناس للتفرقة بين المُسلم المتشدد – بوجهة نظرهم – وبين المُسلم العامي غير المُتكلف .. فتابع صاحب الحانوت كلامه سائلاً:

– إذن لماذا تريد هذه الأشرطة؟ أليست حراماً؟ أم أن هُناك فتوى جديدة تُبيح السماع للمُوسيقى؟.

استمر (رجب) في التحدث بنبرة صوت مرتفعة وقال:

– لا لم تصدر فتوى جديدة بخصوص هذا الأمر ولكن الله غفور رحيم يا خال.. أم أنك لا تُريد بيع الشرائط لسُني؟

وضع الكهل عكازه جانباً وجلس على كُرسيه ثم رفع رأسه لأعلى وقال:

–كيف يُمكن لشيوخكم أن يُصدروا مثل تلك الفتاوى لتحريم شيء لطيف كالموسيقى؟ لا أظن أن الله سيشاطركم نفس الرأي؟.. إن أغلب الكهول المماثلين لي في السِن يأتون إلى هذا الحانوت متوكئين على عكاكيزهم ليجدوا الونس لدي هُنا في هذا الحانوت.. إنهم يأتون ليهربوا من وحدتهم ليتبادلوا معي الأحاديث ولنضرب على أوتار الذاكرة بكل ما نملك من قوة وسط النغم الصادر من تلك الأسطوانات العتيقة التي تراها تدور داخل الجرامافون الموضوع خلفك.. يأتون هُنا لنُغني سوياً

ويُصبح لكُل واحد مِنا مسرحه الخاص كان فقط ينقصنا وقتها أن يصفق لنا الجمهور.. لذا فأنا لا أعير اهتماماً بما يقوله أهل الفتوى فلا يُمكن أن يُحَرِم الإنسان على نفسه الجمال إلا إن كان فارغاً منه أو ذا نفسٍ قبيحة

ظل (رجب) مُتبسماً يستمع بصبر لما يقوله صاحب الحانوت فهو يعلم أن كِبار السِن دائماً ما يكون لهم نظرتهم الخاصة في كُل شيء وما إن أنهي كلامه حتى دفع إليه ثمن الأشرطة وذكره بطلبه الأخر حيث قال:

– لقد طلبت مِنك جهاز تسجيل أيضاً يا خال أم تراك نسيت؟

فأردف من فوره:

– من هو مثلي لا ينسى وما طلبته ستجده على بُعد مائة متر من هُنا.. أنا أبيع الشرائط فقط أما الأجهزة فهي تُباع في نفس محيط هذا السوق فلا يوجد بائع أشرطة إلا ويوجد بجواره بائع أجهزة تسجيل.. هذه هي الحياة يا بُني إذا وجدت النقطة ألف ستوجد بجوارها النقطة باء.. واعلم أن لكُل نقطة منهم جمالها الخاص الناقص والذي يكتمل فقط حين تجد الطريق الصحيح للجمع بينهما لذلك أرجو أن تكون هذه الأشرطة ذاهبة لمن يستحقها في الوقت المُناسب ليكتمل جماله أو هكذا يُمكنُك أن تراه بعد أن تُسلمها له.

هز الريفي المتزمت رأسه متعجباً من كلام صاحب الحانوت الذي على الرغم من تفشي أخاديد الكهولة على وجنتيه الجافتين إلا أن لسانه لازال رطباً ينطق بالحكمة وقلبه لازال أخضر ينم عن رجل عاش حياة مليئة بالحب والألم في الوقت ذاته ولهذا فقد وعده بأن ينظر مرة أخرى في فتاوى تحريم الموسيقى لعله يجد مخرجاً شرعياً لها فإن كانت الموسيقى حقاً مُحرمة فهي لابد وأن تُفسد طبائع الناس وتُعمق آبار الشر داخلهم فينضح ذلك على وجوههم ولكن ما رآه وسمعه من هذا الكهل لا يدل أبداً على تلف نفس أو انحدار فطرة بل على ارتقاء وتجلي باهر.. نظر نحو صاحب الحانوت للمرة الأخيرة

ثم القى عليه السلام مودعاً ثم خَطى خارجاً نحو أول رقعة من أسفلت الشارع باحثاً عن حانوت أخر يبيع أجهزة التسجيل وبعد بحث لم يدم سوى ثمان دقائق وجد ما يبحث عنه فأبتاع جهازاً وطلب من البائع أن يلُفه له في كيس بلاستيكي أسود اللون حتى لا يمكن لأحد التعرف على ما يحمله فهو لا يظن أن نظرة الناس ستكون إيجابية لإمام مسجد يحمل كيساً به شرائط غنائية وجهاز تسجيل وبعد أن أتم ترتيب كُل شيء توجه لمحطة الحافلات واقتطع تذكرة طُبع عليها كلمة " المقعد رقم ٤ " ثم صعد نحو الحافلة شبه الفارغة التي تهم بالانطلاق نحو قريته فجلس في مقعده بجوار النافذة وما أن أدار السائق مُفتاح تشغيل المُحرك وبدأ في قطع الكيلومترات متجهاً نحو القرية حتى شعر بغصة في قلبه لا يعرف سببها ولكنها تتزايد حتى تكاد تثقب قلبه ثقباً فضبابية الأفق توحي بكآبة ما.. الجو يبدو أنه ينذر بعاصفة ترابية على وشك الانفجار في حلوق الطرقات ووجه السائق رمادي اللون حزين وهذا لا شك نوعاً ما من الإشارات المبطنة التي لا يعلم حتى الآن على ماذا تدل لكن تستمر الغصة في أكل جدار قلبه ويستمر معها زفيف الريح بضرب أفق السماء الأخذ في الاحمرار جاعلاً السحب تتراكم في زاوية ضيقة فتبدو كدمعة متدحرجة على وجنة شاحبة.. وما أن تصل الحافلة لمدخل القرية حتى يهرع (رجب) راكضاً نحو منزله وعندما يقف أمام عتبته ويدير مقبض الباب ويدفعه للداخل ليُفتح يشعر وكأن شيئاً ما تغير فالمكان مُفرط الهدوء كل شيء ساكن وتكاد تكون ذرات الهواء المعبأة بها فراغات الردهة والممرات لا تتحرك هي الأخرى إنه ذاك النوع المخيف من الصمت الذي ينز منه الفزع.. لذلك فبدون الكثير من الترقب أو الإحجام عن استكشاف مدى حجم رهاب الأسى المتفشية روائحه بين الجنبات هُنا وهُناك أنطلق (رجب) صاعداً على درجات السُلم نحو الطابق الثاني حيث غرفة زوجته تاركاً باب المنزل مفتوحاً ليقف أمام باب الغرفة الموارب خائفاً مرتعداً تأكل الظنون كبده الجاف المتصدع من هول تلك اللحظة.. يدفع بيده الباب ليدخل بثبات زائف فيستنشق ما يكفي من رائحة الموت فيعلم أن ما يخشاه قد وقع فيتقدم بخطى متثاقلة نحو

زوجته الممددة على السرير مغمضة العينين المرتسمة على شفتيها ابتسامة رجاء ليقترب أكثر ثم يركع على ركبتيه أمامها ويسقط من يده ذلك الكيس البلاستيكي ليرتطم بما يحويه بأرضية الغرفة ويستقر بجوار ساقه اليسرى المثنية ليكتمل مشهد صفعة الموت الأولى ليصبح نصفه الأعلى موازي لحافة السرير تماماً ويداه ممسكتان بيد زوجته المتيبسة ليقول بوجل:

– (سوزان).. أتسمعينني؟.. (سوزان).. أنا (رجب)؟

يضع يده المرتعشة على رقبة زوجته الآخذة في البرودة جاساً لنبضها ثم لا يلبث حتى تسقط رأسه على صدرها باحثة أذنه اليمنى عن أي صوت داخلي ينم عن حياة.. ظل هكذا لما يقارب العشر دقائق وبعدما أيقن أن زوجته قد انتقلت للضفة الاخرى من النهر قام على قدميه شبه المبتورتين حيث شعر أنه يسير على أقدام بلاستيكية صماء ميتة فسحب كرسياً ليضعه بجوار السرير وجلس عليه واضعاً يده على خده محملقاً في جسد زوجته المسجى أمامه لتنهمر دموعه التي بدت وكأنها بحيرات من حزن مالح تصحبها سوائل أنفيه دون صراخ دون نحيب يذكر في مشهد شديد التعقيد وكأنه طفل أبكم يبكي أمه دون أن يمكنه إخبار أحد عن ما في جوفه من حريق.. إنه حزن هادئ ساكن مسالم جداً وطفولي يليق بامرأة بدت لكل من رآها كقديسة.. امرأة لم يخلقها الله من ضلع أدم بل خلقها من أضواء تلك الثريا المعلقة فوق بوابات الجنة وبينما يغرق وجهه في دموع لزجة والريح تضرب بعنف دَرَفات باب المنزل المفتوحة بالأسفل قال بصوت لاهث مُتقطع:

– ما أعذبكِ أيتها المعشوقة للأبد!.. حتى في موتكِ وادعة مطمئنة يكاد الأقحوان ينبت من بين ثنايا جسدكِ.. لقد جلبت لكِ جهاز التسجيل والشرائط التي طالما أردتِهم!.. هل يُمكنكِ أن تفيقي الآن لنرقص سوياً كما فعلنا بالأمس؟

عاد لبكائه المرير مرة أخرى ثم قال:

– لا تستسلمي.. أعرف مقدار انتظارك لي.. أعرف أنك انتظرتِ عودتي وحيدة بشغف بحرقة وألم.. لا تنطوي وراء غمامة صمتك الجميل.. لا تتركيني وحيداً أُنازع!.. يا إلهي لا أصدق كيف حدث ذلك؟ ألن أراكِ مرة أخرى؟ ليتني أعرف في أي قلعة حزينة رموكِ؟ في أي ركن من أركان هذا العالم التعيس الممتد يجلس يُراقبني ملاك الموت ذو المنجل ضاحكاً دون أن يضرب عنقي لألحق بكِ؟ لقد انتزعكِ الموت كفجر ضبابي القسمات لتتركيني فرداً عاجزاً مُتكسر الأضلع تبحث عن بصيص أمل داخل العتمة.. رحمة القدير تغشاكِ.

سرى عبق الحزن المخملي المتصاعد من خلايا تكوينها الساحر كخدر تلك المساءات التي خلت بينهما وعلى الرغم من موتها إلا أنها بدت مثل حورية قذفتها أمواج محيط شديد الزرقة هادئ لتفتن أو عابر على الشاطئ فتلتحم به ويلتحم بها فتمشي إلى جانبه وهي تتأبط ذراعه.. إنه الآن يحتضر أيضاً ولكن احتضار من نوع أخر أشد سواداً.. إنه يتذكر كُل مشهد جمع بينهما ويتذكر أيضاً كُل جملة خرجت من بين شفتيها الورديتين لتصب في أذنيه فيتذكر حين دخلت الغرفة ذات يوم وهي تبحث عن دفتر صغير كانت تدون فيه كُل ما ينقص البيت من حاجيات لتسأله إن كان يعلم أين تركته ليتجاهل السؤال ويغمز لها بعينه اليُمنى ويقوم ليقترب منها راغباً في احتضانها فترتعش أهدابها يزداد وجيب قلبها ويصدح حلقها بتلك الضحكات العذبة التي بدت وكأنها إضاءات لألعاب نارية تُنير السماوات ببهاء طاغٍ فتميل برأسها على صدره وقد طفت حمرة الشقائق على الخدين تزيد من توردهما فحملها ومشى بها مخموراً بعطرها الفواح الذي عبأ أركان الغرفة ليضعها على الأريكة ويُقبل رُكبتيها بلطف بينما هي تربت على رأسه لسألته وشعرها الطويل الفاحم المُنساب يُغطي بريق رقبتها:

– قُل لي الآن أرأيت الدفتر؟

توقفت ذاكرته عن الحكي وهيمن صمت طويل ثقيل مفعم بالحزن والألم على مُحيطه ليتباطأ الزمن راسماً مساراً عكسياً لتمتد فيه سِكَته على قلوب المغلوبين البائسين الذين تُمتَص صرخاتهم عبر هدير حركات دواليبه العملاقة فتمتد بالتوازي لتلك السِكك ألاف المسافات عبر جسر معلق معلنة رحيل امرأة بدت وكأنها قمراً صغيراً يُضيء غابات العتمة.. امرأة تُشبه وطن ضائع.. امرأة أحبت على الدوام ذكرى وجوه أطفال الحي الذين لم يتخلفوا يوماً عن صُنع الضجيج المغلف بالحلوى تحت نافذة غرفتها.. امرأة عيناها أكثر إشعاعاً ودفئاً من لهيب حفلات الشواء الليلية التي يُقيمها الفلاحون بمحاذاة أحواض حقولهم.. لا تكف خلايا وجدان (رجب) عن التضخم لتطل على العالم من خلال مجهر دقيق يرصد النوايا والأحاسيس لينبثق منها شعور بخوف مريع خوف من كل شيء.. من الأيام والناس ومن الطبيعة والحياة والموت لقد أصبحت فضاءات الغرفة حُبلى بصرير قاتم متعطشاً لشيء ما وبالرغم من ذلك لم تنفك أصابع يده عن مداعبة تويجات وردة الجوري المُخيل له أنها تحيط برأس زوجته فقرّبها إليه واستنشق أريج عطرها بقوة فانتعش وشعر كأنه رجع طفلاً صغيراً وتمنى أن يتحرك ذراعها فجأة لتضمه إلى صدرها كما كانت تفعل حينما يرتجف إثر حمى ألمت به أو إثر هُزال أصاب عظامه لقد كان يتمنى أن يرى الآن ضماداً أبيضاً يلفّ يده أو قدمه أو حتى رأسه لينال أكبر قدر من الاهتمام والدلال فهو يثق أنه حتى رغم موت (سوزان) لكنها قادرة على ضمه واحتضانه إن وقف أمامها تلف الضمادات أجزاءً منه وها هو يحمل ملايين الجروح دون أن يتأوه ولو لمرة واحدة فلم يخلق الله شيئاً أكثر قسوة حقاً من الفقد لأنه لا يُعالج إلا عندما تنبثق أرواح المُلتاعين مُفارقة أجسادهم لتلتحم في أبدية مع أرواح الأحباء المفقودين وهذا ما على (رجب) انتظار حدوثه وحيدا.

ربما طوال ثلاثون عاماً أخرى..

إن الصور المُعلقة على الحوائط مُرعبة! خاصة وإن كانت لعزيز مازالت جثته غضة خضراء لم تلتهمها ديدان القبر بعد فستجد نفسك تبحث عن ملاذ آمن يُمكنك فيه انتزاع أطياف الاشتياق من داخل الأحشاء الكابوسية المتمترسة بداخلك فتنظر إلى جنبات المكان لتجد أنه لا مخرج من الورطة فيضيق المجال وتتدافع الكلمات في حلقك فلا تستطيع نطقها فأحاول من جديد لتفشل في فعل ذلك مراراً لتسقط أرضاً وتجهش بالبكاء فتطاوعك حينئذ الكلمات وتصرخ قائلاً:

لماذا خلقت الألم يا رب؟

- ٢ -

في تمام الخامسة عصراً بجوار سور الساحة كان يُمكن لحواسك أن تتلمس أثر الحجاج الذين طافوا سبعاً حول تلك الأضرحة طالبين المدد والغوث من رب الأولياء الراقدين تحت القباب فيمكنك أن تسمع بقايا ابتهالات وصدى ترانيم وترى حصائر خضراء منسوجة من سيقان البردي فُرشت بمحاذاة اسوارها من الجهات الأربعة وإن بقيت في مكانك لعشر دقائق أخرى كنت سترى ذلك الشاب وتلك الفتاة اللذان لم يرى أحدهم الآخر منذ سبعة أيام مضت.. هي تمشي على استحياء حتى تصل لأريكة مُسنة شاهدة على لقائها الأول مع الفتى الذي اختارته شريكاً لأيامها المطرزة بالصلاة وبدموع والدتها ليلاً عندما تتوسل تحت صورة (المسيح) طالبة منه البركة والنجاة.. أما هو فيتقدم نحوها بعطش بالغ يحكي عن صحراء واسعة ابتلعت كل ما بداخله إثر غيابها فتشعر وكأن قلبه ينزف ورداً وتُفتل في صدره حِبال وصلٍ تبرز من بين اضلعه لتلتف حول خصرها وتجذبها إليه كأفعى تعتصر غزالة.. النار شبت في صدريهما وكل شفة تتحرق لتقبيل الأخرى ولكن على غير المتوقع جلسا على تلك الأريكة بهدوء طاغٍ وافتتح معها (يونس) كلامه دون أن يخبرها عما رأى أو سمع.. دون أن يخبرها عن سلطان يشنق أو راهب يُحيي عنزة ميتة أو شوارع متشابكة البدايات والنهايات لا تؤدي لأي مكان.. لم يخبرها عن كل ذلك وعوضاً عنه تنهد ثم قال:

– كنت أعلم أنكِ ستأتين بمجرد انتهاء ذلك الجنون الذي أحدثه الدراويش هنا لسبعة ايام.. كنت أعلم أنني وأنتِ كزوجين من البجع يتفرقان على ميعاد ويلتقيان على ميعاد ولهذا يُمكنني أن أقول لكِ أُحِبُكِ دون وجل لأن تلك الكلمة ستغادر شفتاي الآن لكنها ستبقى في قلبكِ إلى أن أستردها يوماً ما أكثر حُمرة مما هي عليه وأكثر إغراقاً في المعنى.

هزت (مريم) رأسها بإيجاب لطيف مؤكدة على ما قاله ثم ابتسمت مردفه:

– هل حدث وراودك شعور وصل بك إلى قناعة تامة حتى النخاع أن أحد ما سيلعب دوراً مهماً في حياتك؟

نظرت (مريم) إليه بينما هو يضم شفتيه ويهز راسه بالإيجاب أيضاً كما فعلت هي قبل ثوانٍ لتتابع قائلة:

– بالنسبة لي كان هذا الشعور مُلحاً وقاتلاً وكنت أتطلع لمقابلة هذا الشخص الذي أتضح لي فيما بعد أنه أنت!! يبدو أنني تلك الفتاة الجسورة التي اتبعت حدسها فاكتشفت نوعاً ما من الحب وخاضت غماره حتى ولو كانت هذه التجربة مبهمة وسريعة بشكل لا يُصدق! في تلك اللحظة فُتح باباً لحوار طويل بينهما حيث أخرج (يونس) من صدره زفيراً بارداً وقال: – أتعلمين أعتقد أن هذه هي المرة الأولى التي أراكِ فيها تبدين سعيدة بصدق!

– هذا ارتياح.. أما السعادة فهي شيء آخر.

– إذن أعتقد ان أي ما يكن الذي تشعرين به فهو الشقيق الأصغر للسعادة

– سأخبرك أمراً.. أأنت من النوع الذي يُصدق النساء؟

– إن كُنَ جميلات هكذا مثلكِ فلما لا؟

– أسمع.. لا تصدق أي شيء تخبرك به امرأة إلا إذا رأيت عينيها تلمعان فهذا يعني أنها صادقة فيما قالته لك.

– أعتقد أن عينيكِ الآن تلمعان أكثر من مجرة صغيرة تتوهج على أحد أطراف هذا الكون الغارق في العتمة.. إذن أنتِ أكثر من صادقة.. ربما قديسة.

ضحكت ووضعت باطن كفها الأيمن على عينيها ولكن (يونس) استمر متابعاً:

– أنت بهية بشكل مثير حقاً ومن هُنَ بمثل هذا البهاء لا ينبغي لهُنَ أن يقلنَ ما لا يشعرنَ به.

–حسناً. بعد هذا الفاصل غير المتوقع من المديح..

قاطعها قائلاً:

– عفواً.. إنه فاصل من الغزل آنستي وليس مديحاً.. لنضع الكلمات المناسبة في أماكنها رجاءً! صدرت منها قهقهة ناعمة ثم تَنَحْنَحَت مستكملة حديثها:

–أين كُنا؟. نعم.. بعد هذا الفاصل غير المتوقع من الغزل قد يخطر ببالك أن من تجالسها الآن ستكون تلك المرأة المثالية معك مستقبلاً؟ أتوقع أنني على صواب أليس كذلك؟

– ربما نعم.. لم لا!

– إذن أنت لازلت لم تعي كيف يمكن لأي حبيبين أن يُكملا حياتهما سوياً..

ألديك أدنى فكرة يا (يونس) ماذا تعلمت من تلك السنوات الطويلة التي كنت أرى خلالها زواج أبي وأمي يكبر يوماً بعد يوم ويزداد متانة على الرغم من أنه مُسلم وهي مسيحية!!

– ماذا تعلمتِ؟

– أنك لابد ألا تسمح للأشخاص الذين تحبهم ان يحددوا لك كيف تحبهم.. لذا دعني أُحِبُكَ كما يتراءى لي دون أن تظن أنني بتلك الدرجة من المثالية ودون أن أجهد نفسي لأظهر لك ذلك.. دعني أُحِبُكَ بعيوبي ومحاسني ولتفعل أنت ذلك أيضاً.. دعنا نؤمن أنه مهما يكن ومهما يحدث سينتظر أحدنا الأخر إلى الدقائق الأخيرة من تلك الساعة التي سيحتضر فيها هذا العالم وسيحب أحدنا الأخر إلى أن تذبل قلوبنا أو إلى أن تكف مياه المحيط عن كونها مالحة.. اتفقنا؟

اتسعت حدقتيه وابدى فرحاً داخلياً عظيماً بما سمعه وقال بصوت مغتبط:

– اتفقنا

ثم رفع رأسه نحو السماء وبعد ثوانٍ مرت بطيئة بعض الشيء أردف:

– أتعلمين.. عندما رأيتكِ أول مرة كنت سأوافق أن أجعل من نفسي أضحوكة مقابل أن أقضي معك دقيقة واحدة فقط.. واحدة فقط ليس أكثر من ذلك

– هذا أمر مثير للاهتمام.

ضحك ثم تابع: – لقد فكرت فيما قلتيه للتو عن عدم وجود شيء مثالي في هذا العالم فحتى علاقة الإنسان بربه ليست بذلك الكمال حتى ولو كان ذلك الإنسان راهباً أو ولياً كهؤلاء الراقدون خلفنا تحت قباب أضرحتهم الدائرية العملاقة.. ماذا لو اختفى الإنسان فجأة.. أليس هذا نوعاً من إظهار الحب لشيء ما؟ لشيء ما غير مفهوم تماماً!!

– ربما.. ولكن من يختفي فجأة إن لم يكن وراءه من ينتظره فغيابه لا يعول عليه.. فنحن لا قيمة لنا دون شركاءنا يا (يونس) إنما الحياة كفاح وإن كُنت محظوظ ستعثر على من يُشاركك كفاحك هذا

– أعلم أنكِ أحياناً كثيرة تريدين إبهاجي.. ولكن صدقاً توجد بداخلي فوضى كبيرة أسف حقاً إن سحبتكِ إليها

– أظن أنني سُحبت إليها بالفعل منذ أن رأيتك أنا أيضاً أول مرة.. عندما تحدثناً أول مرة في الطريق الجانبي للسوق.. أتذكر ذلك؟؟ منذ تلك اللحظة آمنت أننا التقينا لقدر وأن لكل واحد منا قصة ليعيشها مع الآخر

– (مريم) أريد أن أعرف منكِ إن كنت جيداً كفاية ليس بالنسبة لكِ ولكن على الأقل بالنسبة لي؟

– أتعلم!!.. أرغب في أن أبرحك ضرباً.. إن لم تكن جيداً كفاية لما تسللت من بوابة منزلنا للقائك ها هنا وسط أولئك الأولياء الذين يراقبون الزوار والمارة من تحت الأغطية الخضراء الحريرية التي تكسو أضرحتهم

– إذن سأجعلكِ تعيشين مغامرة مثيرة كفاية لتجعلكِ تُفكرين مرتين قبل أن تقولي لأحدهم أنه جيد بالنسبة لنفسه قبل ان يكون جيداً بالنسبة للآخرين.. وقد نبدأ هذه اللعبة قريباً!!

– المغامرة التي حقاً أريد خوضها معك هي السفر إلى الإسكندرية ورؤية إن كان البحر الذي ينسجون حوله القصص هنا في هذه القرية حقيقياً أم لا؟

– ليس لدي أدنى شك أن هذا سيحدث.. أعدكِ

- ٣ -

في التاسعة مساءً كان صوت الصغير (مروان) يتردد صداه بين جدران المنزل منادياً على أمه كي تحضر له كوباً من الحليب المُحلى كما أعتاد منذ أن فُطِم بعمر السنتين وبينما ردت عليه أمه من غرفة داخلية مجاورة للردهة الواصلة بين غرفة الضيافة والمطبخ كان الصغير منهمكاً في تسيير قطاره البلاستيكي الذي يصطحبه معه أينما ذهب فهو يعتقد أن قطاره الملون ذو العربات المزينة بنقوش طفولية كقلبه سيكبر معه وعندما يصبح رجلاً كأبيه سيكون القطار أيضاً أصبح ضخماً ويمكنه حينه أن يستقل عربة القيادة ويقود قطاره عبر القرى المجاورة دون حاجة لقضبان حديدية أو وقود فهو لا يرى نفسه مستقبلاً إلا سائق قطار أو مسافر دائم الجلوس داخله.. وبعد دقائق جاءت أمه تحمل كوب الحليب ورقائق خبز طرية ثم جلست على الأرض بجوار صغيرها على مهل ووضعت ما تحمله أمامه فقبض على محيط كوب الحليب الزجاجي بيديه الصغيرتين ثم ظل يرتشف منها حتى شبع فأعاد الكوب لوالدته بينما أرتسم على وجهه شارب أبيض لعقه بلسانه فيما بعد وما إن همت (شادية) بالنهوض لتستكمل ما تبقى من أعمالها المنزلية من تنظيف وغسيل أواني وكي للملابس وتحضير كل ما يلزم لراحة زوجها الذي سيعود في صباح الغد ليقضي معهما اجازته الأسبوعية المعتادة شد الصغير طرف ثوبها ناظراً نحو صورة جده لأمه الحاج (عباس) المعلقة على الحائط المقابل له وقال:

- لماذا يا أمي توجد صورة لجدي في منزلنا ومنزل خالتي (ريحانة) أيضاً؟

أجابت الأم مبتسمة:

- لأننا نحبه يا عزيزي ولهذا نضع صورته في منازلنا

- إذن فكل الأشخاص الذين نحبهم سنضع صورهم على الحائط بجوار صورة جدي.. صحيح!

وضعت والدته كوب الحليب شبه الفارغ جانباً ثم جلست متربعة ومدت يديها نحوه وقالت:

– ليس من الضروري أن نضع صورهم بجوار صورة جدك ولكن يكفي أن نحتفظ بشيء يذكرنا بهم لأننا كما قلت لك نحبهم.

رفع (مروان) رأسه نحو صورة جده ثم أملها متسائلاً:

– لماذا يوجد شريط أسود على حافة إطار الصورة؟

ارتبكت (شادية) عند سماعها لسؤاله ولكنه أكملت حديثها معه مبتسمة لتقول:

– جدك الآن مسافر ونحن نضع هذا الشريط ليعرف كل من يرى صورته أنه مسافر

– أبي أيضاً يسافر كثيراً يا أمي لماذا لا تضعين هذا الشريط على صورته؟ وهل عندما أسافر بالقطار عندما أكبر ستضعين شريطاً أسود على صورتي؟

هُنا شعرت بانقباض قلبها بشدة لكنها أكملت مستدركة:

– لا يا عزيزي.. والدك يسافر كل أسبوع ويعود أليس كذلك؟

هز الصغير رأسه بالإيجاب لتستكمل حديثها:

– لكن جدك لن يعود في نهاية كل أسبوع كما يفعل والدك.. جدك مسافر دائماً ولن يعود إلا بعد سنوات كثيرة جداً جداً.

– أين ذهب؟ ألهذا السبب لم يعد يزورنا؟ لكنني أحب الحلوى التي يجلبها لي معه وأريده أن يأتي مع أبي غداً أنا أيضاً أحبه واشتقت إليه.

– جدك كان رجلاً طيباً ولهذا سافر إلى حديقة الله.. فكل إنسان طيب عندما يكبر ويصبح عجوزاً يسافر إلى حديقة الله حيث يوجد بها أزهار جميلة وفواكه وموسيقى.

عندئذ قاطعها الصبي طارحاً سؤالاً جديداً:

– هل يمكن السفر لحديقة الله بالقطار؟ وهل يوجد هُناك حليب مُحلى مثل الذي أشربه هُنا أو عند خالتي؟

ضحكت (شادية) بلطف وضمت صغيرها إلى صدرها ثم قالت:

– أتعلم.. هُناك في حديقة الله توجد قطارات كثيرة ملونة وكبيرة وتُصدر أصواتاً جميلة ويُقدم للمسافرين حلوى لذيذة وهناك أيضاً قطارات أخرى تطير في الهواء.

تهلل وجه الفتى ورفع رأسه عن حضن أمه وقال بصوت بهيج:

– إن جدي محظوظ أظنه الآن يستمتع بركوب القطارات وأكل الحلوى.. أريد الذهاب لحديقة الله يا أمي.. أخبري أبي أن نذهب هُناك في اجازته القادمة. عاد قلبها للانقباض مجدداً ولكنها سرعان ما هدأت لتجيبه:

– سنذهب هُناك أنا ووالدك وخالتك وجميع أهل القرية الطيبون ولكن ليس الأن.. ليس الآن يا (مروان).

وضع يده على رقبة أمه محاولاً ضمها ثم قال:

– وماذا عن الناس الأشرار يا أمي.. أين يذهبون؟

– الله يعرف دائماً كيف يتصرف كل إنسان وعندما يصبح الإنسان عجوزاً مثل جدك يبعث الله له ملائكة ليسافر معهم ولكن أين يذهب بعد ذلك هذا متوقف على حسب تصرفاته ليجهز له الله ما يستحقه.. فعندما يكون الإنسان قد تصرف تصرفات جيدة ماذا تظن الله سيقدم له؟ بالطبع سيفتح له باب الحديقة ويجعله يستمتع بالطعام والشراب ويعطيه بيت يسكنه وبداخله أشياء كثيرة يحبها ويريدها وكلما طلب شيئاً يخلقه له الله.. أما لو كانت تصرفاته سيئة ولا يسمع كلام الله.. هل تظنه يستحق أن يكون موجود في الحديقة الجميلة التي جهزها الله للصالحين؟ طبعاً لا، فيكون عليه أن يتحمل نتيجة تصرفاته ويتحمل العقاب.

وهُنا توقفت الأم عن الكلام للحظات ثم مسحت بباطن كف يدها اليمنى على ظهر الصغير وتبادلا الابتسام ثم طبعت قبلة زهرية على جبينه وقامت بهدوء تام حاملة كوب الحليب الفارغ وبقايا شرائح

الخبز واختفت بين الردهات وزوايا الغرف بينما الصغير ظل محملقاً في صورة جده المزينة بشريط حريري أسود وللحظة ظن الطفل بأن جده يبادله النظر والابتسام فوضعية التقاط تلك الصورة توحي لمن يراها أن صاحبها أيضاً يبادله التلصص.. عاد (مروان) ليخفض رأسه مُركزاً على مهمته الجديدة في تسيير قطاره الصغير في طريق وعرة تتمثل في الفراغات المظلمة ومجهولة التضاريس بالنسبة له الكائنة تحت الأريكة دودية الشكل التي تستحوذ على مساحة كبيرة من صحن المنزل.. بعد إرهاق شديد أصاب جسد الصغير كفت مفاصله عن تحريك قِطاره ففي تمام العاشرة مساءً صعد فوق الأريكة ونام على ظهره ومدد ذراعيه للوراء بحيث كانت رأسه بينهما ثم قال:

– أعلم يا الله أنك تراني في الليل وفي النهار فقد أخبرتني أمي بذلك وأخبرتني أيضاً أنني كلما احتجت شيئاً أطلبه منك دون خجل.. ولهذا فأنا أطلب منك الآن أن تأخذني في نزهة قصيرة داخل حديقتك وتُقِلني في أحد قطاراتك الطائرة ولكن دون أن تعلم أمي بذلك حتى لا تغضب.. وزد على ذلك أنني أريدك أن تصبح صديقي!!

كانت هذه أخر كلمات (مروان) قبل أن يغلق عينيه ليستسلم جسده الغض لنوم عميق وبعد نصف ساعة انتبهت والدته لانخفاض صوت ارتطام القطار الخاص بصغيرها بالحائط وبأرجل الأريكة فعلمت أنه استسلم للنوم فوق الأريكة كما يفعل أغلب الليالي فتركت ما بيدها وذهبت لتحمله إلى سريره ولكن عندما اقتربت منه وحملته بين يديها كان (مروان) قد سافر إلى حديقة الله بالفعل منذ دقائق!!

- ٤ -

في الصباح الباكر لليوم التالي كان الحاج (فرهود) صاحب أقدم حانوت لبيع الفول المطبوخ في القرية يرفع بيديه المرتعشتين بوابة حانوته القصديرية لأعلى ثم دخل وأشعل نار الموقد وحرك إحدى الطناجر الضخمة قريباً منه ووضع فيها ما قد جهزه ليلة أمس من فول مطحون وخضروات مع مساعده (زكريا) ذلك الرجل الخمسيني النحيل الذي بالكاد يمكن لجسده أن ينتصب اثناء سيره من شدة هُزاله ومع ذلك فهو يبيع ما تبقى من قوته مقابل حفنة من الجنيهات التي لا يمكن أن توفر له طبقي لحم في شهر واحد.. انتهى (فرهود) من تجهيز الدفعة الأولى من الحساء الصباح الذي سيتركه يغلي فوق نار الموقد الهادئة ليسحب بعد ذلك كرسيه الخشبي ويجلس أمام بوابة حانوته يمسح بطرف جلبابه خاتم فضي له مقدمة مكعبة بارزة تتوسطه قطعة من الفيروز السينائي الحر ورسم على جدرانه الجانبية مربعاً كبيراً قُسم داخلياً إلى تسعة مربعات صغيرة كُتب في كُلٍ منها حرف الهاء منفرداً بخط الرقعة والأهالي يتحدثون فيما بينهم أن (فرهود) لا يخلعه من يده قط لأنه خاتم روحاني يسخر له رفقاء من الجن لخدمته.. ظل الوضع قائماً على هذا النحو لدقائق حتى بدأ يرى مساعده الذي لم يتأخر عليه بدوره يلوح له من بعيد ويُسرع الخطى نحوه وما إن وصل للحانوت حتى قال له:

– صباح الخير يا (زكريا).. على ما يبدو أننا لم نهرس ما يكفي أمس من حبوب الفول لذا افتح جوالاً من تلك الأجولة الصفراء المرتكنة على الحائط وضع ما بداخلها في الطاحونة وابدأ عملك وليُعنك الله.

هز (زكريا) رأسه ودخل لينفذ ما أُمرَ به ورغم أن كتفيه قد هبطا وبرزت عظامهما واصطبغ جلده بلون حبات عرقه القاتمة ورغم أنه يعود كل مساء إلى بيته مُنهك وخائر القوى ليرتمي على سريره الخوصي كجثة تسقط من أعلى جبل إلا أنه كان قادراً على دفع مقبض الطاحونة والدوران معه ليطحن

الغلال تحت ثِقل تلك الصخرة البازلتية الدائرية الكبيرة المتصلة به كأنه ثور مُغمى يدور ثابتاً في مكانه لتشغيل ساقية ماء ضخمة.. وبينما كان الصمت يخيم على الحانوت ولا يخدشه سوى صوت الطاحونة وهي تدهس حبات الفول اليابسة بلا رحمة قال الحاج (فرهود):

– هل ذهبت يا (زكريا) لساحة أبوك الحاج (أحمد) خلال السبعة أيام الماضية؟

أجابه مساعده بنبرة غير مكترثة وهو يواصل تحريك الطاحونة:

– لم أذهب هناك منذ سنوات يا حاج.. أكره رؤية أولئك الدراويش الذين يقفزون كالقرود بجوار قبر رجل ميت ويسيل من أفواههم زبد ثقيل كالقشدة ينم عن أن هؤلاء قد فقدوا أخر قطعة من نسيج أدمغتهم وأصبحوا مجانين بالكلية.. أكره ذلك حقاً.

التفت صاحب الحانوت نحوه وحرك كرسيه للداخل وقال بصوت متنكر لما سمعه:

– أتشك في قداسة الساحة؟

حينها ترك (زكريا) مقبض الطاحونة واعتدل مواجهاً رب عمله واسند ظهره على صخرة الطاحونة ودخلا في نقاش صباحي ممتزج برائحة الفول المطبوخ في طناجر نحاسية تصهر كل شيء تبتلعه حتى الزمن وعمر الإنسان حيث قال:

– ماذا فعل لي الحاج (أحمد) كي أعظمه كما يفعل الناس؟ لقد طلبت منه أن يشفي أمي المصابة باعتلال في رئتيها ولم يفعل وماتت أمي بعد ذلك.. ثم طلبت منه أن يُرقق قلب كبير خفراء القرية ليقبل بي زوجاً لابنته ولكنه أيضاً لم يفعل.. لم يفعل لي أي شيء يمكنني شكره عليه أو أضع له جنيهاً واحداً في صندوق نذوره الخشبي العميق

– ألا تبهرك تلك المواكب التي تحمل البيارق السوداء والخضراء وهي تجوس بين فراغات الشوارع والأجساد في يوم ميلاده؟ لو لم يكن ولياً حقاً لما فعلوا له ذلك

– وما الفائدة من ذلك إن لم ينفعني بشيء!

– ربما لم تكن صافياً كفاية ولم تكن روحك بالطهر اللازم لكي يقبلك ويساعدك.. أتظن أن هؤلاء الصالحين يساعدون أي كان هكذا دون تحريات مسبقة؟

– هل رأيت منه كرامة ما بأم عينيك حتى تجزم أنه ولي؟ فقد يكون المدفون في هذا القبر حماراً أو كلباً أو لصاً قتلوه الأهالي ونسوا أمره قبل أن يأتي زمن آخر يتحول فيه القبر لضريح مقدس.

– يبدو أن الأفيون الذي تدخنه كل ليلة قد ذهب بعقلك وبإيمانك أيضاً يا (زكريا) ألم تقرأ قول الله تعالى: (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)؟

– دعك من الأفيون الآن.. أنا أسألك سؤالاً صريحاً هل رأيت منه كرامة لتحسبه ولياً؟

اغتاظ الحاج (فرهود) من كلام مساعده وأخذ شهيقاً حاراً مختلطاً ببخار ما يُطبخ على مقربة منه ثم قال:

– الحاج (أحمد) رجل مُبارك ويكفي أن جميع أهل القرية في زمانه شهدوا على أنه سافر إلى مكة في موسم الحج على جريدة نخل يابسة وأخبرتني أمي أنه كان يركبها كحصان ويركض بها في شوارع القرية وينادي في الناس أنه من يرغب منهم في الحج إلى مكة أن يركب خلفه على هذه الجريدة وهناك من ركب خلفه وأقسم أن كان يرى الكعبة الحجيج يطوفون حولها.

قطع حديثهم صوت وقع أقدام أحد الزبائن يأتي متمايلاً كأن النعاس يضرب رأسه بمطرقة عنيفة وما إن اقترب بشكل كافي حتى عرفه الحاج (فرهود) على أنه (محمد) عاجن الطين الذي بزغ له القمر في أعلى سقف ضريح الحاج (أحمد) هو وأخيه عندما كانا يرممانه وأنتشر الخبر بعد ذلك وانتشرت معه الحمى في القرية وما جاورها من قُرى وهُنا قرر (فرهود) أن يستعمله كشاهد إثبات على كرامات الولي الصالح الذي يشكك فيه مساعده فأجلس (محمد) على عتبة الحانوت بجواره ثم بدأ يطرح الأسئلة والتي كان يتلقى عليها الإجابات التي ترضيه وهذا عندما توجه نحوه وقال:

– ما رأيك في فيمن يقول إن أولياء الساحة الخضراء لا وجود لهم وأن كراماتهم محض هراء؟

انتفض (محمد) من مكانه وقال بصوت أجش يشوبه تثائب خفيف:

– استغفر الله العظيم!.. الذي يشكك في الأولياء كافر يا عمي الحاج.. أعوذ بالله.

جاء صوت (زكريا) من الداخل مجلجلاً:

– أتكفر الناس وأنت تجلس على مؤخرتك يا فخاري السوء! لعنة الله عليك أفسدت لي صباحي.

أعقب ذلك قهقهة رنانة أطلقها الحاج (فرهود) ولمعت من خلالها قواطعه الذهبية التي ثبتها بلثته بعد سقوط أسنانه الأمامية قبل سنوات وبدا فمه من الداخل ورديا للغاية كأنه فم شاب في العشرين وليس فم كهل يساعده في حانوته كهلاً أخر واستمر الجدل بين الثلاثة قائماً حتى انتهى على غير رغبتهم حيث بدأ الزبائن في الورود لشراء وجبة افطارهم الرخيصة المعتادة لكل صباح وحينها أُمرَ لصانع الفخار بكيس مملوء بما قدره جنيهان من الفول المطبوخ مجاناً جزاء ما قاله في حق ولي القرية صاحب الكرامات.

بعد ذلك بخمس ساعات أي في الساعة الثانية عشر ظهراً هبط (يونس) على درجات السلم منتقلاً من غرفته بالأعلى نحو صحن المنزل في الطابق الأرضي حيث تجلس والدته (خديجة) ويجاورها والده (إسماعيل التلمساني) فقبل يديهما ثم تكلم بإيقاع هادئ دون مقدمات وقال:

– أبي.. أمي.. أريد أن أتزوج (مريم) بنت (شاهين الحواتكي)!!

أصابت والديه فرحة لحظية ممتزجة بدهشة حيث أنهما لا يعرفان شيئاً عن وقوع ولدهما في غرام إحداهن وقبل أن ينطق والده بأي كلمة كانت والدته سباقة حيث قالت له:

– (مريم) بنت (كارمن)؟

أجاب من فوره:

– نعم

فأردفت والدته:

– ألم تجد سوى بنت النصرانية لتتزوجها؟ كل الفتيات المسلمات في القرية لم يعجبنك؟

أشار لوالدته أن تهدأ ثم قال:

– (مريم) مسلمة أيضاً يا أمي

فقالت:

– ولكن أمها نصرانية وأنا لا أحب أن تكون حماة ابني موشومة بالصلبان، هذا فأل نحس.

أحس (يونس) أن والدته لن تجعل أمر زواجه سهلاً فأشار لوالده أن يشاركهم الحديث فهز رأسه مستجيباً فتكلم واصفاً والد العروس:

– (شاهين) من أكثر رجال القرية وقاراً وأرجحهم عقلاً وأنا لا أمانع في أن تتقدم لخطبة ابنته وكونه متزوج من مسيحية هذا لا يعيبه فزوجته لا تقل عنه فضلاً ووقار.. دعك من كلام (خديجة).

وهنا ردت عليه زوجته بلهجة متحدية:

– لن يتزوجها وأمها لن تدخل بيتي.. لقد سمعت من أحد الشيوخ أن من يصافح نصراني يتنجس وأنا لن أقبل هذا.

نظر (إسماعيل) نحوها وقال:

– دعكِ من هذا الهراء يا امرأة، فأنا أعرف الفتاة وأعرف ذويها ولا أجد فيهم عيباً يمنعنا من أن نزوج (يونس) منهم. ثم تنحنح وتابع:

– مُبارك عليك زيجتك يا بُنى.. لن أسألك كيف عرفت فتاتك ولكني سأترك تلك التفاصيل لكما وحدكما فما يهمني الآن أنك أحسنت الاختيار وسوف نذهب لخطبتها اليوم مساءً بعد صلاة العشاء.

قام (يونس) من فوره وقبل يد والده ثم جثى على ركبتيه وقبل قدمي والدته ثم عاد وقام ليقبل يديها ورأسها كترضية منه لتبارك زواجه كما باركه والده وبعد استعطاف طويل نجح في ذلك وأنتزع منها موافقة صعبة ثم بعد دقائق أطلقت عدة زغاريد تسلل صداها خارج بوابة المنزل فاجتمعت نساء

الحي من فورهِنَ ثم دخلنَ ليستفسرنَ عن أسباب تلك الزغاريد ولسان حالهنَ يقول ما القصة؟ ماذا يجري هُنا؟.. ومع قدوم سيدات الحي واحتشادهن أمام البوابة صعد كل من (إسماعيل) وولده للطابق الأعلى ليُكملا مناقشاتهم حول الأمر تاركين سيدة الدار تُفصل لقريناتها سبب إطلاقها الزغاريد قبل دقائق.

وبالرجوع لحانوت الحاج (فرهود) فمع اشتداد حر الظهيرة تضاءل عدد الزبائن وتفرغ كل من الرجلين لمناقشة نفس القضية التي اختلفا حولها صباحاً فافتتح (زكريا) الحوار قائلاً:

– هل تصدق الأخوين الفخاريين فيما ادعياه؟.. أيبزغ القمر في سقف ضريح ضيق ويترك السماء الواسعة؟

– ولمَ لا؟ أتعجز قدر الله عن فعل شيء؟ من يخلق من العدم قادر على نصر اولياءه بالكرامات حتى ولو كان قمراً مكتملاً يبزغ في سقف ضيق معروش

– أما أنا فلا أُصدق

–عندما كنت صغيراً ألم يحك لك والدك عن كرامات أهل الساحة الخضراء؟

– بلى

– إذن هل كان والدك يكذب هو أيضاً؟

– لقد نسيت كل شيء وتجاوزت كل حكايا أبي وصرت أخشى من عدوى حكاياه أن تأسر روحي من جديد.. لم تساعدني يد الله في أي شيء ولم تساعدني شفاعة الأولياء وتركوني اعاني لسنوات طويلة لهذا كفرت بأولئك الأولياء.. كفرت بهم جميعاً.. كما أنك أنت نفسك لا تملك من حكايا الحاج (أحمد) سوى قصة حجه على جريدة نخل يابسة وتظل ترددها كلما رُفع الغطاء عن هذا البئر.

– إذن أنت تريد المزيد؟

أجاب بصوت هادئ ورتيب:

– نعم

فأمسك (فرهود) بذقنه وأخذ يمسح بباطن كف يده عليها ثم قال:

– في زمن الحاج (أحمد) كان الناس يأتون له بالقرب الفارغة فيقربها من فمه ويتمتم عليها فتمتلئ بالماء وكان هنالك بعضاً من أهالي القرية تمكن الضلال من استعمار قلوبهم وشككوا في مساندة السماء لهذا الولي فأتوا له بجرار من الخل وقالوا له إن كنت ولياً حقاً فحول هذا الخل إلى عسل!!.. فجلس متربعاً أمام الجِرار وظل يصلي ويتضرع لله من بعد صلاة العصر حتى صلاة العشاء وكان حشداً كبيراً من أهالي القرية محيطين به وإذ به فجأة يقول لأصحاب الجِرار: خذوا عسلكم بارك الله لكم فيه!!.. لم يصدق الناس هذه المعجزة التي حدثت أمامهم حتى اغترفوا برؤوس أصابعهم بعضاً منه وتذوقوه ثم ضج الحشد بالبكاء بعد أن غلبتهم كرامات الولي الصالح سيدي الحاج (أحمد).. وبعد كل ما قلته لك سابقاً وما قلته لك الآن وما أخبروك به الناس ما زلت لا تصدق؟

رد (زكريا) من فوره طارحاً حلاً لإنهاء الجدل فقال:

– إن كان الحاج (أحمد) ولياً حقاً ويمكنه غوث الناس في مصائبهم فأنا أطلب منه إن كان يمكنه سماعنا أن يحول هذا الفول المطبوخ في تلك الطنجرة النحاسية إلى عسل كما فعل أول مرة!!

اغتاظ صاحب الحانوت ثانيةً من بلاهة ما سمعه وقبل أن يهم بنهر مساعده بصوت جهوري حاد كان يقف على بوابة الحانوت أحد الدراويش يرتدي جلباباً مرقعاً بخرق بالية كل رقعة بلون مختلف ويبدو أن ظهر فجأة من اللا مكان ولكن الحقيقة أنه كان يهيم على وجهه يتسول كسرات الخبز من المنازل حتى انتهى به الحال جوار بوابة هذا الحانوت فلاحظ (فرهود) وجوده ثم ألتفت له وسأله:

– ما حاجتك؟

فأجاب الدرويش بتؤدة:

– لا حاجة لي عندك إلا رغيفاً يابساً إن أردت أن تجود به.

ثم نظر إلى الأرض وبعد ثوانٍ عاد ليرفع رأسه نحو السماء قائلاً:

– قيوم يا رب!!

أراد حينها (فرهود) أن يشركه في الحوار بينه وبين مساعده بما أنه من "أهل الله" كما يعتقد فسأله عن كرامات الولي محل الخلاف ليقول:

– الكرامة آية صغرى من آيات الله ولا يؤتي الله آياته إلا لمن يؤمن أنه جزء من روحه ولا يمكن أن تكن جزءًا من روح الله إلا إذا أحببته.

صار (فرهود) متعطشاً للسمع أكثر فسأل الدرويش مجدداً:

– وكيف يمكن ذلك؟

فأجابه قائلاً:

– الحب الإلهي لا يوجد فيه حرفية للمعاني إنما هو المقصود أبداً من خلف سياق الكلام وعلى هذا علّمتنا الحكمة التوحيدية أن ننظر لخلف الأشياء دون الأشياء.. قيوم يا رب.

لم يفهم كلا من (فرهود) و(زكريا) حرفاً مما سمعوه لكنهم أعطوا الدرويش صحناً من الفول وثلاثة أرغفة ولكنه قبل أن يُغادر قال لـ (زكريا):

– يا عبد الله.. ارفع غطاء تلك الطنجرة ووزع ما تحويه من عسل على كل ذي حاجة.

ثم جلس يأكل على عتبة الحانوت بينما (زكريا) أصبح غارقاً في عجائبية ما حدث وما سيحدث بعد قليل فيما رمقه رب عمله بنظرات مطلية بفرح عظيم وأشار له أن يرفع الغطاء عن الطنجرة كما قال الدرويش فاقترب منها ببطيء ثم كاد قلبه أن يذوب كشمعة كلما أحكمت يده المرتعشة قبضتها على غطاء الطنجرة وبعد عدة محاولات فاشلة بدى فيها ذلك الغطاء أثقل من صخرة الطاحونة استطاع

رفعه ليتوقف كل شيء في جسده عن العمل ما عدا عينيه ولكنه لم يرى سوى ما يعلم أنه موجود مسبقاً في الطنجرة!! مجرد حبات فول مطبوخة وقبل أن يتفوه ببنت شفة كان الدرويش يكدس الطعام في فمه ومن ثم أبلغه بصوت عالٍ أن يتذوق ما بها..

ففعل وعندها كاد أن يجن!!

إنه عسل!!

اللعنة كيف يمكن أن يكون للبقول المطهية حريفة المذاق نفس طعم العسل!!

لم يُبدِ (زكريا) أي ردة فعل سوى أنه أدار رقبته ببطيء نحو (فرهود) ونظر إليه بعينين جاحظتين وما إن استدار نحوه حتى هجم هو الأخر على الطنجرة ليتذوق ما بداخلها وعندها أصابته نفس الدهشة وظل متسمراً في مكانه بجوار مساعده بينما كان الدرويش قد انتهى من تناول طعامه ثم قام مستنداً على عصاه دون أن ينظر للخلف ثم غادر الحانوت وهو يتمتم بصوت عالٍ:

– أنا الكون الفسيح وأنا حبة الخردل.. ابكوا فحضن السماء يتسع للمحبين..

قيوم يا رب!!

لم تمضِ على تلك الحادثة ساعة واحدة من الزمن حتى أنتشر الخبر في كل أرجاء القرية حتى أن الشحاذين أخذوا يطرقون بوابات المنازل ويصرخون في الباحات مرددين بأن الحاج (أحمد) أرسل مندوبيه لتحويل بقول (فرهود) الفوال إلى عسل لتصيب الناس حمى أشد من سابقتها فتهافت الأهالي على الحانوت تهافت الجراد على سنابل القمح فالكل يريد أن يجرب بنفسه كيف هو طعم الفول المطبوخ الذي تحول لعسل واكتظ الشارع الواقع به الحانوت بصفوف طويلة قد تبدو لك أن لا آخر

لها وكل فرد فيها يحمل طبقاً يريد أن يتذوق ولو ملعقة واحدة من آثر المعجزة وأحاطت بتلك الحشود حلقات متشابكة من الدراويش يمسك بعضهم يد بعض ويحملون المباخر والمسابح المصنوعة من الخرز تلف أعناقهم ولكن هناك درويش مألوف واحد فقط هو من لم يعد له أي آثر في المكان وربما يظهر فجأة مرة أخرى في وقت ما كما اختفى فجأة!!

- ٥ -

" طحانوف " تلك قرية التي يظن سكانها أن شوارعها الضيقة مليئة " بالأبدال " وهم حسب التراث المحلي للقرية وحسب المفهوم الصوفي السائد مجموعة من الملائكة يسخرهم الله للتشكل في هيئة بشر صالحين يحلون محلهم في مواطنهم إن غابوا لأي سبب حتى لا يشعر الناس بالوحشة ومن هؤلاء الأبدال شاب ضرير يسير نحو المسجد في كل أوقات الصلاة دون أن يحتك بأي حائط أو يرتكز على أي عصا.. يمشي واثقاً كأنه يرى بوضوح كل شيء تحت قدميه ومنذ فترة تقارب السنة لم يراه أحد من أهالي القرية ولكن بصورة مفاجأة أخذ يظهر ويختفي بشكل متقطع فما كان من الأهالي إلا أن ترسخ في أذهانهم أن هذا الشاب ربما توفاه الله ورفعه إليه لصلاحه وما يرونه ما هو إلا بدل من الأبدال حتى لا تخلو الأرض من ظِل الأولياء وكل اختفاء عجائبي وكل ظهور مفاجئ سيفسرونه بتلك الطريقة وهذا بالضبط ما قاله الحاج (فرهود) لمساعده (زكريا) عندما تناقشا حول هوية الدرويش صاحب المعجزة فربما كان أحد الأبدال وربما كان أحد خدام أولياء الساحة الخضراء جاء ليثبت قدرتهم على صنع المعجزات في زمنهم أو في أزمان أخرى!!.. ظلت أوضاع الأهالي هكذا حتى المساء وعلى أي حال فالنقاشات الريفية تصطبغ بالكثير من الألوان فلك أن تأخذها على محمل الجد أو تتركها دون التقليل من احترامك لها فربما كان أحد ما من عالم أخر يحرس تلك الحكايا وينتقم ممن يستهزأ بها هذا وقد أسدل الليل ستائره وصدح أذان العشاء في فضاءات القرية ليغمر سماءها بالكثير من البهجة والدفء فهرع المصلين إلى التراص في صحن مسجدهم العتيق المبني من الطين ومصبوغة جدرانه باللونين الأصفر والأبيض وبعد انتهاء الصلاة حان موعد ذهاب " آل التلمساني " لخطبة (مريم) على حين غِرة ولكن لا يُعتقد أنها كانت ستمانع في ذلك فوقف (يونس) بصحبه والديه وطرق الباب ثلاثاً إلى أن فُتح لهم وهُنا يُعاد أحد المشاهد التي اعتادت البشرية على تكرارها منذ اليوم الأول

لتقرير مراسم الزواج التي شاعت وارتضاها الجميع فعائلة الخاطب تقدمت بطلبهم لعائلة الفتاة المرصودة وحدث ذلك النقاش وتلك التنازلات ثم التبريكات أو التعزية وفي حالة عائلة (يونس) تمت الموافقة بشكل أكثر سلاسة عن ما هو متوقع وتم تحديد ليلة العرس بعد مرور شهر عربي كامل من ليلة الخطبة.. إذن فلما الإغراق في وصف ما تراه بعينيك كل يوم ويحدث حولك كل ساعة؟ فلا جديد هُنا وليس هنالك وقت لوصف فرحة عروس عذراء بيوم خطبتها ربما لأن هذه الأنواع من الفرح من كثرة تكرارها تجاوزها الناس أو لنكن منصفين غالبيتهم فعل ذلك!!.. خرجت عائلة " التلمساني " من منزل نُسابهم الجدد وكل فرد فيها يُعانق كُل من يُماثله في عائلة " الحواتكي " فالأب يُعانق الأب والأم تُعانق – بشكل مذهل – الأم النصرانية للعروس و(يونس) متعلقة عيناه بوجه (مريم).. بعينيها وشفتيها.. انتهت المراسم وحصل كل طرف على مبتغاه وأتجه والدي العريس نحو منزلهما دون أن يلتفتا للخلف بينما كان ولدهما يتبعهما بتباطؤ لا سبب واضح له ولكن لعله أراد أن يختلي بنفسه لوقت وجيز فما زالت المصابيح الصفراء المرتعشة المعلقة أعلى أعمدة الإنارة واجمة في أزقة يتبختر بين عتمتها الليل وما كادت الأنسام الهزيلة تلوذ إلى فوج الضوء القادم من المدى حتى عم الفراغ شيء من السخونة تبعتها انتعاشه جعلت جدران المنازل تتنفس بصعوبة وبنفس الوقت جعلتها هشة أكثر فالجو العام لتلك الليلة يُشبه إلى حد ما كوخ اقتلعته الريح في يوم عصيب أو غصن سقط من خميلة وتهاوى إلى قاع سحيق فيا لسوء الجراح الغائرة في جسد القُرى التي تتماهى على طرقاتها كمجهول شطرته العتمة إلى نصفين.. وعلى جهة أخرى توازياً كانت خطواته مستمرة في التلكؤ إلى أن أُطل عليه من انعطافه الزقاق رجل أحدب ربما قد تجاوز عقده الثامن يمشي مستنداً على عصاه ونهاية طرف جلبابه ترتفع عن الأرض وتُظهر ساقيه اليابستين نظراً لانحناء ظهره وبروز ذلك التل الصغير فوقه فبدى وكأنه مدينة خلعت سقفها وجلست في العراء تندب حظها العاثر تحت خيمة القيظ ولأن كلاهما لم ينتبه للأخر فاصطدما لكن (يونس) أسرع بإمساك ذاك الذي كأنه أطل عليه من

حافة الروح قبل أن يسقط أرضاً فرفع العجوز رأسه نحو وغرس عينيه المُطفأتين في وجهه وتكلم من تحت عمامته قائلاً:

- بالحق ترى الحق خلف كلَّ ما أرادَ الحقُ.. حي هو الله!!

لم يفهم (يونس) ماذا كان يقصد هذا الكهل بكلامه لكنه ساعده في الاعتدال أكثر وتركه يكمل طريقه لكنه ظل يراقبه إلى أن عبر ذلك الزقاق خوفاً من أن يسقط حيث أن اختلاله يعني موته فعظامه لن تتحمل ارتطاماً واحداً بتلك الأرض الترابية غير المعبدة التي يمشون فوقها وما إن عبر واختفى حتى تابع طريقه نحو المنزل بتؤدة.. لكن رغم فرحته ظلت دائماً ذكرى (دانيال) تراوده وذكرى كل الأولياء أبطال الحكايات الأسطورية المُعادة التي يرويها الناس يومياً إن جفت أبار أحاديث حياتهم الخاصة فجعله ذلك يرى سقف الحياة واهن لدرجة أنه في بعض الأحيان يتحول لرجل منتهك الحدود يجالس في أمسياته الوحدة ماجداً كالذكرى وفي كل اللحظات كان الصمت يئن في نفسه مُسبباً له ألماً هادئاً ويبين في وجهه تجاعيد تبدو كوشوم مثل هندي أحمر أخير يلطمه زفيف الريح كلما تفقد أكواخ قريته الخاوية كان مثالاً حياً على أولئك الرجال الذين يقتفون ظلهم أبداً ويجعلون أرواحهم حرة كفاية لتبحث عن الغيب وكل ما هو محجوب.. هو لا يعلم كيف ستنتهي رحلته وكيف ستبدو محطة وصوله الأخيرة وهل سيجد ما يشغله قابعاً هناك أم أن كل ما سيجده مجرد رايات خضر وحبات خرز متناثرة لمسبحة درويش كان هنا قبل أن يسافر نحو الشمس!!

- ٦ -

الزمن أصبح هشاً يتلاشى سريعاً كغمام الصيف أو كحلم يقظة يعبر مخيلة المرء منا لدقائق ثم يتبخر فالأيام أصبحت تأكل بعضها والساعات تولد مشوهة قصيرة الذيل غير مكتملة الطول فما تم الاتفاق عليه بين العائلتين قد حان وقت تمامه دون أن يشعر أحد يشعر أحد أن قمراً عربياً مات وأخر ولد!! ففي مساء اليوم الثلاثين من الشهر المحدد كمهلة لترتيب كل ما يخص تجهيزات العرس كان حي عائلة " آل التلمساني " والأحياء المجاورة له على موعد مع البهجة حيث عُلقت الأنوار على حوائط بيوت الحي ونُثرت أوراق الورد على مداخله وبدت الأرائك متراصة في تناغم تام حول المسرح الخشبي المعد لجلوس العريس عليه يجاوره فرقة موسيقية تعزف لوناً عتيقاً من الموسيقى الريفية ألا وهي موسيقى السير والملاحم فتزاحم الناس على حجز أماكنهم واجتمعت النسوة حول العروس في منزلها الجديد وتم نقل الأثاث والأجهزة الكهربائية والمنسوجات والأغطية إليه وحتى أن هنالك دفعات كبيرة من الطعام تم نقلها أيضاً وأصبح كل شيء جاهزاً فقد حان وقت بداية الحفل فاكتظت الأزقة بشباب القرية من أصدقاء (يونس) وغيرهم مرتدين جلابيبهم العربية وتلتف حول أدمغتهم عمائمهم المطرزة فيما انشغلت الصبايا اللواتي لبسن ثياباً مزركشة بمساعدة العروس على لبس فستانها الأبيض ثم نقشنَ الحنة على كفيها فيما كانت أعناق النسوة مشرنقة على النوافذ بانتظار قدوم العريس فما إن رأينه حتى علت الزغاريد فجأة فها هو العريس بكامل بهائه يرتدي حله خاصة وعمامته البيضاء تلمع كأنها ماسة قد وصل على الحصان الذي يسحبه والده من لجامه ويمشي به وهو يشدوا بصوت أبوي يعج بالفرح:

– عريسنا الزين وصل.. صلوا على النبي

وبجواره يسير لاعبي المبارزة بالعصا فيرقصون تارة ويحتطبون تارة أخرى وكان الناي والطبل يرندحان في الساحة مع توالى الرقصات من الرجال المحيطين بها ثم يتوقف الفرس الذي يحمل العريس بمنتصفها ثم يهبط وسط الحشود ليتم رفعه على منصة المسرح بجوار فرقة العازفين وعندها يبدأ أحد الاصدقاء بالغناء مردداً:

– " أنا بحب النبي وديني وأود اللي يودني.. يا رب أكرمني وإديني ياما نفسي أفرح زي الناس "

وحين ينتهي من غناء المقطع الأول تشتعل عاصفة من الآهات والتصفيق ويبدأ كل رجل من الحاضرين يشارك بغناء أحد المقاطع من تلك الأهزوجة بينما تبدأ أكواب الشاي وكؤوس العصائر تمر عليهم ممهدة لقدوم تلك الصواني الكبيرة من اللحم التي ستستقر وسط الساحة ليلتف حولها الجميع التي ما إن تأتِ حتى ينشغل الحضور برفع أكمامهم والشروع في الأكل فتسكُن إيقاعات أهازيجهم لتتاح الفرصة للشاعر الحكاء الجالس على المنصة هو وفرقته ليبدأ في الغناء بوتيرة هادئة تتصاعد بعد انتهاء كل شطر من أبيات الشعر التي يُغنيها وفي الغالب فإن هؤلاء الحكائين يستهلون حفلات الأعراس بسرد أجزاء من السيرة الهلالية التي لا يمل الحاضرون من سماعها ولا يمل الشاعر من غناء وقائع ملاحمها وعرس (يونس) لم يكن حالة شاذة حيث بدأ الشاعر بترنيم بعض مقاطع السيرة حيث قال:

– " بعد المديح في المُكمل

أحمد أبو درب سالك

أحكي في سيرة وأكمل

عرب يذكروا قبل ذلك!!

سيرة عرب أقدمين

كانوا ناس يخشوا الملامة

رئيسهم أسد سبع ومتين

يُسمى الهلالي سلامة

يابا آه يا عيني على آه

يابا آه يا عيني على آه

عرب يذكروا قبل ذلك!!

بعد المديح في النبي الزين

مولانا بالخلق عالم

اسمع كلام واعر وزين

نحكي ما جرى لابن غانم

سنتين في هم وأفكار

سنتين في غلب الليالي

سنتين سهج مع نار

سنتين يومي لحالي

دول على بعض تمن سنين

برا جرح بطر الحبايب

فضلت في قضيض وأنين

مسكين عادم الحبايب

يابا آه يا عيني على آه

يابا آه يا عيني على آه

عرب يذكروا قبل ذلك!!

فز دياب يا مستمعين

قال أنا أصيل الجدودِ

أنا ما تملى عيني ملايين

أنا الهزمت اليهودِ

دخل يومها على أسمر اللون

قال قلبي على العدى سخامة

سبحان من عَمر الكون

شفت يا أبو زيد فِعل الزغابة!!

أبو زيد قاله تسلم وتعيش

أفضالك يا دياب نحسبوها

غيرك أنت في الحرب ما فيش

لازم قيمتك نحفظوها "

استمر الراوي في هدير سرده لأحداث الملحمة وهو جالس على كرسيه يرتدي جلبابه الأزرق الفضفاض واسع الأكمام ويضع ربابته على فخذه ومن خلفه فرقته يجارونه في الإيقاع برباباتهم وطبولهم واهتزازات عمائمهم البيضاء الضخمة.. ظلت هذه الحالة من الابتهاج قائمة حتى قرابة الساعة الثانية صباحاً فهم العريس بمغادرة الحفل متجهاً للطابق العلوي من منزله حيث تنتظره عروسه التي يتوق لأن يجرب مذاق قربها منه دون أن يكون هنالك موعد محتم لغيابها وعودتها لمنزلها كما كانت تفعل حينما يلتقيان قرب سور الساحة الخضراء.. لا.. هذه المرة اللقاء أبدي والقرب أبدي أيضاً.. خبت شعلة الحماس بالخارج وبدأ الحضور بالمغادرة متسللين خلف بعضهم البعض بما في

ذلك الفرقة الغنائية التي غادرت المنصة تاركين ورائهم أهازيج عديدة مقضومة الحواف لم تكتمل فعمت دقائق من السكينة غمرت أرواح كل من في المكان وزاد الأمر جلالاً تلك النسائم الباردة التي أنعشت قلوب المحبين واخترقت اضلع العروسين عبر نافذة غرفتهم العلوية وعندها اقترب (يونس) من عروسه وقال:

– تبدين جميلة جداً اليوم

فأردفت:

– بل سعيدة جداً

فرفع جلبابه لمستوى ركبتيه ثم جلس بجوارها على السرير ومد أنفه نحو رقبتها ليشم رائحتها التي جعلت عظامه أشبه بعظام النحاميات الوردية مجوفة وخفيفة الوزن.. كان يستطيع أن يطير بعد أم ملء رئتيه بأريج جسد عروسه لكنه نام على ظهره ووضع باطن كفيه خلف رأسه بينما هي خجلت أن تفعل لكنه شدها من ثوبها لتتمدد بجواره وحينها تكلم معها بحميمية مجردة وكانت عيناه تنظران لسقف الغرفة فأمتد الحديث بينهما عندما بدأه بقوله:

– لقد تبعتكِ كأرضٍ قاحلة يتوسدها الجفاف تتبع المزن الأزرق الذي بُعث ليصب مقاديره من الماء المزركش في هضابها الجافة الخشنة لقد انتشلتِ قلبي المُشقق من قيظ الأحقاف يا (مريم) لقد أتيتِ لتعمديني في نهر عينيكِ الذي يفيض كل عام مرتين فتغرق الأرض في جمال مؤقت لأيام ثم تعود لقساوتها وقبحها إلى أن يحين موعد فيضانه الثاني.. كم أنتِ قديسة في قلبي

– ليتني أستطيع لملمة حديثك من المدى وغزله كقميص حريري ألبسه ليكن شفيعاً لي عندما ترفرف على وتيني روابي القاتمة.. لا أدري كيف أصبحت معك الآن ولكني هُنا بالفعل ولا يهم كيف حدث ذلك لكن المهم أن نبقى هكذا

– اعلمي أنه لا وطن لي سوى قلبكِ

– ولتعلم أنك أنت نفسك دياري الواسعة مفتوحة النوافذ فكل ما فيك ينتمي لي حتى تلك التقطيبة التي كنت ترمقني بها عند حلول الغضب.. حتى صوتك ومشيتك المتبخترة ينتمون لي.. أنت تمنحني طمأنينة اليقين وتتلي علي ترانيم كصلاة الشكر تجعلني أكثر رسوخاً وقوة.

– كثيراً ما سمعت الفقهاء وحتى القساوسة يقولون أن هناك سبع سماوات الواحدة تعلو الأخرى إلى أن نصل إلى السماء السابعة الأخيرة، أعتقد أنكِ أنتِ هي هذه السماء، أعتقد أنكِ السماء الأخيرة لأي كون مخلوق الآن أو ربما سيُخلق بعد أن نفنى، أنتِ سماء لا ريب.

– بل أنا تلك الفتاة التي نامت على حافة نافذة غرفتها قبل سنوات متمنية حياة أخرى غير تلك التي تعيش..

حياة يمتلكها شخص يقف على الطرف الأخر من العالم لكنه يراها ويعلم ما تريده فيمد يديه الطويلتين لمنحها طرداً مغلفاً يحوي كل ما اشتهت من حلوى ومفاتيح لأبواب من غمام تخفي ورائها حدائق صنعت من القطن الملون ومن صباحات الأعياد..

وعندما اقتربت مني علمت بأنه أنت

– قولي لي.. أأنت أكثر سخاءً أم (مريم) العذراء؟

– كيف لي أن أجيب عن سؤال كهذا؟

– في الحقيقة لا أعرف ولكنه تفجر بداخلي فألقيت به إليكِ

– أمي تصلي لها كل ليلة وهي تخبرني أنهنَ صديقات يتسامرن سوياً في المنامات كثيراً وأظن أنها الآن تصلي أيضاً للعذراء لكي تباركني أنا وأنت لذا أعتقد أنها أكثر سخاءً مني

- ربما ستصبحين مثلها يوماً من الأيام

- لا أعتقد أنني سألد طفلاً يختلف حوله الناس أهو إله أم لا

- نعم.. لكنك ستنجبين طفلاً يمكنه أن يغير اطليه جدران النفوس كما تفعل أمه بالضبط

امتد الحديث بينهما إلى أن شقت أنوار ساعات الصباح الباكر الباهتة عتمة ستائر الليل الورقية فناما في مكانهما دون أن يتحركا شبراً واحداً للأمام أو إلى الخلف.

- ٧ -

صوت المذيعة الداخلية الرائق لمحطة القطارات يتسرب عبر مكبرات الصوت السوداء المزروعة بين جنبات سقف المحطة مُعلناً عن خمس دقائق متبقية لقيام القطار رقم ٣٣٤ المتجه نحو الإسكندرية ثم يعم السكون لدقيقة كاملة قبل أن ينبعث نفس الصوت الانثوي الرائق من ذات المكبرات مُنبهاً:

– رجاءً.. على السادة المسافرين إلى الإسكندرية على متن القطار رقم ٣٣٤ التوجه إلى البوابة رقم ٧ وذلك لقيام الرحلة في غضون أربعة دقائق من الأن.. شكراً لانتباهكم ونتمنى لكم رحلة سعيدة عبر سكك حديد مصر

عاد السكون يخيم مرة أخرى على قاعة الانتظار إلى أن فُتحت البوابات وعندها أمسك (يونس) بيد زوجته الحامل في شهرها الثالث بعد أن مر الآن على زواجهما خمسة أشهر.. يد (مريم) باردة ومتعرقه وتنزلق من يده كلما حاول إحكام قبضته عليها فهي لا تصدق أنها أخيراً ستذهب لمشاهدة بحر الإسكندرية وجهاً لوجه وتختبر بنفسها صحة كل الحكايا التي سمعتها من أقاربها العائدين إلى القرية بعد أن أنهوا أعمالهم في الإسكندرية والتي في الغالب تتمحور حول مجال البناء والعمل كأفراد متعددي المناصب كخلط الإسمنت وتثبيت أسياخ الحديد لصب الأعمدة الخرسانية بأجرة يومية في مواقع الإنشاءات.. يلف (يونس) يده حولها لمساعدتها على الإسراع نحو البوابة التي عبراها متجهان نحو العربة الثانية من القطار حيث مقعديهما المحجوزين قبل ذلك بعشرة أيام نظراً لضغط المسافرين الشديد على تلك الرحلات فمنهم من يسافر شمالاً لطلب الرزق ومنهم من يهرب من شيء ما ومنهم من يقطع كل تلك الأميال فقط من أجل أن تخبو في جوفه نار الفضول حول كينونة تلك المدينة الأسطورية التي يصورونها في القُرى على أنها أبعد نقطة في العالم حيث لا شيء بعدها سوى بحر أزرق كبير.. كبير جداً.. يصل الزوجين لمقعديهما ثم تجلس (مريم) مجاورة للنافذة فتبتسم بشغف طفولي

طاغٍ فَرِحة بتحقيقه لوعده الذي قطعه لها عندما كان يتقابلان خلسة قرب ساحة يراقب أولياءها المتسللين على مدار الساعة ثم يجلس هو على الكرسي المقابل للممر وما إن تنتهي الأربع دقائق حتى تبدأ عجلات القطار الحديدية معانقة القضبان التي تحتها ليتحرك القطار مغادراً ساحة المحطة تاركاً ورائه كون أخضر صغير مليء بالمعجزات والدراويش والرهبان القادرين على صنع الخوارق.. تاركاً ورائه جلابيب صغيرة مرقعة لصبيه يركضون وراء الحافلات المتجهة نحو المدينة انطلاقاً من مدخل قريتهم حتى اجتيازه ثم يتوقفون عن الركض ويشرعون في تقسيم أنفسهم لفريقين واحداً يمثل اللصوص والأخر يمثل الشرطة يَخْتَبِئُ الفريق الأول في انتظار أن يتم القبض عليهم وذلك حتى يسمعون زامور حافلة أخرى متجهة نحو المدينة ليجتمعوا مجدداً عند مدخل القرية ذاته ويركضون ورائها ربما لأنهم يعتقدون أن المدينة هي العالم الحقيقي أما ما يعيشون فيه إنما هو عالم افتراضي هامشي لا يمكن أن يسع كل تلك الشوارع المعبدة ذات الأرصفة الإسمنتية الملونة بالأصفر والأسود والبنايات الضخمة التي يصفها لهم العائدون من المدينة عصر كل يوم.. العائدون من العالم الحقيقي!!.. خرج القطار من حيز الرقعة الريفية المحيطة وبدأ بشق طريقه نحو أراضٍ جديدة وفي خضم هذا كله كانت أشعة الشمس تتلألأ على زجاج النوافذ ومشاهد عديدة لجبال ومراعي ومدن تمر بسرعة خاطفة في الخارج أما داخل العربات فكانت رائحة دخان السجائر هي المسيطرة على الأجواء يخالطها بخار أكواب الشاي الساخنة المحلاة بمكعبات من السكر الحكومي المُدعم الرديء رخيص الثمن الذي تصرفه وزارة التموين لمحدودي الدخل وبعض بقع سوداء دائرية متمددة على الأرضية ليتبين فيما بعد أنها قطع عِلك بُصِقت وتركت لتلتصق بأماكنها ثم تحجرت لتغدو جزءً من سطح الممر.. مرت ثلاث ساعات هدأ خلالها بكاء الرضع المستمر على صدور أمهاتهم الجالسات في المقاعد الخلفية للعربة ثم غفى الجميع ليستيقظوا بعد خمس ساعات أخرى حين سحب سائق القطار ذراع المكابح بقوة للخلف لتلتصق العجلات على قضبانها معلنة عن نهاية الرحلة ليبدأ الركاب

بتحضير حقائبهم والمغادرة نحو ساحة محطة قطارات الاسكندرية التي بدت ذات صبغة برتقالية حيث أن الساعة الآن السادسة زوالاً والشمس تحتضر باحمرار شديد في الأفق وعند تماس قدمي (مريم) مع درجات سُلم المحطة الرخامية شعرت أنها على حافة خوض تجربة ربما لن تنساها قريباً أو لن تنساها أبداً!!

حمل (يونس) الحقائب على كتفه وسار ممسكاً بيد زوجته متجهاً نحو أقرب فندق للمحطة شرط أن يكون متوسط التكلفة وبعد عدة أسئلة خاطفة مع المارة وُصِف له فندقاً من أربع طوابق يتماشى مع ميزانيته المحدودة بعض الشيء فتحرك من فوره نحوه وقام فعلياً بحجز غرفة بسرير واحد كبير يكفي لزوجين لمدة أسبوع ثم ترك حاجياته لحامل الحقائب الذي أوصلهم لغرفتهم الموسومة بالرقم ٢٩ ليُفتح الباب ويُدخل مُرافقهما الحقائب حتى وسط الغرفة بمسافة قريبة من السرير وبعد أن فرغ من ذلك مد (يونس) يده في جيب جلبابه وأعطاه ورقة من فئة الخمسة جنيهات كإكرامية بعدها خرج حامل الحقائب وأغلق الباب خلفه ثم تمدد الزوجين من فورهما على سرير غرفتهما الجديدة وثرثرا طويلاً حتى غفى كل منهما محتضناً الآخر.. وفي صباح اليوم التالي بعد أن قُدمت لهما وجبة الإفطار وقبل أن يشرع في اصطحاب زوجته للبحر الذي طالما تاقت لرؤيته وقفت خلفه وعانقته ثم قالت:

– أريد أن أذهب لزيارة مراقد أولياء الإسكندرية.

فتعجب من طلبها ليردف سائلاً:

– لِمَ؟

تنهدت ثم أجابت:

– أليس لكُل بلدٍ أولياءها؟

– بلى

– ألم نأتِ من كُورَةٍ تعج بالأولياء وأصحاب الكرامات!

– بلى يا (مريم).. لكن ما هو القصد؟

– القصد هو أنني أخشى من غضبتهم فهم كما تعلم يراقبون الغرباء على الدوام وربما لا يروق لهم أن ننخل شوارع الإسكندرية دون المرور عليهم وتحيتهم!

ضحك (يونس) واعتدل ملتفتاً إليها ثم ضمها قائلاً:

– لا عليكِ لن يغضبوا منا.. وعلى أي حال فلتكن مشيئتكِ ولنذهب لأحد مقامات الإسكندرية التي طالما سمعت عنها من والدي عندما كنت صغيراً

– من صاحبه؟

– ستعرفينه عندما نصل.

نزل الزوجين عبر الدرج للطابق السفلي ومنه خرجا نحو الرصيف المقابل لبوابة الفندق ثم أشار (يونس) إلى إحدى سيارات الأجرة لتتوقف ثم ركبا على عجل في الأريكة الخلفية وتم إبلاغ السائق أن يتجه صوب حي كرموز وبالتحديد أمام ساحة مقام (أبو الدرداء) فهز السائق رأسه مستجيباً وانطلق بسيارته يجتاز الانعطافات والمحاور المزدحمة إلى أن وصل بعد نصف ساعة إلى المكان المقصود ثم استلم منهم أجرته وأنزلهم أمام بوابات المقام تماماً.. أما اول انطباع لهما عن هذه المنطقة فكان الاندهاش من تلك الفوضى التلقائية لجميع مستعملي الشارع الضيق الذي يفصل ساحة المقام عن ميدان أخر أوسع مقابلاً لها وبإلقاء نظرة عامة فالمشهد يستحق الدهشة حقاً فالترام يسير ببطء شديد والسيارات بجميع أحجامها تتصارع لتسبقه مع توقف بعضها للتعامل مع المحلات من بيع وشراء وتحميل وتنزيل البضائع بين كل هذا وذاك حركة كثيفة للمترجلين من مارة وحرفيين وزبائن ونُدل يدورون بصواني القهوة بحركات بهلوانية بين السيارات لخدمة أصحاب المحلات وزبائنهم كل هذا الضجيج يتعايش بسلام تام مع المقام وصاحبه فاتح الإسكندرية الذي من المرجح أنه قد توفي بدمشق وأما المقام الموجود بالإسكندرية والذى يتبرك به البسطاء ويقيمون حوله الاحتفالات

في الأعياد فمن المرجح أنه بُنى كمبنى تذكاري أقامه السكندريون اعتزازاً منهم بذكرى هذا الصحابي الجليل الذى شارك في فتح مدينتهم ومع الزمن أعتقد الناس أن هذا هو ضريحه وأن جثمانه مسجى به ولكن الحقيقة التي قد تكون مؤسفة للسكندريين العاشقين للأساطير أن القبة الخضراء الموجودة بالضريح لا يوجد تحتها شيخ.. وعلى الرغم من ذلك فقد ربط السكندريون وجود هذا المقام بعدد من الخوارق حيث يُحكى أن وزارة التخطيط والعمران في العهد الملكي والمعروفة على مستوى العامة باسم " البلدية " عندما فكرت في توسيع الشارع الذى يوجد به المقام في بدايات القرن العشرين رأت أن تنقله الى مكان آخر حتى لا يتوسط الشارع فيعوق المرور وبدأت فعلاً في تنفيذ الفكرة ولكن واحداً من العمال الذين كانوا يعملون في نقل الضريح شُلت يداه وأبى بقية العمال أن يستمروا في عملهم وأيقنوا أن الولي الكبير والصحابي الجليل يرفض أن يُنقل مقامه إلى أي مكان آخر واضطرت البلدية إلى أن ترضخ لاعتقادات العامة وأبقت الضريح كما هو وتحايلت لتوسيع الشارع من جانبيه ليسهل تسيير الترام فخَطَّا الترام في هذا الشارع يسيران كالعادة متوازيين الى أن يصلا قرب الضريح فينفرجا ويدور كل منهما حول الضريح الى أن يخلفاه وراءهما ثم يتقابلان ثانية ليسيرا متوازيين .. وحسب الموروث المحلي أيضاً لتلك المنطقة فإن (أبو الدرداء) قد كشف عن كرامة أخرى حيث أنه في ليلة مظلمة من ليالي عام ١٩٤١ عندما اشتدت غارات الطائرات الألمانية على المدينة وكان مبنى المحافظة أحد أهداف هذه الطائرات ألقى عليه طوربيد ضخم كان يكفى لتحطيم المبنى والحى المحيط به وهو حي آهل بالسكان ولكن العناية الإلاهية حمت الحى وساكنيه واستيقظ السكندريون ليروي كل واحد لأخيه كيف أن سيدى (أبى الدرداء) انتفض من قبره المجاور لمبنى المحافظة فأبعد الطوربيد بيديه ليسقط في أرض فضاء مجاورة ويستقر في تربتها الرخوة دون أن ينفجر ليتقاطر السكندريون من كل فج بعد ذلك قاصدين مشاهدة آثار هذه المعجزة التي لا يعلم حقيقتها أحد ولكنها استقرت كمعجزة في الوجدان السكندري تماماً كما يحدث مع المريدين في كل مكان وزمان..

استفاق كلاً من (يونس) و(مريم) من اندهاشهم بالمكان وبظروفه المحيطة وتقدما لعبور البوابات التي عُلقت فوقها لافتة رخامية بيضاء كُتب عليها بالخط الأندلسي

" هذا مقام سيدي عويمر أبو الدرداء الخزرجي الأنصاري – رضي الله عنه – فاتح الإسكندرية وصاحب رسول الله – صل الله عليه وسلم – "

بالداخل كان يتواجد رهط من الدّراويش الزُهاد يتحلّقون حول الضريح ويترنحون مرنمين:

– الله الله.. يا هو يا هو.. الله الله

موائد الطعام حيث الثريدّ واللحم مُقامة بالجوار والرايات الحمراء والزرقاء والصفراء والخضراء ترفرف فوق سطح المقام من جهاته الأربعة وصندوق النذور أمتلئ عن أخره بتبرعات المُريدين وبرسائلهم المكتوبة بخط أيديهم أيضاً.. صندوق النذور هذا يبدو أكبر حجماً من شبيهه الموضوع أمام بوابة ضريح الحاج (أحمد) وربما قد يكون أكبر حجماً من كُل صناديق نذور أولياء الصعيد مجتمعين..

المشهد المهيب جعل (مريم) تتمتم بوجل:

– بركاتك يا سيدنا

وما أن رأى (يونس) الدراويش يتمايلون وتصدح حناجرهم بالمديح حتى التهب جسده بالذكر دون مقدمات واضحة لقد أنخرط بالكلية في بوتقتهم وكاد يذوب مثل فص ملح في طست ماء.. عرقه اللزج يتصبب من مسامات جسده ويكاد يُغرقه وهو يشرع في التمايل معهم بقوة وعنف فظل متماشياً مع نسق المرنمين الحاد حتى كاد حلقومه يتمزّق ويتناثر في فضاءات المقام من كثرة الصراخ:

– الله الله.. ياهو يا هو.. الله الله

وهنا اقتربت منه (مريم) وسحبته من طرف جلبابه قدر استطاعتها فالحمل جعل قواها خائرة نوعاً ما إلى أن أصبح على بعد خطوات من عتبة الضريح لكن المذهل في الأمر أنه عندما ابتعد عن دائرة

الدراويش بعدد معين من الأمتار فتح عينيه المغمضتين فجأة وكأنه كان تحت تأثير قوة ما سالبة للوعي والإرادة..

اكملت (مريم) مساعدته على الخروج من الضريح حتى أصبحا على مقربة من الطريق الرئيسية فأوقفت سيارة أجرة وأدخلته ثم لحقت به وأغلقت الباب وأخبرت السائق أن ينطلق بهم نحو أقرب شاطئ للبحر وفيما كانت السيارة تهم بالتحرك، استعاد (يونس) وعيه بالكامل وضم إليه زوجته ثم دفع للسائق عشرة جنيهات عندما أوصلهم إلى ما سافرا من أجله إنه الحقل الأزرق الكبير.. بحر الإسكندرية.. ضغط السائق على أحد الأزرار الجانبية للمقود ففُتِحت أبواب السيارة الخلفية آلياً وخرج كلاهما متجهين مباشرة صوب البحر ولكن قبل أن يتركها تحتضن بحرها الذي طالما تمنت رؤيته أخذها لأحد أركان السور العام للشاطئ وجلسا على صخرة كبيرة متقابلين وجهاً لوجه مع زرقة لا متناهية وأمواج تبدو أكثر لُطفاً مما وصفت ثم مال واضعاً رأسه على كتفها وقال:

– أتعلمين!!.. في الدقائق السابقة خُيل لي أن هناك فردوساً صغيراً قد نبت من اللاشيء أمام الضريح.. رأيت أطفالاً عراة بأجنحة وأشجار تفاح ثمارها حمراء قانية شهية ورجلاً أبيض بلحية كثة يسبح الله على عُقل أصابعه بصوت هامس يجلس متربعاً فوق فُرشٍ من زبرجد.. لقد كان ينظر لي بلطف ثم يعود للتسبيح مجدداً

– ربما كان هذا هو الولي صاحب المقام بذاته!

– لا يُهم مَن يكون.. المُهم أنه أشعرني بسلام وبرودة جوف لم أعهدها من قبل!!

– هكذا هم الأولياء لهم تصاريف عجيبة حقاً

– هل حكيت لكِ عن الحاج (حكيم)؟

– لا.. لكن إن أردت أن تبوح فلتفعل

– إنه كهل طاعن في السن ربما إن كان للشيخوخة جسداً فسيكون هو.. لقد ذهب إليه ذات يوم لأسئلة عن المُريدين والمُعلمين وضاربي الدفوف في موالد الأولياء لأنني سمعت من الكثيرين أن هذا الرجل له سلطان عظيم في ذلك

– إذن فلتسرد لي ما حدث

– في عصر أحد الأيام من العام المنصرم وبينما أنا أمشي قاصداً منزله وجدته جالساً على مِصطبة من الطين أمام المنزل فسلمت عليه وجلست بجواره فرد عليّ السلام ثم تحركت يده المرتعشة نحو إبريق الشاي الخزفي الكائن أمامه لتمسك به ليسكب بعد ذلك القليل في فنجان واسع خُصص لارتشاف الشاي الإنجليزي أو كما يسميه "شاي الخواجات" ولفرط هشاشة ذاكرته نسي أن يُقدم لي فنجان آخر ولكن لا بأس فالحاج (حكيم) أحد أكبر وأغنى شيوخ القرية المُعمرين وصاحب محبة كبيرة لدراويش عتبات آل البيت وأهل الله المنتشرة في القاهرة وفي جنوب البلاد على حد سواء.. إنه رجل أمي شديد الفطنة نُقشت على وجهه خطوط مائلة لتلك السنوات الطويلة ذات الرؤوس المستدقة الصدئة كأزاميل عُمال التراحيل والتي لا يعرف هو نفسه كم بلغ عددها أو بأي رقم يُقدر عمره ولكنه يردد أغلب الوقت أنه من مواليد السنة التي حُفرت فيها قناة السويس ويقول لمن يسأله عن تاريخ ميلاده بلهجة هادئة:

– أنا مواليد سنة فحت القنال يا ولدي

ولكن حينها شعرت أن هذا يبدو غير منطقي ولكنه من المؤكد على أي حال أنه يتخطى حاجز المائة بقليل ورغم ذلك فهو لا يزال يحتفظ بحيوية ظاهرة لا تُناسب من هم في مثل عمره.. اعتدلت في جلستي ووجهت سؤلاً للحاج فقلت:

– ما هو الفرق بين ما يشعر به أهل الله حقاً وبين ما يشعر به بقية الناس؟

– أهل الله يا ولدي كل ما يفعلونه مسيرين له وكل ما يشعرون به سر.. والله يا ولدي لم أجد ولياً لله إلا وروحه خفيفة كأنها غمام يستظل به السيارة في صحراء مقفرة

– صفهم لي إذن يا سيدي!

ارتشف الحاج (حكيم) القليل من الشاي ثم تنفس ببطء شديد وأرتكن إلى الجدار وأمال رأسه عليه ليُجيب قائلاً:

– لا أراهم إلا كفتيان بعمائم خضراء يُبعثون من الأرض كل صباح كسنابل قمح

انتظرت أن يُكمل الحاج وصفه ولكنه فجأة غط في نوم عميق فقامت من جانبه بسكينة تامة حتى لا أوقظه وأخبرت أهل البيت بغفوة الشيخ على المصطبة في الخارج ثم شرعت في العودة إلى المنزل وأنا أُفكر فيما سمعته وكيف يُمكن أن تعيش عدة أرواح في جسد رجل واحد فمن تحدث معي لا يُمكن الجزم بأنه يملك روحاً واحدة.. وكيف أن هذا العالم مليء بالمتناقضات فالمتنور أمي والمكلومين قلوبهم وردية وواسعة وكل شيء وضده قابلا للحدوث دون معايير حاكمة.. فيمكننا أن نفرح ونحزن في اللحظة ذاتها ويُمكننا أيضاً أن نتجمد برداً وأن نتصبب عرقاً في الوقت ذاته يبدو أن الحياة غير مكترثة بنا على الإطلاق كفتاة تضع أحمر الشفاه الخاص بها وهي تنظر في مرآة سيارة مصطفة بشكل عكسي في غير المكان المخصص لها.. إنها فوضى ما يُحس وما لا يُحس

– اسمع يا (يونس) لقد أصابني الحديث في هذا اللون من الأمور المبهمة بالارتباك وأشعر أنني لن أستطيع استيعاب الأمر أكثر لذلك دعنا نقترب من الشاطئ لنضع أرجلنا داخل البحر ولنترك الأمواج تغطي ساقينا بالملح والزبد.. إنها أمور طفولية لكن نحن هنا في الأصل لنفعلها

مضت ساعات طويلة قضياها في اللعب على الرمال وجمع الأصداف كطفلين ثم تناولا طعام الغداء ليعودا بعد ذلك ليلعبا بالمياه الرائقة لهذا الشاطئ وليغترف كُل منهما بكفيه قدر قدح ثم يرشها على الأخر حتى غابت الشمس ليمشيا جنباً إلى جنب عائدين إلى غرفتهما رقم ٢٩ بذلك الفندق القريب

لمحطة القطار ولكن أثناء سيرهما توقف (يونس) فجأة ثم تسمرت قدماه على بعد أمتار من سارية حديدية موازية للبحر يقف بجوارها شاب وسيم أزرق العينين يرتدي مسوح الرهبان ترتفع فوق رأسه على قمة السارية راية بيضاء ترفرف بصخب.. لا شك أنه يعرف هذا الراهب تمام المعرفة فرغم أن جميع حواسه لم تعد تعمل ولم يعد يرى أو يسمع إلا ما يحدث في تلك البقعة التي يقف فيها التي أصبحت معزولة بالكلية عن العالم إلا أنه قد علم من فوره أنه أمام (دانيال) الراهب.. فكيف ينسى تلك التجربة التي خاضها عندما تبدل الزمن به واختلطت الطرق عليه وهو الذي لم يخبر أحداً عن ما رأى أبداً وظلت كل التفاصيل حبيسة أضلعه.. أخذ رجل الله – كما يُحب أن يصفه مُريدوه – يقترب من (يونس) المتسمر في مكانه وعندما أصبح مجاوراً له قال هامساً:

– ساعتكَ قد حانت.. اترك هذا العالم وامضِ حيث مُقدر لك أن تمضِ.. أتريد أن تُخالط من يتحملون كذبهم ويتبنون حنثهم وخداعهم وإنكارهم للحق وتنكرهم للصدق أكثر من ذلك؟ كيف ستتحمل نفسك أن تقف أمام وجه الرب كأنك شرير والمحامي عن كل شرير؟.. نعم كُل من يمكث في هذا العالم راضياً بما يرى من آثام فهو شرير.. لا تكن قلقاً على حَمل زوجتكِ فهي حُبلى بصبي يُشبهك تماماً وربما سيجدك وتجده في يوم ما.. الكون الذي أنت منه وهو منك ينتظرك.

قال تلك الجُمل برزانة سلسة ثم اختفى وكأنه خيط دخان وعاد (يونس) ليرى زوجته تقف مندهشة من عدم رده عليها رغم مخاطبتها له عدة مرات خلال الدقيقتين الماضيتين ليتدارك الموقف سريعاً ويخبرها أنه قد عاوده ذلك الخدر الخفيف الذي أصابه في المقام صباحاً وبينما كان يُكمل معها الطريق نحو الفندق بدأ يسمع أصوات هادرة كأنها صدى لتهتك حناجر صفوف من الدراويش يتحلقون خلف بعضهم البعض ويرددون في صوت واحد قائلين:

– يا كُل أولياء الله جميعاً المدد.. يا من نحن في حضرتهم وحمايتهم المدد!!

ثم بدأ يسمع أصواتهم ترافقها ضربات الدفوف وحينها بدى وكأنهم يُغنون مرنمين:

لما سقاني ساقي القوم.. من خمره طابت أنفاسي

وساقينا عين الأعيان.. وموصل للعوالي

وساقينا حامي الجيلان.. وما علينا من بأس

يا باز ويا عبد القادر.. يا أيها البحر الزاخر

أدرك اغثنا يا سلطان.. من شدة الوقت العاثر

أوقف سيارة أجرة وجبينه تتصبب عرقاً ويداه ترتعشان لكنه ظل محافظاً على رابطة جأشه وأخبر السائق عن وجهته بينما في الخلفية استمرت الأصوات في الهدير مُناجية:

– الله.. الله.. الله.. الله.. الله

ثم انقطع الترنيم وبدأت تظهر أمامه في السماء دوائر مُشكلة من ثلاث أحرف عربية مزخرفة بنقش قرأني هي " ط، س، م " لتتحد في كلمة واحدة " طسم ".. كان يراها عبر نافذة السيارة فتمر لحظات يرى الحرف الواحد بحجم الجبل وفي لحظات أخرى يرى الحروف تلمع في سماء شبه معتمه كنجوم

شديدة الوهج.. إن الطواسين هي أحد الأسرار القرآنية التي يعتقد المتصوفة أنها لا تنكشف إلا لقطب من أقطاب الله في الأرض.. لا تنكشف إلا للصالحين العارفين الواصلين بالله إلى الله..

وصل الزوجين أخيراً إلى غرفتهما وبعد ساعة من ذلك قال (يونس):

– يا (مريم).. أيمكنكِ أن تعطيني قلم الكحل الذي تكتحلين به؟

سمعت ما قاله فتعجبت لكنها أخرجت القلم من حقيبتها وأعطته إياه وهنا طلب منها أن تجلس بجواره وأن تكشف عن ذراعها فزاد تعجبها ولكنها فعلت فأمسك بالقلم وكتب على ذراعها ثلاث كلمات متقطعة وهي " حب "، " صلاة "، " بَركة ".. ثم نظر لها وقال:

– تلك الكلمات سترشدكِ وتعزيكِ

فقالت:

– لماذا كتبتها بالكحل؟

أجابها مُبتسماً:

– لأن الكحل أكثر طهارة من الحبر

فعادت لتسأله:

– كُل ما حدث اليوم معنا غريب وكُل ما فعلته وقلته الآن أيضاً غريب! ماذا يجري يا (يونس) فأنا أكاد لا أفهم شيئاً؟

اقترب منها أكثر ثم ضمها وأجاب:

– لا عليكِ.. لا يُهِم أن تفهمي شيئاً الآن.. لكن اعلمي أن لكل شيء نهاية فحتى الزمن نفسه سيفنى أما نحن فلا ننتمي لهذا العالم.. نحن خُلقنا من روح الله لنعيش في ملكوت الله.. كوني بخير حتى نلتقي تحت عرش الرب وليكن قلبي معكِ حتى آخر الأيام.

ازداد الوضع تعقيداً بالنسبة لها وشعرت أنها فقدت جزءً كبيراً من قدرتها على فهم زوجها واحتواءه وقبل أن تُرهق نفسها بالتفكير طلب منها أن تحضر له كوباً من الماء البارد فقامت لتحضره وما إن أتت به وشربه أخبرها أن تتمدد بجواره على السرير لأنه يشعر ببعض الدوار ويريد أن يأنس بها قبل نومه.. عندها أخذت منه الكوب الفارغ قامت بركنه جانباً على سطح الطاولة المقابلة لها وتمددت بجواره ثم نقلت رأسه على صدرها وشرعت في هدهدته كأنه طفلها الصغير الثاني الذي ينمو خارج رحمها فظلت على تلك الحال حتى غفى (يونس) وما هي إلا دقائق حتى غفت هي الأخرى.. وعندما انتصف الليل شعر بوجود أحد ما في الغرفة فقام مترنحاً ليتحقق من الوضع بعينين مشوشتين وما إن اقترب من الممر الطولي المؤدي إلى باب الغرفة حتى رأي على عتبته درويش يحمل ملامح أهالي قريته متكئاً على عصاه وهو ذات الدرويش الذي حول قِدر البقول المطبوخة لقِدر عسل قبل أشهر.. ودون يُكلم أحدهما الأخر فتح الدرويش باب الغرفة ثم خرج والتف نحوه مشيراً إليه أن يتبعه فتبعه!!.. ليختفي الاثنان من محيط المكان وكأنهما مُكعب ثلج ذاب بلا أثر.. وفي الصباح استيقظت (مريم) من نومها وأخذت تتحسس بيديها جسد زوجها ولكنها لم تجده.. فقامت لترى أن باب الغرفة ترك مفتوحاً فعلمت أنه خرج متجهاً لمكان ما فانتظرته وطال الأمر لساعات فكادت أن تُجن فذهبت لتفتش عنه في الفندق وفي محيطه حتى أنها ذهبت إلى مقام (أبو الدرداء) لعلها تجده هناك لكنه لم تعثر عليه فعادت لتسأل عنه كل نزلاء الفندق ولكن لم يجبها أحد فعادت لغرفتها تبكي ففي الحقيقة لقد بكت حتى تشقق خديها حزناً وشعرت أن جنينها يشاركها حزنها بطريقة ما.. وظل هذا الوضع قائماً لسبعة أيام أبلغت خلال (مريم) الشرطة وانتظرت لعلهم يأتون لها به أو بخبر عنه ولكن أيضاً لم يجبها أحد فغرقت في حزنها أكثر وفي مساء الليلة السابعة لاختفاء (يونس) وبينما كانت نائمة ظهر لها في الحلم وأخبرها أنه على ما يُرام وأنها يجب أن تعود للقرية فربما قد يلحق بها إلى هُناك في وقت ما.. مرت ساعات المساء طويلة وهادئة وعندما أشرقت الشمس تذكرت (مريم) تفاصيل حلمها بالكامل

فحزمت حقائبها وغادرت الفندق متجهة لمحطة القطار لتقطع تذكرة عودة لقريتها النائية المنسية ولكن قبل ذلك قامت بالاتصال برقم هاتف بيت عمدة القرية حيث أن جميع الأهالي يحفظون هذا الرقم عن ظهر قلب ففي القرية بالكامل لا يوجد أي هاتف سوى ذلك الهاتف الأسود الضخم القابع فوق طاولة خشبية بهتت ألوان طِلَاؤُهَا في بيت العمدة ليصبح بذلك وسيلة الاتصال الوحيدة بخلاف البريد التي تربط من خارج القرية بمن داخلها فعندما يرن جرس الهاتف يجيب أحد الخفراء على المتصل وعندها يطلب منه أن يخبر أسرته برسالة ما أو حتى قد يجلب أحد أفراد الأسرة للتحدث مع المتصل مباشرة ولهذا فقد أخبرت (مريم) والديه بما جرى له وأخبرتهم أيضاً أنها ستعود للقرية وحدها مساءً بعد أن قطعت تذكرة القطار المتجه جنوباً بعد ساعة وأخبرتهم أيضاً عن ما رأت ليلاً وأنها مؤمنة بأن (يونس) لا يكذب حتى وإن كان كلامه معها مجرد حلم ليس إلا.. أنهت المكالمة واتجهت نحو قاعة الانتظار فجلست هناك محملقة في زجاج بوابات العبور التي لم تُفتح بعد ومحملقة أيضاً في الصور المنعكسة عليه لحركة الناس بالخلفية بينما كان وقع الخبر على والديه شديداً حتى أنه بعد أن عادت (مريم) للقرية مساءً سافر الحاج (إسماعيل) مباشرة إلى الإسكندرية ليبحث عن ولده هناك والكثير من شباب القرية قد لحقوا به للغرض ذاته..

لكن وبعد شهراً كاملاً من البحث لم يصلوا إلى شيء وعاد الجميع إلى القرية يحملون أصفاراً ضخمة بين أيديهم وفي الصباح التالي لعودتهم كانت الشائعات قد غزت الأزقة والأسواق وساحات المساجد وفضاءات الحوانيت.. فمنهم من قال أن (يونس) قد مات ومنهم من قال أنه قد سافر لبلاد ما وراء البحر كما انتشرت بعض الأقاويل تُنسب لشمامسة الكنيسة تفيد بأنه قد تنصر ويخوض الآن فترة اختبارات الرهبنة بدير القديس (بيشوي) في وادي النطرون.. لكن الأنباء الأوسع انتشاراً كانت لبعض الدراويش الذين أقسموا بأنهم رأوه برفقة أولياء الساحة الخضراء وأنه أصبح ولياً مثلهم وسيُبنَى له ضريحاً بجوارهم عما قريب.. كُل تلك الفرضيات المتضاربة تسير بخط متوازي مع

أحداث ذلك الصباح حيث مازال (زكريا) يدفع مقبض الطاحونة للأمام لتدهس بلا رحمة حبوب الفول المستقرة في القاع لكن هذه المرة يدفع المقبض بإيمان عظيم بينما الزبائن تُلقي العملات المعدنية في حِجر الحاج (فرهود) الذي مات جالساً على كرسيه مفتوح العينين مستنداً على عصاه كسليمان منذ ساعة ولم يلحظ أحد ذلك فاستمرت الطاحونة في الدوران واستمروا الزبائن في

الاصطفاف لشراء صحن فطورهم المعتاد..

وفي الوقت ذاته تجلس (شادية) القرفصاء مرتدية جلباب حدادها الأسود بجوار قبر ولدها لا تفعل شيء سوى أنها تزداد صمتاً يوماً بعد يوم بينما تحتفل أختها بتحضيرات زواج ابنتها الذي تم تأجيله لأشهر بعد أن مات الصغير فجأة.. ويبدو أيضاً أن هذا الصباح العجائبي يتوافق مع حلول عيد القيامة فجرس الكنيسة يُقرع الآن بشدة ورنينه يُغلف هواء القرية وبالتزامن نرى الأب (مكاريوس) يتقدم مسرعاً نحو مِصدح الكنيسة ليقف أمامه خاشعاً وينشد: – إخرستوس آنستي.. آليثوس آنستي المسيح قام.. بالحقيقة قام. ثم يصمت قليلاً ليعود مرنماً:

– السلام للسمائيين في بادئ النهار.. ملائكة وقديسين وصفوف الأبرار.

يُتابع الكاهن الابتهال مُمجداً قيامة جسد (يسوع) من بين الأموات في الوقت الذي يزاد جسد (رجب) الهزيل تمدداً على سرير زوجته وصوت أغاني (أم كلثوم) الصادر من جهاز التسجيل الموضوع بجانبه يزداد ارتفعاً ليحجب صدى أجراس الكنيسة بالخارج ذلك الصوت الذي يعرف الجيران من خلال توقفه لساعات ثم إعادة تشغيله أن الشيخ (رجب) مازال حياً حيث أنه لم يره الناس منذ يوم دفن زوجته والبعض بدأ يشم روائح تعفن صادرة من نوافذ المنزل فظنوا أنه ربما تكن صادرة عن سلال الطعام التي تحضرها له شقيقته فيأكل منها قدراً يسيراً جداً ثم يتركها لتتعفن حيث أنها أخبرت الجيران أن

الحزن قد حول أخيها إلى شبح ذو لحية شعثاء طويلة وعظام صدر بارزة!!..

لكن على أي حال لا يبدو أن عادات الناس في هذه القرية ستظل ثابتة ومكررة فها هي )مريم) تُعرِض عن الذهاب مع أمها لحضور قُداس قيامة (المسيح) ربما لإيمانها الشديد بأن (يونس) سيظهر لها قريباً فظلت تنتظره داخل جدران غرفته التي تعبق برائحته لتكتفي الأم بالذهاب للكنيسة وحدها لتصلي لابنتها وزوجها لعل الله يُغير الأقدار فكما أنه كُلي الإرادة ويُلزِم من يشاء من عباده بأقدار حددت لهم سلفاً هو أيضاً كُلي المحبة ويمكنه تحريك دفة السفن نحو المراسي الآمنة فعلى الرغم من كُل تلك التكهنات حول مصيره ذاك الشاب إلا أنه يتضح لنا بجلاء أن الغيبة قد تكون لغزاً وقد تكون درباً من دروب الحب فنحن لا نعرف المصير الذي يختبئ خلف كُل وجه واحدٍ مِنا.. نحن لا نعرف ماذا يُدبر لنا في السماء لكن يُمكننُا الوثوق دوماً بأن كُل شيء سيكون على ما يُرام فقط إن كانت قلوبنا صافية بما يكفي..

بعد ساعات أخذت الشمس في السقوط مَخلفة ورائها أسراباً غاضبة من اليمام بالإضافة لسكون مطبق يشبه الغيبوبة ضرب أركان القرية لم يخرقه سوى صوت (رشاد الفخراني) الآتي من البعيد صائحاً: – يا أهل البلد القلوب مرايا والإله ديان..

حي وباقي إلى الأبد يا رب..

حب العزيز يا لوز.. سكر يا لوز!!

تـمـت

السبت / ٢٥ أغسطس / ٢٠١٨ م

مـحـمـد الإدريـسـي

حقوق النشر والتوزيع محفوظة

ببلومانيا للنشر والتوزيع